
أين نحن من هؤلاء ؟!

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ

ⓒ دار القاسم للنشر والتوزيع ، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاسم ، عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن
اين نحن من هؤلاء. / عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم
الرياض ، ١٤٢٤هـ
٣٣١ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك: ٥-٧٩٩-٣٣-٩٩٦٠

١- القصص الاسلامية أ.العنوان

ديوي ٨١٣,٠٨٨ ١٤٢٤/٢٠١٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٠١٣
ردمك: ٥-٧٩٩-٣٣-٩٩٦٠

الصف والإخراج والتصحيح بدار القاسم للنشر

فروع دار القاسم للنشر

جدة.	هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠	فاكس:	٦٣٣٣١٩١
الدمام.	هاتف: ٨٤٣١٠٠٠	فاكس:	٨٤١٣٠١١
بريدة.	هاتف: ٣٢٦٢٨٨٨	فاكس:	٣٦٩٢٨٨٨
خميس مشيط.	هاتف: ٢٢٢٢٢٦١	فاكس:	٢٢٢٣٠٥٠

www.dar-algassem.com
sales@dar-algassem.com

أين نحن من هؤلاء ؟!

المجلد الأول

عبد الملك القاسم

دار القاسم


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة المجموع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فقد يسر الله ـ عز وجل ـ إخراج سلسلة متتالية من مجموعة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تعني بعبادة السلف وذكر زهدهم في الدنيا، ومسارعتهم إلى الدار الآخرة، ومن فضل الله ومنته أن انتشرت وطبعت مرارًا. ورغب بعض الإخوة جمعها في مجلدات لسهولة الوصول إليها مع حفظها وبقائها.

وها هي بين يدي القاريء عقد متكامل من اثنين وعشرين عنوانًا أبقيتها كما هي إلا من بعض التعديلات البسيطة والإضافات العارضة.

أسأل الله ـ عز وجل ـ أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لحظات ساكنة

المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد: ٢٠] والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فلقد كان للجانب المادي الذي سيطر على حياة الناس دورٌ كبير في بُعدِهم عن التفكُّر في مآلهم ومصيرهم، وتبعاً لذلك ضعفت الهمم، وخارت العزائم، وكثر البعد عن الله ـ جلَّ وعلا ـ.

وقد يسر الله لي الاطلاع على بعض أخبار الزُّهد وأحاديث الرقائق التي جمعها علماء الأمة في مجلدات ضخمة، بعضها في كتب مستقلة والكثير منثور في كتب السير والتراجم وغيرها، وصَعُب الانتفاع بها لضخامة تلك المجلدات وبُعدها عن متناول الناس، كما أن بعضها اشتمل على بعض المبالغات والغلو في المخلوقين، وكذلك ما كان فيها من شطحات وخرافات الصوفية وغيرهم. وقد عمدت إلى جمع هذه المجموعات من بطون الكتب، وأرجعتها إلى مصادرها، رغبةً في توثيقها، ومساعدةً لمن أراد الاستزادة.

واخترت لهذه السلسلة ـ التي تتجاوز العشرين مجموعة[١] ـ عنواناً مأخوذاً من قول للإمام أحمد عندما ذُكر عنده أخلاق الورعين فقال: (أسأل الله أن لا يمقتنا)، أين نحن من هؤلاء؟[٢].

---

(١) متنوعة: المواضيع ـ في العبادات والمعاملات والآداب، والأولى منها بين يديك.

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/٢٢٦).

واقتصرت على أخبار السلف ـ من غير الرِّوايات المشهورة ـ وإلا فهناك الكثير منها، وما أنا وإيَّاهم إلا كما قال الإمام الشافعي:

أحـــبُّ الصَّـــالحيـــن ولســـت منهـــم
لعلـــي أن أنـــال بهـــم شفـــاعـــة
وأكـــره مـــن تجـــارتـــه المعـــاصـــي
ولـــو كنَّـــا ســـواءً فـــي البضـــاعـــة

ولا تستغرب أخي القارىء مما في هذه المجموعات من زهد السَّلف وصلاحهم، وما وقع لهم من النشاط في العبادة؛ حيث إنَّهم بلغوا منزلةً كبيرةً في الخوف من الله والزُّهد والتَّقوى، ومن ثم ضعفنا في هذا الزمن ضعفاً كبيراً، فأصبحنا نستغرب هذا ونستكثره.

وفي الجملة فإن خير الهدى هدي محمَّدٍ ﷺ، وما خالف هديه يُرَدُّ على صاحبه.

وهذا الكتاب فيه تنشيطٌ للعبادة، وتذكيرٌ بالآخرة، وتعريفٌ بالصَّالحين. جعله الله خالصاً لوجهه الكريم.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم
abdalmalik@dar-alqassem.com

الوقفة الأولى:

الموت

قيل للحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنع؟ نُجالس أقواماً يخوِّفونا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله، إنَّك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمنٌ، خيرٌ من أن تصحب أقواماً يؤمِّنونك حتى يدركك الخوف.

الموت

إن الموت حقيقة قاسية رهيبة، تواجه كل حيٍّ، فلا يملك لها رداً، ولا يستطيع لها أحدٌ ممن حوله دفعاً، وهي تتكرر في كلِّ لحظةٍ، وتتعاقب على مرِّ الأزمنة، يواجهها الجميع صغاراً وكباراً، أغنياءً وفقراء، أقوياء وضعفاء، ومرضى وأصحاء، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: ٨].

نهاية الحياة واحدة، فالجميع يموت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] إلا أنَّ المصير بعد ذلك مختلفٌ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧].

وقد خلق الله الموت والحياة لشأنٍ عظيم وأمرٍ جسيم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢]. وقد وصف سبحانه ـ وتعالى ـ شدَّة الموت في أربع آيات:

الأولى: قوله الحق: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

الثانية: قوله الحق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

الثالثة: قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة: ٨٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾ [القيامة: ٢٦][1].

ولِعِظم ما نحن مقدمون عليه وصائرون إليه قال رسول الله ﷺ:

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص٢٠.

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً»[١].

ففي الموت عِظةٌ وتذكير، وتنبيه وتحذير، وكفى به ـ والله ـ من نذيرٍ؛ قال ﷺ: «كفى بالموت واعظاً»[٢].

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة، فإن الموت هو الخطبُ الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وإنَّه الحادث الأهدم للذّات، والأقطع للرَّاحات، والأجلب للكريهات، فإن أمراً يُقَطِّعُ أوصالك، ويُفَرِّقُ أعضاءك، ويَهدِم أركانك، لهو الأمر العظيم والخطب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العظيم[٣].

ولكنا نسيناه أو تناسيناه، وكرهنا ذِكره ولُقياه، مع يقيننا أنه لا محالة واقع وحاصل، ولا مفر منه ولا حائل، والعجبُ من عاقل يرى استيلاء الموت على أقرانه وجيرانه، كيف يطيب عيشه؟ خصوصاً إذا علت سنُّه، واعجباً لمن يرى الأفاعي تدبُ إليه وهو لا ينزعج، أما يرى الشيخ دبيب الموت في أعضائه، قد أخرج سكين القوى، وأنزل متغشرم الضعف، وقُلِبَ السَّواد بياضاً، ثم في كل يوم يزيد النَّقص[٤].

وهذا النقص يزداد حتى يعبر قنطرة الموت التي لابد من المرور عليها حتى يصل إلى الدار الآخرة.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه الطبراني وابن عساكر في تعزية المسلم.

(٣) التذكرة، ص٢٨.

(٤) صيد الخاطر، ص٥٣٣.

قال **ابن مسعود**: «ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله»[١].

ولا يتم لقاء الله إلا بعد الموت وتجرُّع غُصصه وآلامه، ولكننا غفلنا عنه؛ لأن المنهمك في الدنيا، والمُكبَّ على غرورها، المُحبَّ لشهواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت، فلا يذكره، وإذا ذُكِّر به كرهه، ونفر منه، أولئك هم الَّذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[٢] [الجمعة: ٨].

وأين ذهَبْتَ فهو ملاقيك، ومهما ابتعدت فهو مناديك. ولكن:

استعدي يا نفس للموت واسعي
لنجاةٍ فالحازم المُستَعِدُّ
قد تبيَّنتِ أنَّه ليس للحيِّ
خلودٌ ولا من الموتِ بُعدُّ[٣]

أخي الحبيب:

أعجب العجائب، سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك، عما قد خُبِّئ لك.

تغترُّ بصحتك، وتنسى دُنُوَّ السُّقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم.

لقد أراك مصرعُ غيرك مصرعَكَ، وأبدى مضجَعُ سواك ـ قبل الممات ـ مضجعَكَ.

---

(١) شرح الصدور، ص٤.
(٢) الإحياء (٤/ ٤٧٧).
(٣) البداية والنهاية (١٣/ ١٠٦).

وقد شغلك نَيلُ لذاتك، عن ذكرِ خرابِ ذاتك:

كـأنَّـكَ لَـمْ تَسْمَـع بـأخبـارِ مـنْ مَضَـى
ولـم تَـر فـي البـاقيـن مـا يصنـع الـدَّهْـرُ!
فـإنْ كُنـت لا تَـدْرِي فَتلـكَ ديـارُهـم
محـاهـا مَجَـالُ الـرِّيـحِ بَعـدكَ والقَبْـرُ[1]

نسمع ذكر الموت وننسى، ونرى العِبر تترى، ولا أحد منا يخشى إلا من رحم ربِّي.

وهناك من لم تُلِهه الدُّنيا، ويغرُّه طول الأمل، فاستعد بترك الذُّنوب، وتجهَّز بالعمل الصَّالح كالقعقاع بن حكيم الذي قال: «قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة، فلو أتاني ما أحببتُ تأخير شيءٍ عن شيءٍ»[2].

ونحن دهانا مجرد ذكر الموت والحديث فيه، بل الكثير يغضب إذا ذُكر الموت، ويرى أنه لا داعي لتكدير حياة الناس، وإفساد مجالسهم بذكر الموت وعِبَرِه.

وقد قيل للحسن: يا أبا سعيدٍ، كيف نَصنع؟ نُجالس أقواماً يخوِّفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله إنك إن تخالط أقواماً يخوِّفونك حتى يدركك أمنٌ، خيرُ من أن تصحب أقواماً يؤمِّنونك حتى يدركك الخوف[3].

---

(١) صيد الخاطر ص٢٦.
(٢) الإحياء (٤/ ٤٨٤).
(٣) الإحياء (٤/ ١٧٠).

وإذا لم تتذكر هذا اليوم، وتستعد له، فاجأك في غدك وأنت في غفلةٍ من أمرك. واعتبر بمن استعدَّ ورحل.

قال **الحسن**: «كان من كان قبلكم يقربون هذا الأمر، كان أحدهم يأخذ ماءً لوضوئه ثمَّ يتنحى لحاجته؛ مخافة أن يأتيه أمر الله وهو على غير طهارةٍ، فإذا فرغ توضَّأ»[١].

قد قُلتُ: إذا مدحوا الحياة فأكْثِرُوا
في الموتِ ألفُ فضيلةٍ لا تُعرف[٢]

قال **الربيع بن بزة**: «عجبت للخلائق كيف ذهلوا عن أمر حقٍّ، تراه عيونهم، تشهد عليه معاقد قلوبهم إيماناً وتصديقاً بما جاء به المرسلون، ثمَّ هاهم في غفلةٍ عنه سكارى يلعبون!».

ثمَّ يقول: وايم الله، ما تلك الغفلة إلا رحمةٌ من الله لهم ونعمةٌ من الله عليهم، ولولا ذلك لألفي المؤمنون طائشة عقولهم، طائرة أفئدتهم، منخلعة قلوبهم، لا ينتفعون مع ذكر الموت بعيشٍ أبداً[٣].

وهو كما قال القائل:

سبيلُ الخلقِ كلِّهم الفناءُ
فما أحدٌ يدوم له البقاءُ
يقربنا الصَّباحُ إلى المنايا
ويدنينا إليهن المساءُ

---

(١) الزهد لابن المبارك، ص٩٩.
(٢) العزلة، ص٨١.
(٣) صفة الصفوة (٣/ ٣٥٣).

فـــلا تـــركـــب هـــواك وكـــن مُعِـــدّاً
فليـــس مقـــدراً لـــك مـــا تشـــاءُ
تـــراه أخضـــر العيـــدان غضّـــا
فيصبـــح وهـــو مســـود غثـــاءُ
أتـــأمـــل أن تعيـــش وأيُّ عُصـــنٍ
علـــى الأيـــام طـــال لـــه النَّمـــاءُ[1]

نعم ـ والله ـ حتى ملك الموت، الموكَّل بقبض الأرواح، سيموت، قال ـ تعالى ـ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] ولكن أين الاتعاظ والتَّذكُّر لهذا اليوم، مثل تذكُّر السَّلف الصَّالح واتِّعاظهم وتفكُّرهم في مآلهم؟

فقد قال **الحكيم بن نوح** لبعض إخوانه: اتَّكأ مالك بن دينار ليلةً من أول الليل إلى آخره لم يسجد فيها ولم يركع فيها، ونحن معه في البحر، فلمَّا أصبحنا قلت له: يا مالك، لقد طالت ليلتك لا مصلياً ولا داعياً، قال: فبكى، ثم قال: لو يعلم الخلائق ماذا يستقبلون غداً ما لذُّوا بعيشٍ أبداً، إنِّي ـ والله ـ لمَّا رأيتُ الليل وهوله وشدَّة سواده، ذكرت به الموقف وشدَّة الأمر هناكَ، وكل أمريءٍ يومئذٍ تهمُّه نفسه، لا يغني والدٌ عن ولدٍ ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً، ثمَّ شهق شهقةً فلم يزل يضرب ما شاء الله، ثمَّ هدأ، فحمل عليَّ أصحابنا في المركب، وقالوا: أنت تعلم أنَّه لا يحمل الذِّكر فلِمَ تُهيجه؟ قال:

---

(١) التبصرة (١/ ٣٥٣).

فكنت بعد ذلك لا أكاد أذكر له شيئاً[١].

وما خاف مؤمنٌ اليوم إلا أَمِنَ غداً بحُسن اتِّعاظه وصلاح عمله، فإنَّنا في دارٍ أفسح الله لنا فيها بالنِّعم التي يسبغها علينا صباحَ مساءَ، ونحن نُضيع أعمارنا في غير ما خُلقنا له، ثمَّ إذا فاجأنا الموت صرخ البعض: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩﴾ [المؤمنون: ٩٩].

لماذا ترجع وتعود؟

﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وأين أنت عَنْ هذا اليوم؟ ألا تعلم وأنت في سعةٍ من أمرك وصحَّةٍ في بدنك؟ لم يَدنُ منك ملك الموت بعد؟

فإنَّ الله ـ تعالى ـ جعل الموت محتوماً على جميع العباد، فهو نهاية المرء وغاية الاقتصاد من دار الاعتداد، قضى فأسقم الصَّحيح، وعافى السَّقيم، وقسَّم عباده قسمين: طائع وأثيم، وجعل مآلهم إلى دارين:

دار النَّعيم ودار الجحيم، فلا مفرَّ لأحدٍ من الموت ولا أمان؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرحمن: ٢٦].

فسوَّى فيه بين الحُرِّ والعبد، والصَّغير والكبير، والغنيِّ والفقير، وكلُّ ذلك بتقدير العليم الخبير: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١﴾ [فاطر: ١١]. فالكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والحازم من بادر بالعمل قبل حلول الفوْت،

---

(١) جنة الرضا (١/ ٩٨).

والمسلم من استسلم للقضاء والقدَر، والمؤمن من تيقَّن بصبره الثَّواب على المصائب والضَّرر[١].

تـــذكَّـــر يـــوم تـــأتـــي الله فـــرداً
وقـــد نُصبـــت مـــوازيـــن القضـــاءُ
وهُتكـــت السُّتـــور عـــن المعـــاصـــي
وجـــاء الـــذَّنـــب فـــانكشـــف الغطـــاءُ[٢]

قال بعضهم: «عجباً لِمَنْ يعرف أنَّ الموت حقٌّ، كيف يفرح؟ وعجباً لمَنْ يعرف أن النار حق، كيف يضحك؟ وعجباً لِمَنْ رأى تقلُّب الدُّنيا بأهلها، كيف يطمئن إليها؟ وعجباً لمن يعلم أنَّ القدر حقٌّ، كيف ينصب؟»[٣].

نرى باب الموت مفتوحاً والقبور تزيد. هاهو كل يوم يطرقنا وفي كل لحظة يُنذرنا. ولكن هل سألنا أنفسنا ما هي دارنا الثانية ونحن نعلم أن:

المـــوتُ بـــابٌ وكـــلُّ النَّـــاس داخلـــه
يـــاليـــت شعـــري بعـــد المـــوت مـــا الـــدَّارُ
الـــدَّار جنَّـــة خلـــدٍ إن عملـــت بمـــا
يُـــرضـــي الإلـــه وإن قصَّـــرت فـــالنَّـــارُ[٤]

فإن أنت تذكَّرت وانخلع قلبك فإنَّه إلى صلاحٍ وفلاحٍ كما قال الدَّقاق: «مَنْ أكثرَ من ذكر الموت أُكْرِمَ بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة،

---

(١) صيد الخاطر، ص٨.
(٢) التذكرة، ص٣٦٥.
(٣) مكاشفة القلوب، ص١٥٧.
(٤) ديوان أبي العتاهية، ص٨٦٨.

وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي الموت عُوْقِبَ بثلاثة أشياء: تسويف التَّوبة، وترك الرِّضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة».

وهذا ما نراه في واقع حياتنا، فلا نذكر الموت إلا عند حدوث الفاجعة ونزول النَّازلة، بل إنَّه إذا ذُكِرَ أنَّ فلاناً قد مات استرجعنا الذَّاكرة، وكأن الموت طريق فلانٍ وحده، ولذلك نحزن عليه، ولا نرى ما سيحلُّ بنا غداً أو بعد غدٍ.

فإنَّ مَنْ تفكَّر من عواقب الدُّنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطَّريق تأهَّب للسَّفر.

إنـــي أرقـــتُ وذِكْـــرُ المـــوتِ أرَّقنـــي
فقلـت للـدمـع أسعـدنـي فـأسعـدنـي
إنْ لـــم أبـــكِ لنفســـي مُشعـــراً حـــزنـــاً
قبـــلَ الممـــاتِ ولـــم أرق لهـــا فمـــن
يـــا مـــن يمـــوت ولـــم تحـــزنـــه ميتتـه
ومَـــنْ يمـــوت فمـــا أولاه بـــالحـــزنِ
إنِّـــي لأرقـــع أثـــوابـــي ويخلقهـــا
جـدب الـزَّمـان لهـا بـالـوهـنِ والعفـنِ
لِمَـــنْ أُثْمِـــرُ أمـــوالـــي وأجمعُهـــا
لِمَـــنْ أُروح لَمَـــنْ أغـــدو لِمَـــنْ لِمَـــنْ
لِمَـــنْ سيـــوقـــع بـــي لحـــدي ويتـــركنـــي
تحـت الثَّـرى تَـرب الخـديـن والـذَّقـنِ[1]

---

(١) محاسبة النفس، ص٨٧، والمدهش، ص١٨٣.

أيُّها الحبيب:

جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى، ويراها في أهل القبور، فإن كل ما هو آتٍ قريب، والبعيد ما ليس بآتٍ، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدّد ذكره على القلب، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكِّرات له، والنظر في المنبهات عليه[١].

وهاك أخي الحبيب[٢] وصية **يحيى بن معاذ**: «لا تكن ممَّن يفضحه يوم موته ميراثُه ويوم حشره ميزانُه»[٣].

ومن هذا الخوف العظيم والوجل المستمر كان **محمد بن النضر** إذا ذُكر الموت اضطربت مفاصله حتى تبيَّن الرَّعدة منها.

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً
والقوم حولك يضحكون سروراً
فاعمل ليومٍ أن تكون إذا بكوا
في يوم موتك ضاحكاً مسروراً[٤]

فابكِ على نفسك قبل أن يُبكى عليك، واحمل نفسك على الطَّاعة

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٧٥).
(٢) حلية الأولياء (١٠/ ٦٣).
(٣) التذكرة للقرطبي، ص١٠٢.
(٤) صيد الخاطر، ص٢٠٣.

قبل أن تُحمل على الرِّقاب، وحاسب نفسك قبل أن تُحاسب.
لحظاتٌ قليلة تحاسب نفسك فيها خيرٌ من أيام ضائعة تؤخذ بما فيها.

قال عبدالله بن مشيط: «سمعت أبي يقول: أيُّها المغترُّ بطول صحَّته، أما رأيت ميتاً قط من غير سقمٍ؟ أيها المغتر بطول المهلة، أما رأيت مأخوذاً قط غرَّة؟ أبالصِّحَّة تغترُّون؟ أم بطول الأمل تأمنون؟ أم على الموت تجترئون؟»

إنَّ ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك، أما علمت أنَّ ساعة الموت ذات كربٍ شديدٍ وغصصٍ وندامةٍ على التفريط؟ ثم يقول: رحم الله عبداً عمل لساعة الموت.

ومن أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته، فإنَّه ينتبه انتباهاً لا يوصف، ويقلق قلقاً لا يُحدُّ، ويتلهَّف على زمانه الماضي، ويودُّ لو تُرِكَ؛ كي يتدارك ما فاته، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه بالأسف.

هـو المـوتُ مـا منـه مـلاذٌ ومهـربٌ
متـى حُـط ذا عـن نعشـه ذاك يـركَـبُ
نـؤمِّـل آمـالاً ونـرجـو نتـاجهـا
وعـل الـرَّدى ممَّـا نـرجيـه أقـربُ

وما نراه في المقابر أعظم عظة وأكبر معتبر، فحاملُ الجنازةِ اليومَ محمولٌ غداً، ومن يرجع من المقبرة إلى بيته اليوم سيُرجعُ عنه غداً، ويترك وحيداً فريداً، مُرتهناً بعمله، فإن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ. ولكن ما أقلَّ من اتَّعظ! وما أندر من اجتهد!.

قال ثابت البناني: «طوبى لمن ذكر ساعة الموت، وما أكثر عبدٌ

ذكر الموت إلا رؤي ذلك في عمله»[١].

فإنَّ مَنْ أيقن بالموت غداً عمل يومه كلَّه في طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهكذا يوماً بعد يوم حتى يأتيه اليقين مصداقاً لقوله:

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩].

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: خطَّ النَّبيُّ ﷺ خطوطاً فقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاء الخط الأقرب» [رواه البخاري].

فذكرُ الموت، وإنْ كدَّر عليك أيامك وبعثر أحلامك، إلا أنَّه يوقفك على حقيقةٍ لا مفرَّ منها.

وأذكـــر المـــوت تجـــد راحـــةً في أذكـــار المـــوتِ تقصيـــر الأمـــل[٢]

فإنَّ مَنْ قَصُرَ أمله، وجعل الموت أمام ناظريه عَمِل للآخرة، واستفاد من كلِّ لحظة من لحظات عمرة في طاعة الله، وتحسَّر على كلِّ وقتٍ أضاعه بدون عملٍ صالحٍ يقرِّبه إلى الله زلفى، وهو لما قدَّم فرحٌ مسرورٌ بالانتقال إلى الدَّار الآخرة.

ولذلك قال **خالد بن معدان**: «ما أُحب أنَّ دابةً في برٍّ ولا بحرٍ تفديني من الموت، ولو كان الموت غايةً يُسبق إليها، ما سبقني أحد إلا سابقٌ يسبقني إليها بفضل قوته»[٣].

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٢٦).

(٢) التذكرة للقرطبي، ص١٠.

(٣) حلية الأولياء (٥/ ٢١٠).

وهذا كلُّه طمعٌ في جنَّةٍ عرضها السَّماوات والأرض، ورغبةٌ في لقاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وفرحٌ بما قدم من الأعمال الصالحة التي ينتظره جزاؤها وتوابها مع رحمة الله.

وعلى الرَّغم من الحرص على لقاء الله ـ جلَّ وعلاَّ ـ والفرح بما عنده للمؤمنين الموحدين، فقد قال **الحسن**: «لا تخرج نفس ابن آدم من الدُّنيا إلا بحسراتٍ ثلاث: أنَّه لم يشبع، ولم يدرك ما أمَّل، ولم يحسن الزَّاد لما قدم عليه»[١].

وما المرء إلا راكب ظهرِ عمرِه
على سفر يفنيه بالليوم والشهرِ
يبيت ويُضحي كلَّ يوم وليلةٍ
بعيداً عن الدُّنيا قريباً إلى القبر

والقبر هو المنزل الثَّاني بعد منازل الدُّنيا، فكيف بنا أهملنا بنيانه، وقوَّضنا أركانه؟ وليس بيننا وبين الانتقال إليه إلا أنْ يقال: مات فلان. فكم نحمل كل يوم إلى تلك المنازل من الأحباب والأصحاب، وكأنَّ هذا الموت لا يطرق إلا أبوابهم، ولا يقضُّ إلا مضاجعهم، أمَّا نحن فلا!!

قال **الحسن** ـ رحمه الله ـ: «ما رأيت يقيناً أشبه بالشَّكِّ من يقين النَّاس بالموت، مع غفلتهم عنه، وما رأيت صدقاً أشبه بالكذب من قولهم: إنَّا نطلب الجنَّة، مع عجزهم عنها وتفريطهم في طلبها»[٢].

---

(١) مكاشفة القلوب ١٥٨.
(٢) العاقبة، ص٩٥.

نسيـــر إلـــى الآجـــالِ فـــي كـــلِّ لحظـــةٍ
وأيـــامنـــا تطـــوى وهُـــنَّ مـــراحـــلُ
ولـــم أر مثـــل المـــوت حقّـــاً كـــأنّـــه
إذا مـــا تخطتـــه الأمـــانـــي بـــاطـــلُ
ومـــا أقبـــح التّفـــريـــط فـــي زمـــن الصِّبـــا
فكيـــف بـــه والشيـــب للـــرأس شـــاعـــلُ؟
تـــرحـــل مـــن الـــدُّنيـــا بـــزادٍ مـــن التُّقـــى
فعمـــرك أيـــامٌ وهـــن قـــلائـــلُ[1]

فانظر إلى هذه الطَّريق الحرجة، والمسلك الشَّاق، والقنطرة المضطربة، والعقبة الكؤود، الَّتي لا تثبت عليها الأقدام، ولا تجوزها الأوهام، ولا يثبت عليها إلا من ثبَّته الله بالقول الثَّابت، وثبَّت قدماه يوم تزلُّ الأقدام[2].

قال **عمار بن ياسر**: «كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلاً»[3].

فلمن تذكَّر الموت، وخاف الفوت، كفته العبادة شُغلاً؛ استعداداً لطارقٍ يطرق على غفلةٍ، ويفجع على فرحٍ، لا يعرف الأمير من الوضيع، ولا يفرق بين الكبير والرَّضيع، بل كلُّهم سواءٌ، فمن حانت منيته فهو صاحبه، ومن قَرُب أجله فهو بغيته.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص٤٦٤.
(٢) تسلية أهل المصائب، ص٢٣٣.
(٣) جامع العلوم والحكم، ص٣٥٣، والزهد، ص٢٥٧.

ليـــت شعـــري فـــإنَّـــي لســـت أدري
أي يـــــومٍ يكـــــون آخـــــر عمـــــري
وبـــــأي البـــــلاد تُقبـــــض روحـــــي
وبـــــأيِّ البـــــلاد يُحفـــــر قبـــــري[١]

ما أطولها من غفلة! نحن في ليلها نائمون. وفي نهارها سارحون، كما قال **إبراهيم بن أدهم**: «قد حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطيةٍ، فلن يكشف العبد اليقين حتى ترفع هذه الحُجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسُّرور بالمدح؛ فإذا فرحتَ بالموجود فأنت حريصٌ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخطٌ، والسَّاخط معذَّبٌ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجبٌ، والمعجب يحبط عمله[٢].

وتذكُّر الموت يغرس في المؤمن شجرة الإخلاص، وثمرتها العمل، فالأيام تُطوى، والمراحل تُقضى، فمن جعل هذا حاديه شمَّر وفزِع، وجعل مطيته تسير به إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

قال **صلة بن اشيم لمُعاذة**: «ليكن شعارك الموت؛ فإنَّك لا تبالين على يسيرٍ أصبحت من الدنيا أم على عسر».

فإنَّ من تذكَّر الموت هانت عنده الدُّنيا ومصائبها، وزهد في أموالها وذهبها، وفرشها وسررها؛ لأنَّه علم أنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، ولهذا فهو عالي الهمة، قوي العزيمة، لا تقدم عنده الدنيا شيئاً ولا تؤخر إلا ما كان منها في عملٍ صالح موافق لما جاء به ﷺ

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص١٧٢.
(٢) الإحياء (٤/ ٢٣٦).

بعيداً عن الرِّياء والسُّمعة. ولماذا يرائي ويفتخر وهناك من ينتظره؟

قال **الحارث بن إدريس**: «قلت لداود الطَّائي: أوصني، فقال: عسكُر الموت ينتظرونك»[١].

فالمرء منذ أن يخرج من بطن أمه وملك الموت ينتظر أجله متى يحين؛ حتى يقبض روحه، ولذلك قال **عون بن عبدالله**: «ما أنزل الموت منزلته من عدّ غداً من أجله، فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وكم من مؤمِّلٍ لغدٍ لا يُدركه. إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره لبغضتم الأمل وغروره»[٢].

وهذا الأمل هو سبب التَّهاون والتَّكاسل، فكم من مؤمِّلٍ غداً لتوبته مات قبل أن يتوب، وكم من قائل بعد كذا سأتوب، جاءه الموت قبل ذلك.

قال **أبو الدرداء**: «من أكثر من ذكر الموت قلَّ فرحه، وقلَّ حسده»[٣].

لأن من ذكر تلك النهايات وجعلها بين عينيه، فعَلَامَ يفرح؟! ولماذا يحسد؟! وهو يذكر تلك الأهوال والانقطاع من الدنيا، وهو في حالٍ كما وصفها بعضهم بقوله: «أنا كرجلٍ مادٍّ عنقه، والسيف عليه ينتظر متى يضرب عنقه[٤]».

وهذا السيف ليس بخافٍ علينا، فإننا نراه كل يوم يهوي على حبيب وقريب وصاحب، ليقطع اتصاله بالدنيا ويبعده عن أحبَّته ورفقته. ونحن

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ١٤١).
(٢) جامع العلوم والحكم، ص٤٦٥، وصفة الصفوة (٣/ ١٠٣)، وشرح الصدور ص٢١.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٥٣).
(٤) الإحياء (٤/ ٤٨٣).

أمهل الله لنا في العمر، ولكن الإمهال إلى أجلٍ معلوم، لا يستقدم ساعة ولا يستأخر.

كـــأنَّ المنـــايـــا قـــد قصـــدن إليكـــا
يُـــردنـــك فـــانظـــر مـــالهـــن لـــديكـــا
ســـيـــأتيـــك يـــومٌ لســـت فيـــه بمكـــرمٍ
بـــأكثـــر مـــن حثـــوٍ التـــراب عليكـــا[1]

فأنت يا أخي الكريم في سفرٍ منذ بزوغ فجر دنياك ولكن:

ومـــا تـــدري وإن أجمعـــت أمـــراً
بـــأي الأرض يـــدركـــك المقيـــلُ

فهل تجهَّزت لهذا المقيل؟ واستعددت لهذا الرَّحيل؟ فهو ـ والله ـ خطبٌ جليلٌ، وأمرٌ مهيلٌ، وقد قال عمر بن عبدالعزيز: «من قَرب الموت من قلبه استكثر ما في يديه»[2].

وذلك من الأعمال الصَّالحة؛ استعداداً لدارٍ ترحل إليها وحيداً، لا مال ولا جاه ولا منصب، ولا أحباب هناك ولا أصحاب، وحيداً في قبرك، حتى أقرب الناس إليك لا يؤنس وحشتك.

كان **بلال بن سعد** يقول في وعظه: «يا أهل الخلود ويا أهل البقاء.. إنَّكم لم تخلقوا للفناء، وإنَّما خُلِقْتُم للخلود والأبد، وإنَّكم تنقلون من دارٍ إلى دار»[3].

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص٣٠١.
(٢) شرح الصدور، ص٢١.
(٣) شرح الصدور، ص٢١.

ولهذه النقلة من الآلام والشدائد ما الله به عليم، كما قال **أنس بن مالك**: «لم يلقَ ابن آدم شدة قط منذ خلقه الله أشدَّ عليه من الموت»[١].

ومن هذه الأهوال نفكر في الهروب ونطرق جميع الدروب، ولكن:

فهُنَّ المنايا أي وادٍ حللته
عليها القدوم أو عليك ستقدم

أخي الحبيب:

لا تغرَّنَّك الصحَّة والقوة والعافية، ولا يغرنَّك الشَّباب وكلام الأصحاب.

لا يغرنَّك عِشاء ساكنٌ
قد يوافي بالمنيات السَّحر[٢]

قد يأخذك على حين غفلة من أمرك، وأنت لا ترى الموت يصل إليك قريباً، بل تراه بعيداً وبعيداً جداً. فلا يغلب على تفكيرك حصوله حتى تصيبك سهامه، وتؤلمك سكراته.

قال **أبو الدَّرداء**: «أُحبُّ الفقر؛ تواضعاً لربِّي، وأحبُّ الموت؛ اشتياقاً لربِّي، وأحبُّ المرض؛ تكفيراً لخطيئتي[٣].

ونحن نرى الغبطة في كثرة الدنيا وزينتها. أما سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ فَلْنَرَ على ماذا كانوا يغبطون؟

---

(١) شرح الصدور، ص٣٤.
(٢) تاريخ عمر، ص٢٠٨.
(٣) شرح الصدور، ص١٥.

قال مسروق: «ما غبطت شيئاً بشيء كمؤمن في لحده، قد أمن من عذاب الله، واستراح من أذى الدنيا»[١].

فإننا ـ والله ـ في دار فتنة وابتلاء، وليس لنا إلا أن نلهج بالدعاء إلى الله بأن يقينا الفتن، ماظهر منها وما بطن، وبالثبات على دينه، والعمل على طاعته؛ فإنَّها سنوات معدودة..

فمن أمدَّ الله في عمره وتخطَّاه الموت في سني الصِّبا والشَّباب، فسيأتيه الشَّيب نذير الموت.

تقـــول النَّفـــس غيِّـــر لـــون هـــذا
عســـاك تطيـــب فـــي عمـــرٍ يسيـــرٍ
فقلـــت لهـــا المشيـــب نـــذيـــر عمـــري
ولســـت مُســـوداً وجـــه النَّـــذيـــر[٢]

فإنَّ هذا الشَّيب شهادةٌ له.

وهذا البياض الذي نهابه ونخافه قال عنه ﷺ: «**من شاب في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة**»[٣]. ألا فليحمدِ الله من أمدَّ الله في عمره حتى رأى بياض الشعر في رأسه ولحيته، وليعد إلى الله عوداً حميداً، فكم من الأقران وُسِّدوا لحود القبور منذ عشرات السنين وأنت أمهل الله لك في عمرك، تصلي، وتصوم، وتدعو، وتستغفر حتى اليوم. فكم من عمل صالحٍ عملت، وكم استغفار عن ذنب استغفرت.

---

(١) شرح الصدور، ص١٧.
(٢) شرح الصدور، ص٤٧.
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي والنسائي عن كعب بن مرة.

رأيت الشيب من نُذر المنايا
لصاحبه وحسبك من نذير[١]

وحسبك ـ إن شاء الله ـ أنه عمرٌ مديد في عملٍ صالح تجده يوم القيامة ذخراً لك. كما كان **سفيان الثوري** يقول: «عند الصَّباح يَحمد القوم السُّرى، وعند الممات يحمدُ القوم التُقى»[٢].

فما هي إلا ساعةٌ ثمَّ تنقضي
ويذهب هذا كلُّه ويزول[٣]

فالدُّنيا كالحلم تمرُّ مَرَّ السَّحاب، ساعة من زمنٍ ثمَّ تنقضي، ألا إنَّها ـ يا أخي ـ رحلةٌ بدأت وستنتهي.

أخيَّ لا تذهب بك المذاهب
أظلَّك الموت وأنت لاعب
أُخيَّ إن الموت قد أظلك
هَلَّكَ أن تعنى به لعلك

قال **خليد العصري**: «كلُّنا قد أيقن بالموت ما نرى له مستعدَّاً، وكلُّنا قد أيقن بالجنَّة، ولا نرى له عاملاً، وكلُّنا قد أيقن بالنَّار، وما نرى لها خائفاً، فعلامَ ما تعرجون، وما عسيتم تنتظرون؟ الموت. فهو أول وارد عليكم في الله بخير أو شر، فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً»[٤].

---

(١) التذكرة، ص٤٦.
(٢) الإحياء (٤/ ٤٣٥).
(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص٢٠.
(٤) صفة الصفوة (٣/ ٢٣١).

ولا ريب أن مما يوقظ الهمم ويقوي العزائم ذكر هادم اللذات.. والتفكر في مآل من سبق.

ولذلك.. **يا أخي:**

اعمد لنفسك واذكر ساعة الأجل
ولا تُغَرَّنَّ في دنياك بالأملِ
سابِق حتوفَ الرَّدى واعمل على مهل
مادمت في هذه الدُّنيا على مِهلِ[1]

فإن الدنيا دار ممر لا دار مقر، فكم رحل عنها الأجداد والآباء والأبناء. رحل عنها الرؤساء والوزراء. لن يبقى على وجه الأرض منهم أحد. من يجري على ظهرها. سيكون غداً في باطنها.

كلُّ حيٍّ إلى الفناء يؤول
فتزوَّد إنَّ المقام قليلُ
نحنُ في دار غربةٍ كلُّ يومٍ
ينقضي جيلٌ ويحدث جيلُ

فمن تخطَّاه الموت في زمن الصِّبا والشَّباب، ومدَّ الله في عمره، تحوَّلت قوته إلى ضعف وشدة حركته إلى سكون، وتلك الصحة إلى أسقام وأوجاع. ولكن تنبه يا غافلاً عن الموت؛ فهو يسير إليك وأنت نائم عنه، فلربما فاجأك وأنت بكامل الصحة والعافية؛ تجاهر الله بالمعاصي، وتغفل عن الطاعات، وتهجر النوافل، وتترك العبادات!

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص٣٦١.

يـــا راقـــدَ الليـــل مســـروراً بـــأوَّلـــه
إنَّ الحـــوادث قـــد يطـــرقـــن أسحـــاراً
لا تفـــرحـــنَّ بليـــلٍ طـــاب أولـــه
فَـــرُبَّ آخـــر ليـــل أجـــج النَّـــارا
عـــادت تـــرابـــاً أكـــفُّ المُلهيـــات وقـــد
كـــانـــت تحـــرك عيـــدانـــاً وأوتـــارا[1]

سُئل **الحسن** ـ رضي الله عنه ـ: «يا أبا سعيد، كيف رأيت حالك؟ فقال: حال من ينتظر الموت إذا أمسى، وإذا أصبح لا يدري هل يُمسي؟ وكيف يموت؟».

فما أبلغه من جوابٍ! وما أعظمه من استعداد! ونحن منذ خروجنا إلى الدنيا نعلم أن الموت يترصَّدنا في كل ناحية وبقعةٍ، ولكنَّنا نغفل عن هذا!. والدنيا كيوم من نهار، فلو قيل للحي في نهاره ـ الذي هو عمرك في هذه الدنيا ـ: إنَّ هناك عدواً سيخرج عليك في أيِّ لحظة من هذا اليوم، لاستعددت له ولتجهزت لفجأته، فهذه الدنيا وهذا الموت بماذا استعددت له؟ وبماذا تجهزت؟

قال **مطرف بن عبدالله بن الشَّخير**: «إنَّ هذا الموت نغَّص على أهل النَّعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه، فكيف ووراءه يومٌ يُعدم فيه الجواب، وتدهش فيه الألباب، وتفنى في شرحه الأقلام والكتاب، ويترك النظر فيه والاهتمام به الأولياء والأحباب»[2].

---

(١) طبقات الحنابلة (٤/ ١٩٢).
(٢) العاقبة، ص٢٦.

فلعل الموعظة تقع في قلوبنا موقعاً حسناً، ونعود إلى الله عوداً سريعاً، فما أفرح الله ـ جلَّ وعلاَّ ـ بعودة المذنب وإقبال التَّائب!.

تـــزوَّد قـــرينـــاً مـــن فعـــالـــك إنَّمـــا
قـــريـــن الفتـــى فـــي القبـــر مـــاكـــان يعمـــلُ
ألا إنَّمـــــا الإنســـــان ضيـــــفٌ لأهلـــــه
يقيـــم قليـــلاً عنـــدهـــم ثـــمَّ يـــرحـــلُ

ويا أخي:

اعلم أنَّ الموت قادمٌ وخطره عظيم، وغفل عنه النَّاس لقلَّة حديثهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلبٍ فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت قلبه.

فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطرة أو يركب البحر، فإنه لا يتفكَّر إلا فيه[١].

عن **حميد** قال: «بينما الحسن في المسجد تنفَّس تنفساً شديداً، ثم بكى حتى أرعدت منكباه، ثم قال: لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحاً، لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة، إن ليلة تمخَّض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيومٍ قط أكثر من عورة بادية، ولا عين باكية من يوم القيامة»[٢].

وفسَّر ذلك التَّلاهي وهذا التشاغل **أبو سعيد بن عبدالرحمن** عندما

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٧٩).
(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٣٤).

قال: «إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها»[١].

فلو توقف الإنسان عن الجري واللهث، وتفكر في القبر واللحد وما بعدهما، لما هنأ بعيش، ولما قامت المصالح، ولما عمرت الأسواق، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مَنَّ علينا بالنِّسيان رحمة منه، ولهذا يُنبه السَّاهي ويُذكر الغافل.

يا ساهياً ياغافلاً عمَّا يُراد له
حان الرَّحيل فما أعددت من زاد
تظن أنَّك تبقى سرمداً أبداً
هيهات أنت غداً فيمن غدا غادي[٢]

يا أيُّها النَّاس:

اعملوا على مَهَل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدّارة خداعة، قد تزخرفت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانيها، وتزينت لخُطَّابها، فأصبحت كالعروس المحلاة، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفةٌ، والنفوس لها عاشقةٌ، فكم من عاشقٍ لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دارٌ كثيرة بوائقها، وذمها خالقها. جديدها يبلى، ومُلكها يفنى، وعزيزها يذل، وكثيرها يقلُّ، ودُّها يموت، وخيرها يفوت، فاستيقظوا ـ رحمكم الله ـ من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال: فلانٌ عليلٌ أو مدنف ثقيل، فهل على الدواء من دليل؟ وهل إلى

---

(١) الإحياء (٢٨٢).
(٢) الزهر الفائح، ص٥٩.

الطبيب من سبيل؟ فتُدْعى لك الأطباء، ولا يُرجى لك الشِّفاء.

ثم يقال: فلانٌ أوصى، ولما له أحصى.

ثم يقال: قد ثَقُلَ لسانه، فما يكلِّم إخوانه، ولا يعرف جيرانه.

وعَرِقَ عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك.

وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان.

ومُنعت من الكلام فلا تنطق، وخُتم على لسانك فلا ينطق، ثم حل بك القضاء، وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عُرِجَ بها إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك، فغسَّلوك وكفَّنوك، فانقطع عوَّادك، واستراح حُسَّادك، وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتهناً بأعمالك[١].

فالله الله يا أخي..

أُسْـــنِدْ حيـــازمـــك للمـــوت
فـــإنَّ المـــوت آتيـــك
ولا تجـــزعـــن مـــن المـــوت
إذا حـــلَّ بـــواديـــك[٢]

ولكن ماذا أعددنا لهذا اليوم؟ وكيف استعددنا لهذا الرَّحيل؟ أهو كما ذكر **حوشب عند مالك بن دينار** عندما قال: «سمعت منادياً ينادي: أيها الناس، الرَّحيلَ الرَّحيل، فما رأيت أحداً قام غير محمد بن واسع، فبكى

---

(١) الإحياء (٣/ ٢٢٥).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٣٧).

مالك حتى سقط أو كاد يسقط؟»[١].

وها نحن يُنادى علينا كلَّ يوم: **الرَّحيل الرَّحيل**.

فرحم الله من قام وأطاع، واستعد ليوم يُرحل به من هذه البقاع.

أين نحن أخي الحبيب مما قاله **سفيان الثوري**: «رأيت شيخاً في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، لو أتاني ما أمرته بشيء، ولا نهيته عن شيء، ولا ليَّ على أحد شيء ولا لأحدٍ عندي شيء؟»

ونحن ـ إلا من رحم ربي ـ لو أتانا الموت وأمهلنا لاحتجنا إلى سنواتٍ طويلة نرتب أمورنا، ونسدد حقوقنا، ونطيع الله حق طاعته. ولكن رحمة من الله لنا كما قال **مطرِّف بن عبدالله**: «لو علمت متى أجلي لخشيتُ على ذهاب عقلي، ولكن الله منَّ على عباده بالغفلة من الموت، ولولا الغفلة ما تهنَّأوا بعيشٍ، ولا قامت بينهم الأسواق»[٢].

ونحن في دار العمل نتراخى ونتكاسل! فمتى العمل؟ أبعد الموت؟ أعند نزول الموت؟ أفي القبر؟!

نحن في سعة من أمرنا، وفي حال الطَّلب والتَّوبة والاجتهاد في العبادة. وقد علم **يزيد الرقاشي** ذلك، فكان يخاطب نفسه فيقول: «ابكِ يازيد على نفسك قبل حين البكاء، يا يزيد، من يصلِّي لك بعدك؟ أو من يصوم؟ يا يزيد، من يضرع لك إلى ربِّك بعدك؟ ومن يدعو؟»[٣].

---

(١) الزهد، ص٤٥٦، وصفة الصفوة (٣/ ٢٦٧).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٢٥).

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٢٩٠).

ألا كـلّ حـيٍّ هـالـكٌ وابـن هـالـكِ
وذو نسـبٍ فـي الهـالكيـن عـريـقِ
فقـل لغـريـب الـدَّار إنَّـك راحـلٌ
إلـى منـزلٍ نـابـي المحـل سحيـقِ
ولا تعـدم الـدُّنيـا الـدَّنيَّـة أهلهـا
شـواظ نـارٍ أو دخـان حـريـقِ
تجـرع فيهـا هـالكـاً فقـد هـالـكٍ
وتشجـى فـريقـاً منهـم بفـريـقِ
فـلا تحسـب الـدنيـا إذا مـا سكنتهـا
قـراراً فمـا دنيـاك غيـر طـريـقِ
إذا امتحـن الـدنيـا لبيـبٌ تكشَّفـت
لـه عـن عـدو فـي ثيـاب صـديـقِ
عليـك بـدارٍ لا يـزول ظـلالهـا
ولا يتـأذى أهلهـا بمضيـقِ
فمـا يبلـغ الـراضـي رضـاه ببلغـة
ولا ينفـع الصـادي صـداه بـريـقِ[1]

كان مطرف بن عبدالله يقول: «إنَّ هذا الموت قد أفسد على أهل النَّعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه»[2].

وذلك بالاتجاه إلى الله وعبادته حق عبادته، وصدق العودة إليه ـ جلَّ

---

(١) المدهش، ص١٩٨.
(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٢٤).

وعلاً ـ، كما قال **العلاء بن زياد** ـ رحمه الله تعالى ـ: «ليُنزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، وأنه استقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله»[(١)].

فلو أنزلنا أنفسنا في هذه المنزلة، وأوقفنا أنفسنا هذا الموقف لتغيَّرت أعمالنا، وصدقت نياتنا، وعلمنا مدى التقصير الذي نحن فيه، ولجعلنا عملنا في هذه الدنيا عملاً متواصلاً لا فتور فيه ولا ملل؛ حتى نكون مثل ما قال **سفيان**: «كان يُقال: الموت راحة العابد»[(٢)].

فانظر في غدك، ودنو أجلك، وقلة عملك، فقد كتب بعض الحكماء إلى رجلٍ من إخوانه: «يا أخي، احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنَّى فيها الموت فلا تجده».

نعم، حتى الموت مع شدَّته وآلامه يُتمنَّى فلا يوجد؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

خلودٌ في جنة ـ جعلنا الله من أهلها ـ أو نارٌ حامية ـ والعياذ بالله ـ ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧].

أما ما أفنيت شبابك وصحتك وعمرك في جمعه من المال فإذا لم تُقدمه أمامك في عمل صالح فإنَّه يكون كما قال **يحيى بن معاذ**: «مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلها للعبد في ماله عند موته، قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كلُّه، ويُسأل عنه كلُّه»[(٣)].

وقد قيل **لعبدالله بن عمر**: «توفى فلان الأنصاري، قال: رحمه الله،

---

(١) العاقبة، ص٩٠.
(٢) شرح الصدور، ص١٨.
(٣) الإحياء (٣/ ٢٤٨).

قالوا: ترك مائة ألف، قال: لكن هي لم تتركه. وكيف تتركه وهناك كتابٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؟».

ومن **أراد الجنة** فلابد له من الموت، رغم آلامه وأهواله وغُصصه وروعاته. قال **ابن عبدربه لمكحول**: «أتحب الجنة؟ قال: ومن لا يُحب الجنة، قال: فأَحْبِبِ الموت؛ فإنَّك لن ترى الجنة حتى تموت»[١].

الطريق إلى الله خالٍ من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات، وهو معمورٌ بأهل اليقين والصبر، وهم على الطريق كالأعلام ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤][٢].

أخي المسلم:

وما هي إلا ليلةٌ ثم يومها
وحولٌ إلى حولٍ وشهرٌ إلى شهرِ
مطايا يقربن الجديد من البلى
ويدنين أشلاء الكريم إلى القبر
ويتركن أزواج الغيور لغيره
ويقسمن ما يحوي الشَّحيح من الوفر[٣]

صعد **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ ذات يوم المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر الموت فقال: «عبادَ الله، الموتُ ليس منه فوت،

---

(١) شرح الصدور، ص١٧.
(٢) الفوائد، ص٧٣.
(٣) شذرات الذهب (١/ ٢٧٦).

وإن قمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، فالنجاء النجاء، والوحا الوحا[١]، إن وراءكم طالباً حثيثاً، القبر، فاحذروا ضغطته وظلمته ووحشته، ألا وإن القبر حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث مرات، فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الدود، أنا بيت الوحشة، ألا وإن وراء ذلك يوماً يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢]. ألا وإن وراء ذلك ما هو أشد منه، نار حرها شديد، وقعرها بعيد، وحُليها ومقامعها من حديد، وماؤها صديد، وخازنها مالك، ليس فيه رحمة. ثم بكى، وبكى المسلمون حوله، ثم قال: ألا وإن وراء ذلك جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. جعلنا الله وإياكم من المتقين، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم[٢]».

أخي الحبيب:

متى نتوب؟ هل أجبت يوماً على هذا السؤال؟ ولكن لِنَرَ الجواب.

قال **بلال بن سعد** ـ رحمه الله ـ: يقال لأحدنا: تريد أن تموت؟ فيقول: لا، فيقال له: لِمَ؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحاً، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يُحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله ـ تعالى ـ ولا يؤخر عمل الدنيا[٣].

---

(١) الوحا: الإسراع والعجلة.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٤٩).

(٣) العاقبة، ص٩١.

وقيل لعتبة: أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسَّعه عليك[١].

مالي أرى الناس والدنيا مولية
وكل جمعٍ عليها سوف ينتشر
لا يشعرون إذا ما دينَهم نقصوا
يوماً وإن نقصت دنياهم شعروا[٢]

فأكثر همِّ الواحد منَّا نقصُ الدنيا وزينتها!! ونادراً من نراه يغتم بفوات صلاة جماعة أو طاعة من الطاعات، بل أصبح الهم المشترك لغالب الناس اليوم همُّ الدنيا!!

قال بعضهم: «أيها الناس، إن الحكم قد وجب، وإن الموت قد اقترب، والعمر قد ذهب، فكم من آسفٍ عليه، وناظر بعين الشفقة إليه، وإن في تلاشي العمر ما يقصر عن أمل الأريب، ويجمع من همِّ اللبيب، ويرسل من عبرات الكئيب، فرحم الله امرأً بكى سواه؛ فعمل، واستقام، وتفكَّر، وأناب».

أين نحن من التفكُّر في أمرنا ومآلنا كما كانوا يتفكرون ولمآلهم يعملون؟ قال **يوسف بن أسباط**: «قال لي سفيان الثوري وقد صلَّينا العشاء الآخرة: ناولني المطهرة، فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خده، ونمت فاستيقظت وقد طلع الفجر، فنظرت فإذا المطهرة بيمينه، ويساره على خده فقلت: يا أبا عبدالله، هذا الفجر قد طلع، قال:

---

(١) العاقبة، ص٤٠.
(٢) إرشاد العباد، ص٣٦.

لم أزل منذ ناولتني هذه المطهرة أتفكر في أمر الآخرة حتى الساعة[١]».

وجامع الخير من ذلك كلِّه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر: ١٨].

سأل **حسان** ـ رضي الله عنه ـ أمه يوماً فقال: «يا أماه، أتحبين أن تلقي ـ الله تعالى ـ؟ قالت: لا، وقد عصيته».

وكان **الربيع بن خثيم** يقول: «أكثروا ذكر هذا الذي لم تذوقوا قبله مثله، ولن تذوقوه إلا مرة واحدة»[٢].

وقد حثنا **الحسن** بقوله: «يا بن آدم، بِعْ عاجلتك بعاقبتك تربحهما جميعاً، ولا تبع عاقبتك بعاجلتك فتخسرهما جميعاً، الثَّواء[٣] هنا قليل، وقد أُسرع بخياركم، فماذا تنتظرون؟ المعاينة، فكأنها والله قد كانت، إنما ينتظر بأولكم أن يحلق بآخركم»[٤].

فتفكَّر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيُّظها، وقد كُلِّفْتَ أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار[٥].

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ١٤٨).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ١١٤).
(٣) الثواء: الإقامة والبقاء.
(٤) التبصرة (١/ ٣٦٨).
(٥) التذكرة، ص٣٨٥.

مثِّلْ وقوفك يوم العرض عرياناً
مستوحشاً قلق الأحشاء حيرانَا
النار تلهب من غيظٍ ومن حنقٍ
على العُصاة وربُّ العرش غضبانَا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهلٍ
فهل ترى فيه حرفاً غير ماكانا
لما قرأتَ ولم تنكر قراءته
إقرار من عرف الأشياء عرفانَا
نادى الجليل: خذوه يا ملائكتي
وامضُوا بعبدٍ عصى للنار عطشانَا
المشركون غداً في النار يلتهبوا
والمؤمنون بدار الخلد سُكَّانَا[1]

اللهم اجعلنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. اللهم اجعلنا من ورثة جنة النعيم نحن وآباءنا وأمهاتنا وذرياتنا، وحرم وجوهنا على النار.

قال **الحسن**: «لولا ثلاثة ما طأطأ ابنُ آدم رأسه: الموت، والمرض، والفقر. وإنَّه بعد ذلك لوثَّاب»[2].

وهذا الموت جعله الله نهاية كلَّ حيٍّ، وهو آية من آيات الله تدل على قوته وعظمته وجبروته، فالحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة،

---

(١) التذكرة، ص٢٩٤.
(٢) الحسن البصري، ص٤١.

وكسر به الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق، فأرداهم في الحافرة، فنُقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلم اللحود[١].

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم لقاك. اللهم إنا نعوذ بك أن يتخبطنا الشيطان عند الموت.

* * *

هديه ﷺ في الجنائز[١]

كان هديُه ﷺ في الجنائز أكمل الهدى، مخالفاً لهدي سائر الأمم، مشتملاً على الإحسان إلى الميت ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده، وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه، وعلى إقامة عبودية الحي لله وحده فيما يُعامل به الميت.

وكان من هديه في الجنائز إقامة العبودية للربِّ ـ تبارك وتعالى ـ على أكمل الأحوال، والإحسان إلى الميت، وتجهيزه إلى الله على أحسن أحواله وأفضلها، ووقوفه ووقوف أصحابه صفوفاً يحمدون الله، ويستغفرون له، ويسألون له المغفرة والرحمة والتجاوز عنه، ثم المشي بين يديه إلى أن يودعوه حفرته، ثم يقوم هو وأصحابه بين يديه على قبره سائلين له التثبيت أحوج ما كان إليه، ثم يتعاهدُه بالزيارة له في قبره، والسلام عليه، والدعاء له كما يتعاهدُ الحي صاحبه في دار الدنيا. فأول ذلك: تعاهدُه في مرضه وتذكيرهُ الآخرة، وأمرهُ بالوصية، والتوبة، وأمرُ من حضره بتلقينه شهادة أن لا إله إلا الله، لتكون آخر كلامه، ثم النهيُ عن عادة الأمم التي لا تؤمن بالبعث والنُّشور، من لطم الخدود، وشق الثياب، وحلق الرؤوس، ورفع الصوت بالندب، والنياحة وتوابع ذلك. وسَنَّ الخشوع للميت، والبكاء الذي لا صوت معه، وحزن القلب. وكان يفعل ذلك ويقول: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي**

---

(١) زاد المعاد (١/٤٩٨) وما بعدها.

الرب»[١]. وسَنَّ لأمته الحمدَ والاسترجاع، والرضا عن الله، ولم يكن ذلك منافياً لدمع العين وحُزن القلب، ولذلك كان أرضى الخلق عن الله في قضائه، وأعظمهم له حمداً.

❊ ❊ ❊

الوقفة الثانية:

الاحتضار

الاحتضار

قال ـ تعالى ـ في أصدق وصفٍ وأحسن تعبير: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ [ق: ١٩ـ٢٠].

وما أدراك ـ ياأخي ـ ما هذا المجيء لسكرات الموت، مجيءٌ لا مناص عنه ولا مهرب، لاتجدي معه حيلةٌ، ولا تنفع معه وسيلة، إنه بداية نهايتك من هذه الدنيا والانقطاع عنها، والإقبال على الآخرة ودخول معبرها، وترك ما وراءك من الأموال والقصور والأهل والدور.

إنها ـ والله ـ ساعةٌ مهولة، ذات كربٍ شديد، وما بعدها إلا وعدٌ أو وعيد، لو تفكَّرت في حلولها وأنت في نعيم وهناء لتكدرت حياتك، ولهانت الدنيا عندك، وصغر عظيمها في عينك، ولتبدَّل فرحك حزناً وسعادتك كدراً. كيف لا، وأنت تفارق المال والولد، والأحباب والأصحاب، إلى دار الجزاء الحساب؟ أهوالٌ تهون عندها أهوال، حتى تنتهي إلى أحد الفريقين: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧].

ولشدةِ سكرات الموت التي أصابت خير الأنبياء والمرسلين وأكرم الخلق على الله أجمعين، فقد قال ﷺ وهو يُدخِل يديه في ركوة ماء ويمسح بها وجهه الشريف: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكراتٍ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن عائشة.

ولما رأت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشَّاه قالت: واكرب أباه، فقال لها: «**ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم**»[١].

ونحن ندعو بأثره ﷺ، اللهمَّ، هوِّن علينا سكرات الموت إذا حلت، وثبتنا إذا وقعت؛ فثقل اللسان، وأُغمضت العينان، ومُدت الأكفان. فاللهم برحمتك إلى الجنان.

قال ﷺ: «**ما من أحدٍ يموت إلا ندم، إن كان مُحسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مُسيئاً ندم أن لا يكون نَزَعَ**»[٢].

فهذه الدنيا مزرعة الأخرة، فإن المحسن يتمنى زيادة الإحسان، رفعة في الدرجات وعلواً في المقامات، أما المسيء فيندم على تفريطه في التوبة ودخوله على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بذنوب وأوزار لم يتب منها، يَأمل في التوبة وربما فاجأه الموت قبل ذلك.

حكمُ المنية في البريَّة جارٍ
ما هذه الدُّنيا بدار قرارِ[٣]

ولذلك قال **الحسن** ـ رحمه الله تعالى ـ: «فضح الموت الدنيا؛ لم يترك لذي لُبٍّ فرحاً[٤]».

فإنه ـ والله ـ ما ترك لهارب سُبُلاً ولا لمحتالٍ حيلاً.

---

(١) أخرجه البخاري عن أنس.
(٢) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، وفيه ضعف.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٨٢.
(٤) الإحياء ٤/ ٤٧٩، والسير ٤/ ٥٨٥.

هـو المـوت فـاصنـع كـلَّ مـا أنـت صـانـعُ
وأنـــت لكـــأس المـــوت لابـــد جـــارع[١]

أخي الحبيب:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كربٌ ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديراً بأن يتنغَّص عليه عيشه، ويتكدَّر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته. وحقيقٌ بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده[٢].

كيف ونحن نعلم أن وراء الموت القبر وظلمته، والصراط ودقته، والحساب وشدته؟ أهوالٌ وأهوال، والنهاية جنةٌ أو نار؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦ـ٣٠].

إنه مشهد الموت، الموت الذي ينتهي إليه كلُّ حيٍّ، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حيٌّ، الموت الذي يُفَرِّق بين الأحبة، ويمضي في طريقه ولا يتوقف، ولا يستجيب لصرخة ملهوف، ولا لحسرة مفارق ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف، الموت الذي به يُصرع الجبابرة، ويُقهر به المتسلِّطون كما يقهر به المستضعفون سواء، الموت الذي لا حيلة للبشر فيه، وهم مع ذلك لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه، وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير، وتكون السكرات المذهلة، ويكون الكرب الذي تزوغ منه

---

(١) موارد الظمآن ٣/ ٦٢٨.
(٢) الإحياء ٤/ ٤٩٠.

الأبصار، ويتلفت الحاضرون حول المحتضر، يتلمَّسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ روح المكروب ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ لعل رقيةً تغيِّر وتلوي المكروب من السكرات والنزع ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ وبطلت كل حيلة، وعجزت كل وسيلة، وتبين الطريق الواحد الذي يسابق إليه كل حي في نهاية المطاف ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾[1].

روي أن ملك الموت دخل على داود ـ عليه السلام ـ فقال: «من أنت؟ فقال: من لا يهاب الملوك، ولا تُمنع منه القصور، ولا يقبل الرُشا.

قال: فإذاً أنت ملك الموت، قال: نعم، قال: أتيتني ولم أستعدّ بعد. قال: يا داود، أين فلان قريبك؟ أين فلان جارك؟ قال: مات. قال: أما كان لك في هؤلاء عبرة لتستعد؟[2]».

ووالله، إنَّ في ذلك لعبرة، فنحن نودع الآباء والأبناء، ونرى كيف يوسَّدون الثرى، ولكننا لا نتفكر فيما نحن عليه مقبلون، ولممرٍّ نحن له عابرون، وطريقٍ عليه سائرون.

بكى **الحسن البصري** عند موته وقال: «نُفيسةٌ ضعيفة، أمر مهولٌ عظيم وإنا لله وإنا إليه راجعون».

ولو تفكرت ـ ياأخي الحبيب ـ الآن في أن الموت ببابك وملك الموت يطلب جنابك لعلمت هول المطلع، ووالله لفزعت وذُهلت، هذا وأنت بحال الدنيا، فكيف والأمر جد، ومن الموت لابد؟.

---

(١) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص١٢.

(٢) التذكرة، ص٤٨.

يـا قـابـضَ الـروح مـن نفـس إذا احتضـرت
وغـافـر الـذَّنـب زحـزحنـي عـن النَّـارِ[١]

قيل إنَّ أبا وهب ـ زاهد الأندلس ـ باع ماعُونَه قبل موته فقيل: ماهذا؟ قال: أريد سفراً، فمات بعد أيام يسيرة[٢].

والإنسان في هذه الدنيا مسافر منذ أن يخطو على هذه الأرض، ولابد له أن يحط عصا الترحال يوماً من الأيام طالت أو قصرت.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمرُ وهو على حصير قد أثَّر في جنبه، فقال: يا نبي الله، لو اتخذت فراشاً أَوْثَرَ من هذا؟ فقال: «**مالي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة من نهار، ثم راح وتركها**»[٣].

فأين نحن اليوم وواقعنا من هذا الحديث الشريف؟ قد اتخذنا من مياثر الفرش وفاخر الرياض ما قست القلوب ونُسي الموت والكروب.

قال **الحسن**: لو علم ابن آدم أن له في الموت راحة وفرحاً، لشق عليه أن يأتيه الموت، لما يعلم من فظاعته وشدته وهوله، فكيف وهو لا يعلم ما له في الموت؟! أَهَلْ لَهُ نعيمٌ دائم أم عذاب مقيم؟!

وكان يقول ـ رحمه الله ـ: «من لم يمت فجأة، مرض فجأة، فاتقوا الله واحذروا مفاجأة ربكم»[٤].

---

(١) شذرات الذهب ١/ ١٢١.
(٢) السير ١٥/ ٥٠٧.
(٣) صحيح: أخرجه أحمد والحاكم عن ابن عباس.
(٤) الحسن البصري، ص١٠٥.

هـو المـوت لا منجـا مـن المـوت والـذي
أحـاذر بعـد المـوت أدهـى وأفظـع[١]

أخي الحبيب:

أين الأقران؟ وأين سلكوا؟ تالله، لقد فنوا وهلكوا. اجتمع الأضداد في الألحاد واشتركوا، وخانهم حبل الأمل بعد ما أمسكوا، ونوقشوا على ماخلفوا وتركوا، وصار غاية الأماني لو تركوا[٢].

لَّما احتضر **أبوبكر** ـ رضي الله عنه ـ، تمثَّلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بهذا البيت:

أعـاذل مـا يغنـي الحـذار عـن الفتـى
إذا حشـرجـت يـومـاً وضـاق بهـا الصـدر

فقال **أبوبكر** ـ رضي الله عنه ـ: ليس كذلك يا بنية، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩]. ثم قال: انظروا ثوبَيَّ هذين فاغسلوهما، ثم كفِّنوني فيهما؛ فإنَّ الحي أحوج إلى الجديد من الميت[٣].

ولمعرفة صفة هذا الموت الذي لا يحسُّ ألمه إلا من يعانيه فقد قال عمر لكعب أخبرني عن الموت. قال: ياأمير المؤمنين، هو مثل شجرةٍ كثيرةِ الشَّوك في جوف ابن آدم، فليس منه عرق ولا مفصل، وهو كرجل شديد الذِّراعين فهو يعالجها ينتزعها، فبكى عمر.

---

(١) تسلية أهل المصائب، ص٨٧.
(٢) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص٨٩.
(٣) الزهد، ص١٦٣.

للمـوتِ فـاعمـل بجـدٍ أيُّهـا الـرَّجـلُ
واعلـم بـأنَّـك مـن دنيـاك مـرتحـل
إلـى متـى أنـت فـي لهـوٍ وفـي لعـبٍ
تمسـي وتُصبـح فـي اللـذات مشتغـل
كـأنـي بـك يـاذا الشَّيـب فـي كُـربٍ
بيـن الأحبَّـة قـد أودى بـك الأجـل
لمَّـا رأوك صـريعـاً بينهـم جـزعـوا
ووَدَّعـوك وقـالـوا قـد مضـى الـرجـل
فـاعمـل لنفسـك يـا مسكيـن فـي مهـلٍ
مـا دام ينفعـك التـذكـار والعمـل
إن التَّقـيَّ جنـان الخُلـدِ مسكَنُـه
ينـال حـوراً عليهـا التَّـاج والحلـل
والمجـرميـن بنـارٍ لا خمـود لهـا
فـي كـلِّ وقـتٍ مـن الأوقـات تشتعـل[1]

قال وهب بن منبه: «كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها، فلم تعجبه، فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات، وكذلك طلب دابة فأُتي بها فلم تعجبه، حتى أُتي بدواب فركب أحسنها، فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخةً، فجلاه كبراً، ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبراً، فجاءه رجل رثّ الهيئة فسلم، فلم يرد عليه السلام، فأخذ لجام

(١) بستان الواعظين، ص٢١٧.

دابته، فقال: أرسِل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً. قال: إن لي إليك حاجة، قال: اصبر حتى أنزل، قال: لا، الآن. فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها، قال: هو سر، فأدنى له رأسه، فسارَّه وقال: أنا ملك الملوك، فتغير لون الملك، واضطرب لسانه، ثمَّ قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال: لا، والله، لا ترى أهلك وثقلك أبداً، فقبض روحه، فَخَرَّ كأنه خشبة.

ثمَّ مضى فلقي عبداً مؤمناً في تلك الحال، فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أُذنك، فقال: هات، فسارَّه وقال: أنا ملك الملوك، فقال: أهلاً وسهلاً بمن طالت غيبته عليَّ، فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليَّ أن ألقاه منك، فقال ملك الموت: اقضِ حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله ـ تعالى ـ، قال: فاختر على أيِّ حال شئت أن أقبض روحك؟ فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم، إنِّي أُمِرْتُ بذلك، قال: فدعني أتوضَّأ وأصلِّي ثمَّ أقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه، وهو ساجد»[1].

ولنَرَ ثمن الزمن عندهم وقيمة الوقت لديهم واغتنامهم لذلك؛ فإنه لما احتضر **عامر بن عبدالله** بكى، وقال: «لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون، اللَّهم إنِّي أستغفرك من تقصيري وتفريطي، وأتوب إليك من جميع ذنوبي، لا إله إلا الله» ثمَّ لم يزل يرددها حتى مات ـ رحمه الله ـ.

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٩٦.

والله، إنَّ الموت كما قال **مطرف بن عبدالله**: «قد أفسد على أهل النَّعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه»[١].

قال **صفوان بن سليم**: «في الموت راحة للمؤمن من شدائد الدنيا، وإن كان ذا غُصص وكُرَب»، ثم ذرفت عيناه[٢].

ومـــامـــن يخـــاف المـــوت والنـــار آمـــنٌ
ولكـــن حـــزيـــن مـــوجـــع القلـــب خـــائـــف
إذا تمـــنَّ ذكـــر المـــوت أوجـــع قلبـــه
وهيـــج أحـــزانـــاً ذنـــوبٌ ســـوالـــفُ

وانظر إلى تأسُّفهم على الدنيا وما فيها لمعرفتهم أنَّها دار عمل؛ فقد بكى أحد العبَّاد عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أن يصوم الصائمون ولستُ فيهم، ويذكر الذَّاكرون ولستُ فيهم، ويصلي المصلون ولستُ فيهم.

أخي الحبيب:

أيام عمرك أيام قلائل، لحظات محسوبة، وأنفاس معدودة، لو أردت زيادة في عمرك ولو للحظات ـ مقابل أموال الدنيا أجمع ـ لما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فكيف بك الآن تضيِّعها في غير طاعة الله؟

وقد ذكر ذلك **أبوحازم** فقال: «إن بضاعة الآخرة كاسدة، يوشك أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه، ويتمنى الرجوع إلى

---

(١) السير ٤/١٩.
(٢) السير ٥/٣٦٦.

حالٍ يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية»[١].

ونحن نضيع أعمارنا، وننفق أوقاتنا فيما لا طائل من ورائه، بل إننا فرحون مستبشرون بذلك!

وقد مر **الحسن** برجلٍ يضحك، فقال: يا ابن أخي، هل جُزتَ الصراط؟ فقال الرجل: لا، قال: فهل علمت إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ فقال: لا، قال: فَفِيمَ الضَّحك؟! عافاك الله والأمر هول»، فما رئي الرجل ضاحكاً حتى مات[٢].

ولغلبة الهوى والنفوس والبعد عن الآخرة، ومن باب الموعظة والتذكير:

كان **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ يقول: أكثروا من ذكر النار؛ فإن حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها حديد[٣].

ولما حضرت الوفاة **فضيل بن عياض** ـ رحمه الله ـ غشى عليه، ثم أفاق وقال: «يابعد سفري وقلّة زادي»[٤].

أخي الحبيب:

أيُّ سفر أطول من هذا السفر، وأي زاد تحتاج: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧].

أما الموت الذي لم نذقه بعد فلا نَعرفُ ألمه وشدته إلا حين يقع. وكل منا سيمر بتلك اللحظات العصيبة والدقائق الرهيبة؛ الأنفاس

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص٤٦٨.
(٢) الحسن البصري، ص٨٩.
(٣) الحسن البصري، ص١٠٨.
(٤) العاقبة، ص١٣٣.

مشدودة، والعين حائرة كسيرة. إنها لحظة الاحتضار.

وحين تفتح عينك وملك الموت واقف على رأسك، تُفكر في ماذا تلك اللحظات. أما ونحن لم نذق الموت بَعَدُ؛ ألمه وغُصَصه وكُربه. ماهي؟ لنسير لحظات في زمن مضى لنر تلك اللحظات العصيبة والدقائق الحرجة وكيف مرت على أناس قبلنا فذاقوا طعمها وعرفوا شدتها.

لما احتضر **عمرو بن العاص** سأله ابنه عن صفة الموت فقال: «والله لكأن جنبي في تختٍ[١] ولكأنّي أتنفَّس من سَمِّ إبرةٍ، وكأنَّ غصن شوك يُجرّ به قدمي إلى هامتي»[٢].

هذا هو الموت وهذه شدَّته. سيكون تفكيرك في تلك اللحظات منحصراً في أيِّ الأبواب ستُدخَل؟ وفي أيِّ الدارين تُسكَن؟ وأيِّ المساكن تنزل؟

قال **محمد بن واسع**، وهو في الموت: «ياإخوتاه، تدرون أين يُذهب بي؟ يُذهب بي والله الذي لا إله إلا هو إلى النَّار، أو يعفو عنِّي[٣]».

وقد **قيل لجابر بن زيد** عند موته: ما تشتهي؟ فقال: نظرة إلى الحسن، فجاء الحسن، فلما دخل عليه قيل له: هذا الحسن، فرفع طرفه وقال: ياإخوتاه، الساعة أفارقكم إما إلى الجنة وإما إلى النار.

مـــاهـــي إلا جنَّـــةٌ ونـــارٌ
أفلـــح مـــن كـــان لـــه اعتبـــارُ

---

(١) التخت: وعاء تصان فيه الثياب.
(٢) جامع العلوم والحكم، ص٤٤٩.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ٢٧١.

قال **عبدالله بن عبدالعزيز العمري** عند موته: «بنعمة ربِّي أُحدِّث. إنِّي لم أُصبح أملك إلا سبعة دراهم من لماء شجرة مثلثها بيدي، وبنعمة ربِّي أُحدِّث. لو أنَّ الدنيا أصبحت تحت قدمي لا يمنعني من أخذها إلا أن أزيل قدمي عنها ماأزلتها»[١].

أرأيت كيف الدنيا التي نحن نتهافت عليها كيف تكون عند الموت؟ ولمعرفتهم الصحيحة وإيمانهم الصادق كان **ابن سيرين** إذا ذكر الموت، مات كل عضو منه على حدَّته[٢].

وعند ذكر ما بعد الموت يهول الموت وشدته وألمه، خاصة إذا كان الخوف من فتنة الدين كما قال **سفيان الثوري**: ما من موطن من المواطن أشد عليّ من سكرة الموت أخاف أن يشدد علي، فأسأل التخفيف فلا أجاب فأُفتن»[٣].

ولنتأمل في نصيحة **محمد بن واسع**، وهي نصيحة قلبية صادقة في وقت حرج وزمنٍ ضيق، قال **محمد بن عبدالله مولى الثقفيني**: «دخلنا على محمد بن واسع وهو يقضي، فقال: يا إخوتي، يا إخوتاه، هبوني وإياكم سألنا الله الرجعة فأعطاكموها ومَنَعنِيها، فلا تخسروا أنفسكم»[٤].

فيا أخي:

لِنتمثَّل قوله، وأن الله أقالنا، فكم منا من شخص نجا من حادث،

---

(١) الثبات عند الممات، ص١٥٣.
(٢) العاقبة، ص٣٩.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٤٨.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ٢٧١، والثبات عند الممات، ص١٤٦.

وآخر عوفي من مرض، وثالث صحيح معافى تخطاه الموت إلى غيرة، فلنعد إلى الله قبل أن نرى الموت عياناً، ولاتَ حين مناص ولا مهرب.

قل للطبيب تخطَّفته يد الرَّدى
من يا طبيب بطبِّه أرداكا
قل للمريض نجا وعوفي بعدما
عجزت فنون الطِّب من عافاكا
واسأل بطون النَّحل كيف تقاطرت
شهداً وقل للشَّهد من حلاّكا
وإذا ترى الثُّعبان ينفث سُمَّه
فاسأله من ذا بالسموم حشاكا
واسأله كيف تعيش يا ثعبان
أو تحيا وهذا السم يملأ فاكا
فالحمد لله العظيم لذاته
حمداً وليس لواحدٍ إلاَّكا

قال **عبدالملك بن مروان** في مرض موته: «ارفعوني، فرفعوه حتى شم الهواء، وقال: يا دنيا، ما أطيبك! إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإنا كنا بك لفي غرور[1]».

إخواني:

جدُّوا فقد سُبقتم، واستعدوا فقد لُحقتم، وانظروا بماذا من الهوى عُلقتم، ولا تغفلوا عمَّا له خُلقتم، ذهبت الأيام وما أطعتم، وكتبت

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٧٥.

الآثام وما أصغيتم، وكأنَّكم بالصَّادقين قد وصلوا وانقطعتم، أهذا التوبيخ لغيركم؟ أو ما قد سمعتم؟!

كم سكن مثلك في هذه الدَّار، فحام الموت حول حماهم ودار، ثم ناهضهم وسلب الجار، فمن أنذر قبل هجومه فما جار، ياهذا، العمر عمرٌ قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرض البقية للتأويل، وقد آن الآوان أن يرحل النزيل[١].

لقد خوَّفنا الموت بمن أخذ منا، ونعلم هجومه علينا وقد أَمِنَّا!!

قال **لقمان** لابنه: «يا بني، أمرٌ لا تدري متى يلقاك، استعد له قبل أن يفجأك»[٢].

فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فياللموت من وعد ما أصدقه! ومن حاكم ما أعدله! كفى بالموت مقرحاً للقلوب، ومبكياً للعيون، ومفرِّقاً للجماعات، وهادماً للّذات، وقاطعاً للأمنيات.

فهل تفكَّرت يا بن آدم في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك؟ وإذا نُقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب الرفيق، وهجرك الأخ والصديق، أُخذتَ من فراشك وغطائك إلى عرر، وغطوك بعد لين لحافك بتراب وقذر، فيا جامع المال والمجتهد في البنيان، ليس لك والله من مالٍ إلا الأكفان. بل هي ـ والله ـ للخراب والذِّهاب، وجسمك للتراب والمآب، فأين الذي جمعته من المال؟ هل أنقذك

---

(١) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص٩١.

(٢) العاقبة، ص٩٢.

من الأهوال؟ كلا، بل تركته إلى مَنْ لا يحمدك، وقدِمتَ بأوزارك على من لا يعذرك[١].

هـو المـوت مـا منـه مـلاذٌ ومهـربُ
متـى حـطَّ ذا عـن نعشـه ذاك يـركـبُ
نشـاهـد ذا عيـن اليقيـن حقيقـة
عليـه مضـى طفـل وكهـل وأشيـبُ[٢]

قيل إنَّ **يعقوبَ** ـ عليه السلام ـ قال لملك الموت: إنِّي أسألك حاجة قال: وماهي؟ قال: أن تُعْلِمني إذا دنا أجلي، وأردت أن تقبض روحي؟ فقال: نعم، أُرسِل إليك رسولين أو ثلاثة، فلما انقضى أجله أتى إليه ملك الموت فقال: أزائرٌ جئت أم لقبض روحي؟ فقال: لقبض روحك، فقال: أوَلست كنت أخبرتني أنك ترسل إليّ رسولين أو ثلاثة؟ قال: قد فعلت. بياض شعرك بعد سواده، ضعف بدنك بعد قوته، انحناء جسمك بعد استقامته، هذه رسلي يا يعقوب إلى بني آدم قبل الموت[٣].

وليس هذا هو السائد؛ فكم أخذ الموت من طفل رضيع، وكم أخذ مَن قد استقام عوده وشبّ؛ بل نرى أكثر أصحاب القبور من الشباب والأطفال والرضع.

ولكن **هاك نصيحة** موثقة تصلح لجميع الأعمار، وتُبنى بها الدِّيار في جنات الخلد؛ قال **أبو حازم سلمة بن دينار**: «كلُّ عملٍ تكره

---

(١) التذكرة، ص١٠.
(٢) موارد الظمآن ٣/ ٥٩٦.
(٣) إرشاد العباد، ص٧.

الموت من أجله فاتركه، ثم لا يضرك متى متّ»[١].

أرايت ـ **أخي الكريم** ـ كيف القياس؟

هاك الأخرى:

قال **ميمون بن مهران**: «من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلينظر في عمله، فإنه قادم على عمله كائناً من كان»[٢].

وجماع ذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر: ١٨].

وهذه نداءات قلبية صادقة من **أبي الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ، وهو يحتضر، فقد جعل يقول: «ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا؟ ألا رجلٌ يعمل لمثل ساعتي هذه؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟» وبكى، فقالت له امرأته: تبكي وقد صاحبت رسول الله ﷺ؟ فقال: «مالي لا أبكي ولا أدري عَلامَ أُهجم من ذنوبي».

ولكن أين الاستجابة لهذه النداءات المخلصة التي تهز أعماق المسلم وتذكره بتلك اللحظات القادمة إليه؟.

تفتُّ فؤادك الأيام فتًّا
وتنحت جسمك السَّاعات نحتاً
وتدعوك المنون دعاء صدقٍ
ألا يا صاحِ أنت أُريد أنتا[٣]

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٣.
(٢) حلية الأولياء ٤/ ٨٤.
(٣) موارد الظمآن ١/ ٥٣.

قال بعضهم: «دخلنا على **عطاء السلمي** نعوده في مرضه الذي مات فيه، فقلنا له: كيف ترى حالك؟ فقال: الموت في عنقي، والقبر بين يدي، والقيامة موقفي، وجسر جهنم طريقي، ولا أدري ما يفعل بي. ثم بكى بكاءً شديداً حتى غشي عليه، فلما أفاق، قال: اللهم ارحمني، وارحم وحشتي في القبر ومصرعي عند الموت، وارحم مقامي بين يديك يا أرحم الراحمين».

وصحب رجلٌ **عمر بن الخطاب** إلى مكة، فمات في الطريق، فاحتبس عليه عمر حتى صلى عليه ودفنه، فقلَّ يومٌ إلا كان عمر يتمثَّل:

وبـــالِـــغُ أمـــرٍ كـــان يـــأمـــل دونـــه
ومختلَـــج مـــن دون مـــا كـــان يـــأمـــلُ[1]

ويحكِ يا نفس، أما تخافين إذا بلغت النفس التراقي أن تبدو رُسُل ربك منحدرة إليك بسوء الألوان وقلح الوجوه وبشرى العذاب؟ فهل ينفعك حينئذٍ الندم، أو يقبل منك الحزن، أو يرحم منك البكاء؟. والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك، ولا تحزنين لنقصان عمرك، وما نَفْعُ مالٍ يزيد وعمر ينقص[2].

وها هو **أمير المؤمنين المأمون** لما حضرته الوفاة أمر بحلِّ دابته ففرش له، فاضطجع عليه، ووضع الرَّماد على رأسه، وجعل يقول: «يا من لا

(١) تاريخ عمر، ص٢٠٨.
(٢) الإحياء ٤/٤٤٦.

يزول ملكه، ارحم اليوم من قد زال ملكه»[١].

ولما حضرت الوفاة **أبا جعفر المنصور** أمير المؤمنين، قال للربيع: «يا ربيع هذا السلطان، لا سلطان من يموت»[٢].

إنه الموت نهاية كلِّ حيٍّ، لايفلت منه أحد، ولا يُسبَق فيفوته أحد[٣].

هذا **عبدالملك بن مروان** عندما أيقن بالموت، قال: «والله لوددت أنِّي كنت منذ ولدت إلى يومي هذا حمالاً»[٤].

وقال **أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ: «إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم[٥]».

فالموت قد عدل، ساوى بين الملك والصغير والكبير، يدخل الغرف الصغيرة، ولا يرده حاجب القصور الكبيرة، أفنى من ملكوا الدنيا، وقضى على من لا يملكون شيئاً من الدنيا، ولكن..

النَّـــاس فـــي غفـــلاتهـــم
ورحـــى المنيَّـــة تطحـــنُ[٦]

قيل **لسعيد بن السائب**: كيف أصبحت؟ قال: «أصبحت أنتظر الموت على غير عدَّة»[٧].

---

(١) العاقبة ص١٣٠.
(٢) العاقبة، ص١٢٨.
(٣) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص٧.
(٤) تاريخ الخلفاء، ص٢٠٥.
(٥) الإحياء ٤/ ٤٨٠.
(٦) تاريخ بغداد ٦/ ٢٥٢.
(٧) صفة الصفوة ٢/ ٢٨٣.

ولذلك يجب على كل من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعداً، ولا يغتر بالشباب والصحة؛ فإن أقل من يموت الأشياخ وأكثر من يموت الشبان، ولهذا يندر من يكبر.

يعمّـــر واحـــد فيُغَـــر قـــومٌ
ويُنســـى مـــن يمـــوت مـــن الشبـــاب[١]

قال **أبو سليمان الداراني**: «قلت لأم هارون العابدة: أتحبين أن تموتي؟ قالت: لا، قلت: ولِمَ؟ قالت: والله لو عصيت مخلوقاً لكرهت لقاءه، فكيف بالخالق جلَّ جلاله»[٢].

وعندما حضرت **معاوية بن أبي سفيان** الوفاة، قال: أقعدوني. فأُقعد، فجعل يسبّح الله ـ تعالى ـ ويذكره، ثم بكى. وقال: تَذْكُر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط، ألا كان هذا وغَضُّ الشباب نضرٌ ريان؟ وبكى حتى علا بكاؤه، وقال: يا رب، ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقلَّ العثرة، واغفر الزلة، وجُد بحلمك على من لا يرجو غيرك، ولا يثق بأحدٍ سواك[٣].

ولما كان **عمر بن عبدالعزيز** في مرضه الذي مات فيه قال: أجلسوني، فأجلسوه ثم قال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله. ثم رفع رأسه وأحدَّ النظر، فقالوا له: إنك لتنظر نظراً شديداً، قال: إني لأرى حضرة ما هم بإنسٍ ولا جن، ثم قبض[٤].

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٦٢.
(٢) العاقبة، ص٣٠.
(٣) الثبات عند الممات، ص٨٩.
(٤) حلية الأولياء ٥/ ٣٣٥.

وقد قيل لعبد الله بن مروان في مرض موته: كيف تجدك؟ فقال: أجدني كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤][١].

والموت ـ **أخي الحبيب** ـ لم يَغِبْ عنا لنحتاج من يذكرنا به، فهو في كل يوم يحل بوادينا وللآخرة يدنينا، ولكننا غفلنا عنه، وتناسينا قربه وحلوله.

ولعلنا نكون كما قال **ابن السمَّاك**: «إن استطعت أن تكون كرجل ذاق الموت، وعاش ما بعده فسأل الرجعة، فأُسعِفَ بطلبه، وأُعطي حاجته، فهو متأهب مبادر، فافعل؛ فإن المغبون من لم يقدم من ماله شيئاً ومن نفسه لنفسه»[٢].

الناس في غفلة والموت يوقظهم
وما يفيقون حتى ينفد العمر
ويُشَيِّعون أهاليهم بجمعهم
وينظرون إلى ما فيه قد قُبروا
ويرجعون إلى أحلام غفلتهم
كأنهم ما رأوا شيئاً ولا نظروا[٣]

والعمر زمنٌ يمر سريعاً كأضغاث أحلام؛ يراه الإنسان لا نهاية له، ويُلهِهِ الأمل عن الآخرة. ولذلك كان **المعتصم** يقول عند موته: «لو

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٧٤.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٧٦.
(٣) صيد الخاطر، ص١٤٩.

علمت أن عمري هكذا قصيرٌ ما فعلت»[١].

كلنا أعمارنا قصيرة، وآجالنا مكتوبة، وأنفاسنا معدودة، ولكن الخوف من نارٍ تلظّى. كما قال **مهدي بن ميمون**: «رأيت **حسان بن أبي سفيان** في مرضه، فقيل له: كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار، فقيل له: ما تشتهي؟ قال: ليلة بعيدة الطرفين، أُحيي ما بين طرفيها»[٢].

وروي أن **معاذ بن جبل** لما حضرته الوفاة قال: «انظروا هل أصبحنا؟ فأتى فقيل: لم تُصبح، حتى أُتي في بعض ذلك، فقيل له: قد أصبحنا. فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار ثم قال: مرحباً بالموت زائر مُغيب، وحبيب جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافُك.. وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُكب عند حَلَق الذكر»[٣].

أخي الحبيب:

أرأيت الحياة لديهم كيف تكون ولماذا يعيشون؟ أين نحن من ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء؟ أين نحن من طلب العلم والاستماع للعلماء؟ كيف نرى أوقاتنا الضائعة إذا وافانا الأجل وحان الرحيل؟

كان **حبيب العجمي** عند موته يبكي ويقول: «أريد أن أسافر سفراً ماسافرته قط، وأسلك طريقاً ما سلكته قط، وأزور سيدي ومولاي وما

---

(١) الثبات عند الممات، ص٩٢.
(٢) حلية الأولياء ٣/ ١١٧.
(٣) منهاج القاصدين، ص٤٣١.

رأيته قط، وأشرف على أهوال ما شاهدتها قط».

فهـــنّ المنـــايـــا أي وادٍ سلكتـــه
عليهـا طـريقـي، أو علـيَّ طـريقهـا[١]

وكان استعدادهم للموت استعداد من لا يعلم متى يرحل، ولا متى ينتقل، فلا يُلهِيه الأمل، ولا يثنيه بُعد الأجل. كانت **معاذة العدوية** إذا جاء النهار قالت: «هذا يومي الذي أموت فيه، فما تنام حتى تُصبح»[٢].

وبكى **أبو هريرة** في مرضه فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكني أبكي على بُعد سفري وقلة زادي، وأني أصبحت في صعود مُهبطاً على جنة ونار، ولا أدري أيهما يؤخذ بي[٣].

فكـم مـن صحيـح بـات للمـوت آمنـاً
أتتـه المنـايـا بغتـة بعـدمـا هجـعَ
فلـم يستطـع إذ جـاءه المـوت فجـأة
فـراراً ولا منـه بقـوّتـه امتنـعَ
فـأصبـح تبكيـه النسـاء مقنعـاً
ولا يسمـع الـداعـي وإن صـوتـه ارتفـعَ
وقُـرِّب مـن لحـد مضـار مقيلـه
وفـارق مـا قـد كـان بـالأمـس قـد جمـعَ[٤]

أما أصحاب القصور والدور وأصحاب المناصب الذين يغبطهم الكثير

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٢٢.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٢٢.
(٣) حلية الأولياء ١/ ٣٨٣.
(٤) التبصرة ١/ ٣٢٨.

من أهل الدنيا على هذه النعمة لِنَرَ حالهم عند الموت. إنها لحظات عصيبة؛ العيون شاخصة، والأنفاس متتابعة.

فقد قال **محمد بن منصور البغدادي**: دخلت على عبدالله بن طاهر وهو في سكرات الموت فقلت: السلام عليك أيها الأمير، فقال: «لا تسمِّني أميراً وسمني أسيراً».

ولما حضرت **عبدالملك بن مروان** الوفاة جعل يقول: «والله لوددت أنِّي عبدٌ لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها ولم ألي»[١].

وكان **المنتصر** يضطرب على نفسه عند موته فقيل له: «لا بأس عليك ياأمير المؤمنين. فقال: «ليس إلا هذا، لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة»[٢].

وذُكر أن **الواثق** لما احتضر جعل يردد:

الموت فيه جميع الخلق مشترك
لا سوقه منهم يبقى ولا ملكُ
ماضر أهل قليل في تفارقهم
وليس يغني عن الأملاك ما ملكوا[٣]

وهذا التفاوت في معايش الدنيا لا يرد الموت عن العدل بين الجميع؛ فهو بأمر الله مهلك القوي ومفني الدول، ولكن البدار البدار، التوبة قبل

---

(١) تسلية أهل المصائب، ص٨٨.
(٢) الثبات عند الممات، ص٩٢.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص٣١٨.

الموت. قال **شفيق بن إبراهيم**: استعد إذا جاءك الموت أن لا تسأل الرجعة[١].

والرجعة ـ **أخي الحبيب** ـ لن تعطى إياها، فلكل أجل كتاب، ولكن استعد للموت بالعمل الصالح وبالتوبة النصوح.

إن الخلائق في الدنيا لو اجتهدوا
أن يحبسوا عنك هذا الموت ما حَبَسوا
إن المنية حوض أنت تكرهه
وأنت عما قليل سوف تنغمس[٢]

قال **أبو المنذر إسماعيل بن عمر**: «دخلنا على ورقاء بن عمر بن كليب، وهو يموت، فجعل يكبر ويهلل ويَذكُر الله، فلما كَثُر الناس قال لابنه: اكفني رد السلام، لا يشغلوني عن ربي»[٣].

إنَّ الطَّبيب بطبِّه ودوائه
لا يستطيع دفاع مكروهٍ أتى
ما للطَّبيب يموت بالدَّاء الذي
قد كان يُبري منه فيما قد مضى
ذهب المُدَاوَي والمُدَاوَى والذي
جلب الدَّواء وباعه ومن اشترى[٤]

لما نزل الموت **بحذيفة بن اليمان** قال: «حبيبٌ جاء على فاقةٍ، قد

---

(١) الزهد للبيهقي، ص٢٣٩.
(٢) موارد الظمآن ٣/ ٤٧٥.
(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٣٠.
(٤) ديوان أبو العتاهية، ص٢٩.

كنت قبل اليوم أخشاك وأنا اليوم أرجوك[١].

وبكى **الحسن** ـ رضي الله عنه ـ بكاءً شديداً، فقيل له: يا أبا سعيد ما يبكيك؟ فقال: خوفاً من أن يطرحني في النار ولا يُبَالِي[٢].

ونحن نرى قصص السَّلف تترى، ومواقفهم تتابع، أحاط بنا الموت من كلِّ جانبٍ، ورقت قلوبنا؛ لما نسمع من حالهم، وهم من هم في الصَّلاح والعبادة؛ حريٌّ بنا أن نعي قول **العلاء بن زياد الغدوي**: «ليُنزِلَ أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه ـ تعالى ـ نفسه فأقاله، فليقل بطاعة الله»[٣].

فأقلْ ـ **أخي الحبيب** ـ نفسك من اليوم، وكن من بقية القوم الذين للموت استعدُّوا وللآخرة جدوا.

وحالنا قريبة من رجل قيل له وهو يجود بنفسه: ماحالك؟ فقال وما حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد، ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس، وينطلق إلى ملكٍ عدلٍ بلا حُجة[٤].

أخي:

كأن أهلك قد دعوك فلم
تسمع وأنت مُحشرجُ الصَّدر
وكأنهم قد قلَّبوك على
ظهر السَّرير وأنت لا تدري

---

(١) العاقبة، ص١٤٦.
(٢) الزهر الفائح، ص٩١.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٤٤.
(٤) الأحياء ٢/ ٢٥١.

وكـــأنَّهـــم قـــد زودوك بمـــا
يتـــزود الهلكـــى مـــن العِطـــر

أخي الحبيب:

يـــاليـــت شعـــري كيـــف أنـــت إذا
غُسِّلـــت بـــالكـــافـــور والســـدر
أو ليـــت شعـــري كيـــف أنـــت علـــى
نبـــش الضـــريـــح وظُلمـــة القبـــر
يـــاليـــت شعـــري مـــا أقـــول إذا
وضـــع الكتـــابُ صبيحـــة الحشـــر
يـــا ســـوأتـــا ممـــا اكتسبـــتُ ويـــا
أسفـــي علـــى مـــافـــات مـــن عمـــري
ألا أكـــون عقلـــت شـــأنـــي فـــاسـ
ـتقبلـــت مـــا استـــدبـــرت مـــن أمـــري[1]

لمَّا حضرت **ابن المنكدر** الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «والله ما أبكي لذنب أعلم أنِّي أتيته، ولكن أخاف أنِّي أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم»[2].

وكان بعض الصالحين ينادي بليلٍ على سور المدينة: الرحيلُ الرحيلُ، فلما توفي فَقَد صوته أميرُ المدينة فسأل عنه، فقيل: إنه قد مات، فقال:

---

(١) التبصرة ١/ ٢٩.

(٢) الثبات عند الممات، ص٩٤.

ما زال يلهج بالرِّحيل وذِكره
حتى أناخ ببابه الجمَّالُ
فأصابه متيقِّظاً مُتشمِّراً
ذا أُهبةٍ لم تُلهه الآمالُ[١]

ودخل **ابن عباس** على عمر بن الخطاب حين طُعن، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين، أسلمت مع رسول الله حين كفَر الناس، وقاتَلتَ مع رسول الله حين خذله الناس، وتوفى رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ، ولم يختلف في خلافتك رجلان، فقال **عمر**: أعد، فأعاد، فقال عمر: «المغرور من غررتموه، لو أنَّ لي ما على ظهرها من بيضاء وصفراء لافتديت به من هول المطلع»[٢].

فلو كان هولُ الموت لا شيء بعده
لهان علينا الأمر واحتُقِر الأمرُ
ولكنه حشرٌ، ونشرٌ، وجنَّةٌ
ونارٌ وما قد يستطيل به الخبرُ[٣]

وعن **عمران الخياط** قال: «دخلنا على إبراهيم النَّخعي نعوده، وهو يبكي، فقلنا له: ما يبكيك أبا عمران؟ قال: انتظر ملك الموت، لا أدري يبشرني بالجنة أم بالنار»[٤].

وصدق؛ فما بعد هذه الدنيا إلا جنةٌ ونار. هل نظرنا أين نحن ذاهبون؟

---

(١) التذكرة، ص١٠.
(٢) تاريخ عمر، ص٤٣، التذكرة، ص٩٧.
(٣) أبو العتاهية، ص١٨٩.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ٨٩.

ولأي طريق نحن سالكون؟ اجتمع علينا طول أملٍ وغفلة. فاللهم أيقظ قلوبنا من سباتها، وأغثها بالإيمان وحسن الاعتبار.

قال **المغيرة بن حبيب**: «دخلنا على مالك بن دينار في مرضه الذي مات فيه وهو يكيد بنفسه، فرفع رأسه إلى السماء، ثم قال: اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لفرج ولا لبطن»[١].

رحم الله الجميع. بيننا وبينهم البون الشاسع؛ فحبُّ الدنيا عندهم رغبة في العبادة والطاعة، أما الحال اليوم فلماذا حُب البقاء!!

قال **سليمان التيمي**: «دخلت على بعض أصحابنا وهو في النزع، فرأيت من جزعه ما ساءني، فقلت له: هذا الجَزعُ كُله لماذا، وقد كُنتَ ـ بحمد الله ـ على حالة صالحة؟ فقال: ومالي لا أجزع؟ ومن أحقُّ مني بالجزع؟ والله لو أتتني المغفرة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأهمَّني الحياءُ منه فيما أفضيت به إليه»[٢].

أخي الحبيب.. تأهَّب..

إن للمـــوت سكـــرة فـــارتقبهـــا
لا يـــداويـــك إذا أتتـــك طبيـــبُ

أعاننا الله على لقائه، وجعلنا ممن استعد للموت وكربه وغصصه، وجعلنا مثل سلفنا الصالح، فقد كان **الجنيد** يقرأ القرآن وهو في سياق الموت ويصلي، فختم، فقيل له: في مثل هذه الحال يا أبا علي؟ فقال:

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٦١.
(٢) تسلية أهل المصائب، ص٨٨.

ومن أحق مني بذلك، وهاهو ذا تطوى صحيفة عملي؟ ثم كَبَّر، ومات[١].

وحين حضرت **محمد بن سيرين** الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «أبكي؛ لتفريطي في الأيام الخالية، وقلة عملي للجنة العالية، وما ينجيني من النار الحامية».

والموت يمر عبر السطور، وتقشعر له النفوس، نتمنى أن ينتهي الحديث عن الموت، لكن لِنَرَ **عمر بن عبدالعزيز** ـ رحمه الله ـ وهو يقول: «لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد»[٢].

الموت لا يفارق ذهنه ساعة، ونحن لا نصبر على سماع شيء عن الموت ولو ساعة، بل ربما يقوم بعضهم من المكان الذي فيه ذكرٌ للموت وحديث عن الاحتضار، وماذاك إلا من الغفلة، ورغبة في الدنيا ونعيمها الزائل. هذا وهو حديث في مكانٍ منعم بالنعم.

لنتأمل فعل أمير المؤمنين **هارون الرشيد** وهو ينتقي أكفانه بيده، وينظر إليها، ويقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾ [الحاقة: ٢٨ ـ ٢٩][٣].

لطول الغفلة وكثرة التعلق بالدنيا.. ربَّما لو وجد البعض ثوباً يشبه الكفن في بيته لأخرجه، فلا داعي له، وهل الموت قريب ليستعد له؟!

تنـــام ولـــم تنـــم عنـــك المنـــايـــا
تنبَّـــــه للمنيـــــة يـــــا نـــــؤومُ

---

(١) العاقبة، ص١٣٣.
(٢) العاقبة، ص٣٩.
(٣) العاقبة، ص١٢٨.

لما حضرت **سليمان الفارسي** الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «ماأبكي جزعاً على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب». فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهماً[١].

أخي الحبيب:

أنظر حولك.. أين نحن من هؤلاء؟!

مـــا النَّـــاسُ إلا واردٌ وصـــادرٌ
الطمـــعُ للغـــالـــب فقـــرٌ حـــاضـــر

ذكَّرنَا **عمر بن عبدالعزيز** بمآلنا وانقطاعنا عن الدنيا فقال: «ألا ترون أنكم تجهِّزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتضعونه في صدع من الأرض، قد توسَّد التراب، وخلف الأحباب، وقطع الأسباب»[٢]؟

سفـــري بعيـــد وزادي لـــم يبلغنـــي
وقســـوتـــي لـــم تـــزل والمـــوت يطلبنـــي
ولـــي بقـــايـــا ذنـــوبٍ لســـت أعلمهـــا
الله يعلمهـــا فـــي الســـرِّ والعلـــن

لما حضرت **ابن المبارك** الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب. فبكى نصر، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هنا تموت فقيراً غريباً، فقال: اسكت؛ فإنِّي سألت الله أن

---

(١) الثبات عند الممات، ص٩٣.
(٢) الإحياء ٤/ ٤٨٠.

يحييني حياة السعداء ويميتني ميتة الفقراء، ثم قال: لقنّي الشهادة ولا تُعد علي إلا أن أتكلم بكلامٍ ثان[١].

إخواني:

كيف الأمن؟ وهذا **الفاروق** يقول: «لو أنَّ لي طلاع الأرض ذهباً وفضة لافتديت بها، كيف الأمن من هول ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبر».

ولما طُعن **عمر** قال لابنه: «ضع خدي على التراب، فوضعه، فبكى حتى لصق الطين بعينيه وجعل يقول: ويلي، وويل أمي إن لم يرحمني ربي»[٢].

وقالت **أم الدَّرداء**: «كان أبو الدرداء إذا مات الرجل على الحال الصالحة قال: هنيئاً لك، يا ليتني كنت مكانك، فقالت أم الدرداء له في ذلك فقال: هل تعلمين يا حمقاء أن الرجل يصبح مؤمناً ويمسي منافقاً، يُسلَبُ إيمانه وهو لا يشعر، فأنا لهذا الميت أغبط مني لهذا بالبقاء في الصلاة والصيام»[٣].

قيل **للكناني** لما حضرته الوفاة: ماكان عملك؟ فقال: «لو لم يَقرُب أجلي ما أخبرتكم به. وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه»[٤].

أخي:

كم وقفنا على أبواب قلوبنا لنرى ولو ساعة من نهار؟

---

(١) العاقبة، ص١٤٥.
(٢) المدهش، ص١٩١.
(٣) شرح الصدور، ص١١.
(٤) الإحياء ٤/٥١٣.

مضى الدَّهر والأيام والذَّنب حاصلٌ
وجاء رسول الموت والقلب غافل
نعيمك في الدنيا غرورٌ وحسرةٌ
وعيشك في الدنيا محالٌ وباطل

لمَّا حضرت **بلالاً** الوفاة قالت امرأته: واحزناه، فقال: «بل واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه»[١].

وما الموت إلا رحلةٌ، غير أنَّها
من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي[٢]

وهذا **فاروق الأمة**، لِنَزَ خوفه من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقد قال **عبدالله بن الزبير**: «ما أصابنا حزنٌ منذ اجتمع عقلي مثل حزنٍ أصابنا على عمر بن الخطاب ليلة طعن، قال: صلى بنا الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أسر الناس وأحسنهم حالاً. فلما كانت صلاة الفجر صلى بنا رجل أنكرنا تكبيره، فإذ هو عبدالرحمن بن عوف، فلما انصرفنا قيل: طُعن أمير المؤمنين. قال: فانصرف الناس وهو في دمه لم يصل الفجر بعد، فقيل: يا أمير المؤمنين، الصلاة، الصلاة، قال: ها الله ذا لا حظَّ لامرىءٍ في الإسلام ضيع الصلاة، قال: ثم وثب ليقوم، فانبعث جرحه دماً، قال: يا أيها الناس، أكان هذا على ملأ منكم؟ فقال له علي بن أبي طالب: لا والله، لا ندري من الطاعن من خلق الله. أنفسنا تفدي نفسك، ودماؤنا

---

(١) الثبات عند الممات، ص٩٣.
(٢) أبو العتاهية، ص٢٨٩.

تفدي دمك، فالتفت إلى عبدالله بن عباس فقال: اخرج، فسل الناس ما بالهم واصدقني الحديث.

فخرج، ثم جاء، فقال: يا أمير المؤمنين، أبشر بالجنة، لا والله ما رأيت عيناً تطرف من خلق من ذكر أو أنثى إلا باكية عليك، يفدونك بالآباء والأمهات، طعنك عبدالمغيرة بن شعبة، وطعن معك اثني عشر رجلاً فهم في دمائهم حتى يقضي الله فيهم ما هو قاض، تَهْنَك يا أمير المؤمنين الجنة. قال: غُرَّ بهذا غيري يا ابن عباس. وَلِمَ لا أقول لك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن كان إسلامك لعزاً، وإن كان هجرتك لفتحاً، وإن كانت ولايتك لعدلاً، ولقد قُتِلْتَ مظلوماً، ثم التفت إلى ابن عباس فقال: تشهد بذلك عندالله يوم القيامة؟ فكأنَّه تلكَّأ. قال: فقال علي بن أبي طالب وكان بجانبه: نعم، يا أمير المؤمنين نشهد لك عند الله يوم القيامة، قال: ثم التفت إلى ابنه عبدالله بن عمر فقال: ضع خدي إلى الأرض يا بني، قال: فلم أبح (أعبأ) بها، وظننت أن ذلك اختلاس من عقله. فقالها مرة أخرى: ضع خدي إلى الأرض يا بني، فلمَّا أفعل، ثم قال لي المرة الثالثة: ضع خدي إلى الأرض لا أم لك، فعرفت أنه مجتمع العقل، ولم يمنعه أن يضعه إلا مابه من الغلبة، قال: فوضعت خده إلى الأرض حتى نظرت إلى أطراف شعر لحيته خارجة من بين أضغاث التراب، قال: وبكى حتى نظرت إلى الطين قد لصق بعينيه، قال: وأصغيت بأذنين لأسمع ما يقول: قال: فسمعته وهو يقول: يا ويل عمر وويل أمه إن لم يتجاوز الله عنه»[1].

---

(١) تأريخ عمر، ص٢٤٥.

كتب الموت على الخلق فكم
فلّ من جيش وأفنى من دول

قال **عبدالعزيز بن أبي رواد**: «دخلت على المغيرة بن حكيم في مرضه الذي مات فيه فقلت: أوصني. فقال: اعمل لهذا المضجع»[١].

ونحن - **ياأخي** - ماذا عملنا لهذا المضجع وماذا قدمنا ليوم الفزع؟

قيل **لأبي مسعود الأنصاري**: ماذا قال حذيفة بن اليمان عند موته؟ قال: لما كان عند السحر، قال: أعوذ بالله من صباح إلى النار. ثلاثاً. ثم قال: اشتروا لي ثوبين أبيضين، فإنهما لن يُتركا عليّ إلا قليلاً حتى أُبَدِّل بهما خيراً منهما أو أُسلَبهما سلباً قبيحاً[٢].

خرجْتُ من الدُنيا وقامت قيامتي
غداة أقل الحاملون جنازتي
وعجَّل أهلي حفر قبري وصيَّروا
خروجي وتعجيلي أجلَّ كرامتي
كأنَّهموا لم يعرفوا قط صورتي
غداة أتى يومي عليَّ وساعتي

وخُلُق المسلم عبادة يتقرب بها إلى الله؛ فهذا **سعيد بن العاص** لما حضرته الوفاة لم ينس إخوانه وأصحابه، فقد جمع بنيه، وقال لهم: «لا يفقدن أصحابي غير وجهي، وصِلوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليهم ما كنت أُجري عليهم، واكفوهم مؤنة الطَّلب؛ فإنَّ الرَّجل إذا طلب

(١) حلية الأولياء ٨/ ١٩٤.
(٢) السير ٢/ ٣٦٨.

الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائصه، مخافة أن يُردَّ»[١].

رحمك الله ورحم أيادٍ أعطت وخيراً أنفقت. فكم من فقير أطعمت وملهوف أنجدت.

قال **عمر بن عبدالعزيز**: «لولا أن تكون بدعة لحلفت أن لا أفرح من الدنيا بشيءٍ أبداً، حتى أعلم مما في وجوه رسل ربِّي إليَّ عند الموت، وما أحبُّ أن يهون عليَّ الموت؛ لأنَّه آخر مايؤجرُ عليه المؤمن»[٢].

وعن **المزني** قال: دخلت على الشافعي في علَّته التي مات فيها، فقلت: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت من الدُّنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، ولسوء عملي ملاقياً، وعلى الله ـ تعالى ـ وارداً، فلا أدري روحي تصير إلى الجنَّة فأهنِّيها أو إلى النَّار فأعزِّيها، ثم بكى، فأنشد يقول:

ولمَّا قسا قلبي وضاقت مذاهبي
جعلت الرَّجا منِّي لعفوك سُلَّمَا
تعاظمني ذنبي فلمَّا قرنته
بعفوك ربِّي كان عفوك أعظما
ومازلتَ ذا عفو عن الذَّنبِ لم تزل
تجود وتعفو منَّة وتكرُّما[٣]

ولما احتضر **سعيد بن المسيب** ترك دنانير، فقال: «اللهمَّ إنك تعلم

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٩٤.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٣١٦.
(٣) صفة الصفوة ٢/ ٢٨٥، والسير ١٠/ ٧٦.

أنِّي لم أتركها لأصون بها حَسَبي ودِيني»[١].

والكثير الآن من الأموال جُمعت من حرام، وأُودعت في حرام، وأُنفقت في حرام، وهو ـ رحمه الله ـ ترك دنانير؛ ليصون بها حسبه ودينه.

أرأيت ـ **أخي** ـ كيف تبدلت الأمور، وتغيَّرت المفاهيم؟ طالت الغفلة حتى نسي المسلم لماذا خُلق، والله ـ جلَّ وعلاَ ـ حدَّد ذلك بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

لما احتضر **عبدالرحمن بن الأسود** بكى، فقيل له. فقال: أسفاً على الصلاة والصوم. ولم يزل يتلو حتى مات[٢].

والخروج من هذه الدنيا خروج بكفن، وعمل صالح، تُحمل ملفوفاً بكفن تاركاً وراءك قصوراً شيدتها ودوراً بنيتها، فيها أحباب وأصحاب، وزوجات وأبناء.

وكل هذا لديك ولكنك ترحل بكفن. أرأيت كيف؟ قال **عمر بن الخطاب** لابنه: اقتصدوا في كفني؛ فإن كان لي عند الله خيرٌ أبدلني ما هو خيرٌ منه، وإن كنت على غير ذلك سلبني فأسرع سلبي. واقتصدوا في حفرتي؛ فإنه إن كان لي عند الله خيرٌ أوسع لي منها مد بصري، وإن كنت على غير ذلك ضيقها عليَّ حتى تختلف أضلاعي[٣].

قالت **زينت بنت جحش** حين حضرتها الوفاة: إني قد أعددت كفني،

---

(١) السير ٤/ ٢٤٥.
(٢) السير ٥/ ١١٢.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص١٣٦.

فإن بعث لي عمر بكفن، فتصدقوا بأحدهما، وإن استطعتم إذا أدليتموني أن تصدقوا بحقوقي فافعلوا.

يـــــاربِّ أنـــــت رجـــــائـــــي
وفيـــــك حَسَّنـــــتَ ظنـــــي
يـــــارب فـــــاغفـــــر ذنـــــوبـــــي
وعـــــافنـــــي واعـــــف عنـــــي
العفـــــو منـــــك إلهـــــي
والـــــذنـــــب قـــــد جـــــاء منـــــي

لما نزل الموت **ببعض الصالحين**، وكان على عليائه من العبادة والزهد، شق عليه وساءه ذلك، فقيل له: أتحب الحياة يا فلان؟ فقال: يا قوم، القدوم على الله شديد.

ولمَّا حضرت **الحسن بن هانيء** الوفاة أنشد:

دبَّ فـــيَّ السقـــام سفـــلاً وعلـــواً
وأرانـــي أمـــوت عضـــواً فعضـــواً
ليـــس مـــن ســـاعـــة مضـــت بـــي إلا
نقصتنـــي بمـــرِّهَـــا بـــيَّ جـــزواً
لهـــف نفســـي علـــى ليـــالٍ وأيـــا
مٍ قضيتُهـــــن لعبـــــاً ولهـــــواً
قـــد أســـأتُ كـــل الإســـاءة فـــا
للَّهـــم صفحـــاً وغفـــرانـــاً وعفـــواً[1]

---

(١) العاقبة، ص١٣٧.

ودخل **الحسن البصري** على مريضٍ يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام ـ يرحمك الله ـ، فقال: يا أهلاه، عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه[١].

مشينـــاهـــا خُطـــىً كُتِبَـــت علينـــا
ومـــن كُتِبَـــتْ عليـــه خُطـــىً مشـــاهـــا
وأرزاقٌ لنـــــا متفـــــرقـــــاتٌ
فمـــن لـــم تـــاتـــه منـــا أتـــاهـــا
ومـــــن كُتِبَـــــت منيتـــــهُ بـــــأرضٍ
فليـــس يمـــوتُ فـــي أرضٍ ســـواهـــا[٢]

وقد بكى **سفيان الثوري** ليلةً إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: أُكلّ هذا خوفاً من الذنوب؟ فأخذ تبنةً من الأرض وقال: الذنوب أهون من هذه، وإنما أبكي خوفاً من سوء الخاتمة».

وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل أن تخدعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن **أبي الدرداء** أنه لما احتضر جعل يُغمى عليه ثم يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]. فمن هذا خاف السَّلف، من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى. قال: واعلم أن

---

(١) التذكرة، ص١٤.
(٢) التذكرة، ص٩٤.

سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه. ما سُمع بهذا، ولا عُلم به، ولله الحمد، إنَّما تكون لمن له فسادٌ في العقيدة أو إصرارٌ على الكبيرة، وإقدام على العظائم، فربَّما غلب ذلك عليه حتى نزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطويّة، ويصطدم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة ـ والعياذ بالله ـ[١].

قـــرُب الـــرَّحيـــل إلـــى ديـــار الآخـــرة
فـــاجعـــل إلهـــي خيـــر عمـــري آخـــره
وأرحـــم مبيتـــي فـــي القبـــور ووحـــدتـــي
وارحـــم عظـــامـــي حيـــن تبقـــى نـــاخـــرة[٢]

يروى عن **عبدالله بن شرمة** أنه قال: دخلت مع عامر الشعبي على مريضٍ نعوده، فوجدنا لما به، ورجلٌ يلقِّنه الشَّهادة ويقول له: قل لا إله إلا الله، وهو يُكثر عليه، فقال له الشعبي: ارفق به، فتكلَّم المريض وقال: إنْ يلقني أو لا يلقني، فإني لا أدعُها، ثم قرأ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ [الفتح: ٢٦]. فقال **الشعبي**: الحمد لله الذي نجّى صاحبنا[٣].

قال رسول الله ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» [رواه أبو داود والحاكم].

---

(١) الجواب الكافي، ص٢٤٥.
(٢) شذرات الذهب ٧/ ٦٩.
(٣) العاقبة، ص١٣٦.

أخي المسلم:

لشهادة «أن لا إله إلا الله» عند الموت تأثيرٌ عظيمٌ في تكفير السَّيئات وإحباطها؛ لأنَّها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسهُ المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلَّتْ بعد عزِّها، وخرج منها حرصُها على الدنيا وفضولها، واستخذَتْ بين يَدَي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذلَّ ما كانت له، وأرْجَى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرَّد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همّها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجَّهَ العبدُ وجههُ بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهَـمِّه عليه. فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سرُّه وعلانيته فقال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه. وقد تخلص قلبُه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه. قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيرانُ شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة، فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرّتْه من ذنوبه، وأدخلتهُ على ربِّه، لأنه لقي ربَّه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها وسرُّها علانيتها، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرَّ إلى الله من الناس، وأنِسَ به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلبٍ مشحونٍ بالشهواتِ وحُبِّ الحياة وأسبابها، ونفسٍ مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله. فلو تجردتْ كتجرُّدها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي. والله المستعان.

ماذا يملك من أمره وناصيتُه بيد الله ونفسهُ بيده، وقلبُه بين إصبعين من

أصابعه يقلبه كيف يشاء، وحياته بيده وموته بيده، وسعادته بيده، وشقاوته بيده، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته. فلا يتحرك إلا بإذنه، ولا يفعل إلا بمشيئته. إن وكّله إلى غيره وكله إلى عجز وضيعه وتفريط وذنب وخطيئة، وإن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه، وجعله أسيراً له. فهو لا غنىٰ له عنه طرفة عين، بل هو مضطرٌّ إليه على مدى الأنفاس في كل ذرَّة من ذرَّاته باطناً وظاهراً. فاقتُه تامة إليه، ومع ذلك فهو متخلِّفٌ عنه مُعرضٌ عنه، يتبغَّض إليه بمعصيته، مع شدَّة الضرورة إليه من كل وجهٍ، قد صار لذكره نسيّاً واتخذه وراءه ظهرياً، هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه[١].

وقال **محمد بن قاسم**: «دخلت على ابن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور، فقال: يا أبا عبدالله، تعالَ أُبشرك بما صنع الله بأخيك من الخير، قد نزل بي الموت، وقد منَّ الله عليَّ. أنه مالي درهم يحاسبني الله عليه. ثم قال: أغلق الباب ولا تأذن لأحد حتى أموت، وتدفنون كتبي، واعلم أني أخرج من الدنيا وليس أدع ميراثاً غير كسائي ولبدي وإنائي الذي أتوضأ فيه وكتبي هذه، فلا تكلفوا الناس مؤنة. وكان معه صرة فيها ثلاثون درهماً، فقال: هذا لابني أهداه قريب له، ولا أعلم شيئاً أحل لي منه؛ لأن النبي ﷺ قال: «**أنت ومالك لأبيك**»[٢] وقال: «**أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه**»[٣] فكفنوني منها، فإن أصبتم لي

(١) الفوائد، ص٧٣.
(٢) صحيح: أخرجه البيهقي عن جابر والطبراني عن سمرة.
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي والنسائي والبيهقي.

بعشرة ما يستر عورتي فلا تشتروا بخمسة عشر، وابسطوا على جنازتي لبدي وغطوا عليها كسائي، وأعطوا إنائي مسكيناً»[١].

من الموت لا ذو لصبرٍ ينجيه صبره
ولا لجزوع كاره الموت مَجزعُ
أرى كلَّ نفسٍ وإنْ طال عمرها
وعاشت لها سمٌّ من الموت مُنقع
فكلُّ امرىءٍ لاقٍ من الموت سكرةً
له ساعةٌ فيها يذلُّ ويضرعُ
وإنَّك مَنْ يعجبك لا تك مثله
إذا أنت لم تصنع كما كان يصنَعُ[٢]

لمَّا نزل الموتُ بسليمان التيمي قيل له: أبشر فقد كنت مجتهداً في طاعة الله ـ تعالى ـ، فقال: لا تقولوا هكذا؛ فإني لا أدري مايبدو لي من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه يقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧][٣].

قال بعضهم: «عملوا أعمالاً كانوا يظنُّون أنها حسنات فوجدوها سيئات»[٤].

أخي الحبيب:

لا تُلهك الدنيا، ولا يغرك الأمل، ولكن:

---

(١) السير ١٢/ ١٩٩.
(٢) السير ٦/ ٢٩٥.
(٣) العاقبة، ص١٣٣.
(٤) مثل عبادات خالطها الرياء.

تـــزوَّد مِـــنْ الـــدُّنيـــا فـــإنَّـــك راحـــلٌ
وبـــادر فـــإنَّ المـــوت لاشـــكَّ نـــازلٌ

فإنَّه اليوم نازل بقريب، وغداً بحبيب، وأنت تتخطَّفك المنايا؛ فإن طال عمرك فإنَّك ترى كثرة من يقبرُ وقلَّة من يعيش.

إن تبـــق تُفجـــع بـــالأحبَّـــة كلِّهـــم
وفنـــاءُ نفســـك لا أبـــالـــك أفجـــع[١]

لما احتضر **سعيد بن مروان** قال: «يا ليتني لم أكن شيئاً، ياليتني كهذا الماء الجاري» ثم قال: «هاتو كفني: أُفٍ لك، ما أقصر طويلك وأقلَّ كثيرك»[٢].

ولمَّا احتضر **عثمان بن عفان** ـ رضي الله عنه ـ جعل يقول ودمه يسيل: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستعين بك على أموري، وأسألك الصبر على بلائي»[٣].

حكـــم المنيَّـــة فـــي البـــريَّـــة جـــارٍ
مـــاهـــذه الـــدُّنيـــا بـــدار قـــرارٍ[٤]

وأي قرار في هذه الدنيا، فأين الأمم السابقة والآباء والأجداد؟ إنها والله دار العمل والتزود من الطاعة قبل الرحيل؛ فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، والخروج من دار العمل إلى دار الحساب شديد

---

(١) السير ١٢/ ٩.
(٢) السير ٤/ ٢٥٠.
(٣) العاقبة، ص١٢٢.
(٤) السير ١٩/ ٩.

كما قال **الفضيل بن عياض**: «الدخول في الدنيا هين، ولكن الخروج منها شديد»(١).

وقالت **فاطمة بنت عبدالملك بن مروان** امرأة عمر بن عبدالعزيز: «كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخفِ عليهم موتي ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذي قبض فيه، خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣] ثم هدأ، فجعلت لا أسمع حركة ولا كلاماً، فقلت لوصيفٍ له: انظر أنائمٌ هو؟ فلما دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميت»(٢).

ألـــم تـــر أنَّ الله يكفـــي عبـــاده
فحســـب عبـــاد الله بـــالله كـــافيـــاً

وقيل إنَّ **محمد بن المنكدر** بكى بكاءً شديداً عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فرفع طرفه إلى السماء وقال: «اللهمَّ إنك أمرتني ونهيتني فعصيت، فإن غفرت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت»(٣).

أخي الحبيب:

هل وقفت لحظة تفكِّر في أنك ميت؟ ترى مكانك بعد الموت، ترى شدة الحساب. ثم إلى الجنة أو النار.

---

(١) مكاشفة القلوب، ص١٥٧.
(٢) الثبات عند الممات، ص٩٠.
(٣) الزهر الفائح، ص٩١.

أؤمِّـــل أن أحيـــا وفـــي كـــلِّ ســـاعـــةٍ
تمـــرُّ بـــي المـــوتـــى تُهـــزُّ نعـــوشُهـــا
وهـــل أنـــا مثلهـــم غيـــر أن لـــي
بقـــايـــا ليـــالٍ فـــي الـــزَّمـــان أعيشهـــا[١]

قال **القعقاع بن حكيم**: «قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنةً، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء».

ويروى عن **عبدالله بن المبارك** أنَّه لمَّا احتضر نظر إلى السماء، فضحك ثم قال: «لمثل هذا فليعمل العاملون»[٢].

واحتضر بعض الصَّالحين فبكت امرأته فقال: مايبكيك؟ قالت: عليك أبكي، قال: إن كنت باكية فابكي على نفسك، فأما أنا فقد بكيت على هذا اليوم منذ أربعين سنةً.

يبكـــي علـــى ميـــتٍ ويغفـــل نفســـه
كـــأنَّ بكفيـــه أمـــانـــاً مِـــنْ الـــرَّدى
ومـــا الميِّـــت المقبـــور فـــي صـــدر يـــومـــه
أحـــقُّ بـــأن يبكبـــه مـــن ميِّـــت غـــدَا[٣]

قال **بكير بن عامر**: «كان لو قيل لعبدالرحمن بن أبي نعم قد توجَّه إليك ملك الموت، ماكان عنده زيادة عمل»[٤].

وعن **بكير بن عياض** قال: «رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له غداً

---

(١) وفيات الأعيان، ص٥٥١٣.
(٢) العاقبة، ص١٣٥.
(٣) الزهدَ للبيهقي، ص١٢٧٨.
(٤) السير ٥/ ٦٢.

القيامة ما كان عنده مزيد على ماهو عليه من العبادة»[١].

نعم الاستعداد، ونعمت المحافظة على أوقاته التي صرفها في طاعة الله، فهو كما قال القائل:

ولـو قيـل لـي مـت قلـت سمعـاً وطـاعـةً
وقلـت لـداعـي المـوتِ أهـلاً ومـرحبـاً[٢]

أخي الحبيب:

أين نحن من هؤلاء في الخوف من الله وفي الحرص على الطَّاعات واجتناب المحرمات؟ أين المحافظة على الأوقات والسَّاعات؟

ألم تفكِّر **أخي الحبيب** في لحظة احتضارك، وأنت تعلم أنَّك ستعاني منها؟ فإنَّ مشهد الاحتضار ذو لمسة عميقة مؤثرة، حين تبلغ الروح الحلقوم، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر، ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين، لا يملكون له شيئاً، ولا يدري ما يجري حوله، ولا ما يجري في كيانه، ويخلص أمره كلَّه لله[٣].

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩].

لا تستطيع **أخي الحبيب** أن ترفع يدك ولا تحرك لسانك؛ قدمك قد شُلَّت، وعينك ذرفت، والجميع حولك، ولكن:

تفكَّـرت فـي حشـري ويـوم قيـامتـي
وإصبـاح خـدي فـي المقـابـر شـاديَـا

---

(١) السير ٥/٣٦٦.
(٢) البداية والنهاية ١٣/١٣٦.
(٣) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص١٥.

فـــريـــداً وحيـــداً بعـــد عـــزٍّ ورفعـــةٍ
رهينـــاً بجُـــرمـــي والتـــراب وســـاديَـــا
تفكَّـــرت فـــي طـــول الحســـاب وعـــرضـــه
وذلِّ مقـــامـــي حيـــن أعطـــى كتـــابيَـــا
ولكـــن رجـــائـــي منـــك ربِّـــي وخـــالقـــي
بـــأنَّـــك تعفـــو يـــاإلهـــي خطـــائيَـــا[1]

قام **بلال بن سعد** ينادي: «ياأهل التُّقى، إنَّكم لم تخلقوا للفناء، وإنَّما تنقلون من دارٍ إلى دارٍ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدُّنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنَّةٍ أو نارٍ[2].

أخي الحبيب:

دعنـــي أســـحُّ دمـــوعـــاً لا انقطـــاعَ لهـــا
لـــو كنـــتَ تعلـــمُ مـــابـــي كنـــتَ تعـــذُرنـــي
كـــأنِّـــي بيـــن تلـــك الأهـــل منطـــرحـــاً
علـــى الفـــراشِ وأيـــدِيهـــم تقلِّبُنـــي
كـــأنِّـــي وحـــولـــي مـــن ينـــوح ومـــن
يبكـــي علـــيَّ وينعـــانـــي وينـــدبنـــي
وقـــد أتـــوا بطبيـــبٍ كـــي يعـــالجنـــي
ولـــم أر الطَّبيـــب اليـــوم ينفعُنـــي

---

(١) مكاشفة القلوب، ص٣٥.
(٢) السير ٥/ ٩١.

واشتـدَّ نـزعـي وصـارَ المـوتُ يجـذبُهـا
مـن كـلِّ عـرقٍ بـلا رفـقٍ ولا هـونِ
واستخـرج الـرُّوح منِّـي فـي تغـرغـرهـا
وصـار ريقـي مـريـراً حيـن غـرغـرنـي
وغمَّضـونـي وراح الكـلُّ وانصـرفـوا
بعـد الإيـاس وجـدُّوا فـي شـرا الكفـنِ

* * *

هديه ﷺ[١]

كان من هديه ﷺ تسجيةُ الميت إذا مات، وتغميض عينيه، وتغطيةُ وجهه وبدنه، وكان ربَّما يُقبِّل الميت كما قبل عثمان بن مظعون، وبكى[٢]، وكذلك الصِّدِّيق أكبَّ عليه، فقبله بعد موته، ﷺ.

وكان يأمر بغسل الميت ثلاثاً أو خمساً أو أكثر، بحسب مايراه الغاسل، ويأمر بالكافور في الغسلة الأخيرة، وكان لا يغسِّل الشُّهداء قَتْلى المعركة، وذكر الإمام أحمد أنَّه نهى عن تغسيلهم، وكان ينزع عنهم الجلود والحديد، ويدفنهم في ثيابهم، ولم يُصل عليهم.

وكان إذا مات المُحرِمُ، أمر أن يغسَّلَ بماءٍ وسدرٍ، ويكفَّن في ثوبيه وهما ثوبا إحرامه: إزاره ورداؤه، وينهى عن تطييبه وتغطية رأسه.

وكان يأمر من ولي الميت أن يُحسن كفنه، ويكفِّنه في البياض، وينهى عن المغالاة في الكفن، وكان إذا قصَّر الكفن عن ستر جميع البدن، غطَّى رأسه، وجعل على رجليه من العُشب.

* * *

(١) انظر: زاد المعاد ١/ ٥٠٢ ـ ٥٠٤.

(٢) حسن: أخرجه أبوداود والترمذي وابن ماجة عن عائشة.

الوقفة الثالثة

الجنازة

الجنازة

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «**عودوا المريض، واتبعوا الجنائز تذكِّركم الآخرة**»(١).

والإنسان إذا تُيقِّن موته وُجِّه للقبلة على جنبه الأيمن، فإذا خرجت روحه سُنَّ تغميضه وشد لحييه، ثم يُغَسَّل ويُكَفَن الرَّجل في ثلاث لفائف بيض والمرأة في خمسة أثواب «إزار وخمار وقميص ولفافتين».

وتحمل الجنازة؛ ليصلِّى عليها صلاة لا تصلى إلا مرة واحدة، وتكون آخر مرة يدخل المسجد.

واعلم ـ رحمك الله ـ أن في الجنائز عبرة للمعتبرين وفكرة للمتفكرين وتنبيهاً للناسين، وإيقاظاً للنائمين، بينما الإنسان في قيام وقعود ونزول وصعود، وخُذْ وهات ودع هذا، وابن هذا واهدم هذا، وقد كان، وأين ذهب فلان؟ ومن أين جاء فلان؟ إذ جاءه أمرٌ إلهيٌّ وحادثٌ سماويٌّ وحكم رباني فسكن حركته، وأطفأ شعلته، وأذهب نفرته، تركه كالخشبة الملقاة والحجر المرمي، إن صيح به لم يسمع، وإن دُعي لم يجب، وإن قُطّع أو أُحرق لم يتكلَّم.

وحملوني على الأكتاف أربعةٌ
من الرِّجال وخلفي من يشيعني
وقدَّموني إلى المحراب وانصرفوا
خلف الإمام فصلَّى ثم ودَّعني

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد.

صلّـــوا علـــيّ صـــلاة لا ركـــوعَ لهـــا
ولا سجـــود لعـــل الله يـــرحمنـــي[١]

نظر **عمر بن عبدالعزيز** وهو في جنازة إلى قوم تلثموا من الغبار والشمس وانحازوا إلى الظل، فبكى وأنشد:

مـــن كـــان حيـــن تصيـــب الشَّمـــس جبهتـــه
أو الغبـــار يخـــاف الشيّـــن والشَّعثَـــا
ويـــألـــف الظـــل كـــي تبقـــى بشـــاشتـــه
فســـوف يسكـــن يـــومـــاً راغمـــاً جـــدثَـــا
فـــي قعـــرٍ مظلمـــةٍ غبـــراء مـــوحشـــة
يطيـــل فـــي قعـــرهـــا تحـــت الثـــرى اللبثَـــا
تجهَّـــزي بجهـــازٍ تبلغيـــن بـــه
يـــا نفـــس قبـــل الـــرَّدى لـــم تخلقـــي عبثَـــا[٢]

قال **منازل بن سعيد**: صلّينا خلف جنازة فيها داود الطّائي وهو لا يـراني خلفـه فقـال: أوه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٠] ثمَّ قال لنفسه:

يا داود، من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله قصر عمله، وكل ماهو آتٍ قريب، واعلم ياداود أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو مشئوم، واعلم يا داود أن أهل الدنيا جميعاً من أهل القبور، إنما يندمون على ما يخلفون، ويفرحون بما يقدمون. فيما عليه أهل

---

(١) موارد الظمآن ٣/ ٤٩١.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٢٩.

القبور يندمون، عليه أهل الدُّنيا يقتتلون وفيه يتنافسون، عليه عند القضاء يختصمون[١].

أرأيت تلك الجنازة المحمولة؟ النَّاس حولها يهرولون، لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، ربما حُركت يمنة ويسرة وهي لا ترد شيئاً من ذلك، مُقدمةٌ على سؤال وجواب وجنة ونار.

قال **أبو عمرو بن العلاء**: جلست إلى جرير وهو يملي عليَّ كتابه شعراً، فاطلعت جنازة فأمسك وقال: شيبتني ـ والله ـ هذه الجنائز. وأنشأ يقول:

تروِّعنا الجنائز مقبلات
ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلَّةٍ لمغار ذئبٍ
فلمَّا غاب عادت راتعاتِ[٢]

والجنائز تمرُّ الآن ولا تدمع العيون، ولا تتحرك القلوب، ولا نرى التكدُّر في الحياة والحزن عل الوجوه، إنَّها ـ والله ـ غفلة، وإلا فمن لا يعتبر بميت محمول إلى حفرة ضيقة.

أين نحن من هؤلاء؟!

قال **الأعمش**: «كنَّا نشهد الجنازة ولا ندري من المعزّي فيها لكثرة الباكين، وإنَّما كان بكاؤهم على أنفسهم لا على الميت».

وقال **ثابت البناني**: «كنَّا نشهد الجنازة فلا نرى إلا باكياً».

---

(١) الزهد للبيهقي، ص٢٣٧.
(٢) العاقبة، ص١٥٢.

وقال **إبراهيم النَّخعي**: «كانوا يشهدون الجنازة فيُرىَ فيهم ذلك أياماً. كان فيهم الفكرة في الموت وفي حال الميت»[١].

كلُّ ابن أنثى وإنْ طالت سلامته
يوماً على آلةٍ حدباء محمول[٢]

مع طول سلامتك واغترارك بصحَّتك وعافيتك، ألا تفكَّرت في يومٍ تُحمل فيه إلى القبر؟ إلا حملتك قدماك إلى الخير؟ ألا حملكَ تفكيرك إلى الاستعداد لهذا اليوم الذي ستكون فيه غريباً وأيُّ غريب؟

ليس الغريب غريب الشَّام واليمن
إنَّ الغريب غريب اللحد والكفن

قال **داود بن المحبر** عن أبيه: مَرَّ بنا الربيع بن برَّة، ونحن نسوي نعشاً لميت فقال: من هذا الغريب الذي بين أظهركم؟ قلنا: ليس بغريب، بل هو قريبٌ حبيب. قال: فبكى، وقال: من أغرب من الميت بين الأحياء؟ قال: فبكى القوم جميعاً.

وكان **محمد بن المنكدر** مع **صفوان بن سليم** في جنازة وفيها نفرٌ من العبّاد فلما صُلي عليها، قال **صفوان**: أما هذا فقد انقطعت عنه أعماله، واحتاج إلى دعاء من خلف بعده، قال: فأبكى والله القوم جميعاً[٣].

وما هذه الأيام إلا مراحلٌ
تقرِّب من دار اللقا كل مُبعَدِ

---

(١) العاقبة، ص١٥٣.
(٢) إرشاد العباد، ص٢٤٦.
(٣) السير ٥/ ٣٦٦.

ومـــن ســـار نحـــو الـــدار خمسيـــن حجـــةً
فقـــد حـــان منـــه المُلتقـــى وكـــأن قـــد

قال **أسيد بن حضير**: «ما شهدت جنازة وحدثت نفسي بشيء سوى ما يُفعل بالميت وما هو صائر إليه[١]».

وهذه هي المشاهدة الحقة والاعتبار الصحيح. والعجيب أن هناك من يرى الميت وكأنه جبلٌ من قسوته؛ فلا يهتز له طرف، ولا يتحرك لديه إحساس، ولا تدمع منه عين، وكأن هذا لن يُطَرقَه والنعشَ لن يُحمَله.

وما علم أنَّ الميت من على نعشه ينادي:

مـــا أنـــا وحـــدي نُقلـــت حيـــث تـــرى
كـــلٌّ إلـــى مثقلـــه سينتقـــلُ[٢]

لما مرت **بالحسن البصري** ـ رحمه الله ـ جنازةٌ قال: «يا لها من موعظة ما أبلغها! وأسرع نسيانها، يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياةً». ثم قال: «يا غفلة شاملة للقوم، كأنهم يرونها في النوم؛ ميِّتُ غدٍ يدفن ميِّتَ اليوم»[٣].

وشهد **الحسن بن صالح** ذات يوم جنازة فلما قُرِّب الميت، ليدفن نظر إلى اللحد فأرفض عرقاً، ثم غشي عليه، فحمل على السرير الذي كان عليه الميت فَرُدَّ إلى منزله[٤].

---

(١) العاقبة، ص١٥٣.
(٢) الإحياء ٤/ ٥١٩.
(٣) العاقبة، ص١٥٣.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ١٥٥.

وقال **إبراهيم النخعي**: «كنا إذا حضرنا الجنازة أو سمعنا بميت عُرِفَ فينا أياماً؛ لأنا قد عرفنا أنه قد نزل به أمرٌ صيَّره إلى الجنَّة أو إلى النَّار، وإنكم في جنازتكم تتحدثون بأحاديث الدنيا»[١].

نسير إلى الآجال في كلِّ ساعةٍ
وأيامنا تطوى وهن مراحلُ
ولم نر مثل الموت حقّاً كأنه
إذا ماتخطته الأماني باطلُ
وما أقبح التفريط في زمن الصِّبا
فكيف به والشَّيب في الرأس نازلُ

أخي الحبيب:

ترحَّل عن الدُّنيا بزادٍ من التقى
فَعُمرك أيامٌ تُعد قلائلُ[٢]

كان **أبوهريرة** إذا مر بجنازة قال: «روحي فإنا غادون، أو اغدي فإنا رائحون، موعظة بليغةٌ، وغفلةٌ سريعة، يذهب الأول ويبقى الآخر»[٣].

عن **سويد بن غفلة** قال: «إنَّ الملائكة تمشي أمام الجنازة وتقول: ما قدم؟ ويقول الناس: ما ترك؟».

وقال **العلاء بن محمد البصري**: «شهدت عطاء السلمي خرج في

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢٢٧.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص١٢٩.
(٣) حلية الأولياء ١/ ٣٨٣.

جنازة فغشي عليه أربع مرات حتى صلَّى عليه، كل ذلك يغشى عليه ثم يفيق، فإذا نظر إلى الجنازة خرَّ مغشياً عليه»[١].

وأبصر رجلٌ رجلاً آخر يضحك في جنازة فقال: «تضحك في جنازةٍ! لا أكلِّمك أبداً»[٢].

وتضحك يا بن آدم من مواطن الموت وفي ديار الأموات! أنت يا بن آدم كما قال **الحسن**: ابن آدم بين ثلاثة أشياء: بَلِيَّةٌ نازلة، ونعمة زائلة، ومنية قاتلة»[٣].

وقال: «مات أخ لنا فصلَّينا عليه، فلما وضع في قبره ومُدّ عليه الثَّوب، جاء صلة بن أشيم وأخذ بناحية الثوب، ثم نادى: يا فلان بن فلان.

فإن تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ
وإلا فإنِّي لا أخالك ناجياً

قال: فبكى وأبكى الناس»[٤].

قدِّم لنفسك ما استطعت من التُّقى
إنَّ المنيَّة نازل بك يا فتى
أصبحت ذا مزح كأنَّك لا ترى
أحبابَ قلبك في المقابر والبلى

قال **الحسن البصري** لرجل حضر جنازة: «أتراه لو رجع إلى الدنيا

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٣٢٧.
(٢) الزهد، ص٢٣.
(٣) الحسن البصري، ص٤٤.
(٤) حلية الأولياء ٢/ ٢٤١.

لعمل صالحاً؟ قال: نعم، قال: فإن لم يكن هو فكن أنت».

الموت مُلاقينا مهما انشغلنا أو تناسينا. سيطرق الباب، وسيأخذ الأحباب والأصحاب.

هـو المـوتُ مـا منـه مـلاذٌ ومهـربُ
متـى حُـطَّ ذا عَـنْ نعشـه ذاك يـركَـبُ
نشـاهـد ذا عيـن اليقيـن حقيقـةً
عليـه مضـى طفـلٌ وكهـلٌ وأشيـبُ
ولكـن عـلا الـرَّانُ القلـوبَ كـأنَّنـا
بمـا قـد علمنـاه يقينـاً نكـذِّبُ

أخي، كلُّنا كذلك:

نـؤمِّـل آمـالاً ونـرجـو نتـاجهـا
وعَـلَّ الـرَّدى ممَّـا نـرجيـه أقـربُ
ونبنـي القصـور المشمخـرات فـي الهـوى
وفـي علمنـا أنَّـا نمـوت وتَخـربُ
إلـى الله نشكـو قسـوةً فـي قلـوبنـا
وفـي كـلِّ يـومٍ واعـظُ المـوت ينـدبُ

أبصر **أبو الدرداء** رجلاً في جنازة وهو يقول: جنازةً من هذا؟ فقال أبو الدرداء: هذا أنت هذا أنت، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1] [الزمر: ٣٠].

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ٢٠١.

هديه ﷺ[١]

وكان ﷺ إذا صلَّى على ميِّتٍ، تبعه إلى المقابر ماشياً أمامه. وهذه كانت سنَّة خلفائه الرَّاشدين من بعده، وسنَّ لمن تبعها إن كان راكباً أن يكون وراءها، وإن كان ماشياً أن يكون قريباً منها، إمَّا خلفها، أو أمامها، أو عن يمينها أو عن شمالها. وكان يأمر بالإسراع بها، حتى إن كانوا ليَرملون بها رَملاً.

وكان إذا تبعها لم يجلس حتى تُوضَع وقال: «**إذا تبعتم الجنازة فلا تجلسوا حتى توضع**»[٢].

(١) للاستزادة: انظر زاد المعاد ١/ ٥١٧ وما بعدها.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي سعيد.

الوقفة الرابعة

القبر

القبر

أخي الحبيب:

أما وقد أُدخلت المقبرة محمولاً، وقُربت من الأرض لتُنزل في حفرة ضيقة مظلمة موحشة، أنزلك أقرب أقربائك وأحب أحبابك، وعندها استقررت في لحدك. بسم الله وعلى سنة رسول الله، ووضعت على جنبك الأيمن، وكشف غطاء وجهك، ووضع اللِّبْنُ على لحدك، وبدأ حثو التراب عليك، ثم إذا فرغوا وقف أحدهم وقال: استغفروا لأخيكم، وسَلُوا له التَّثبيت؛ فإنه الآن يُسأل.

قال ﷺ: «**ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه**»(١).

وكان **عثمان** ـ رضي الله عنه ـ إذا وقف على قبر بكى، حتى يُبلل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**»(٢).

فـــإن تنـــج منـــه تنـــج مـــن ذي عظيمـــةٍ
وإلا فـــإنـــي لا أخـــالـــك نـــاجيـــاً

ولما احتضر **نافع** بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ذكرت سعداً وضغطة القبر (أي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**إن للقبر ضغطةً لو كان أحد ناجياً منها نجا سعد بن معاذ**»(٣).

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة.
(٢) الزهد، ص١٨٩. والحديث حسن: أخرجه الترمذي والبيهقي والحاكم عن عثمان.
(٣) السير ٥/ ٩٩. والحديث صحيح: أخرجه أحمد عن عائشة.

وأنـــزلـــونـــي فـــي قبـــرٍ علـــى مهـــلٍ
وأنـــزلـــوا واحـــداً منهـــم يلحـــدنـــي
وكشـــف الثَّـــوب عـــن وجهـــي لينظـــرنـــي
وأسبـــل الـــدَّمـــع مـــن عينيـــه أغـــرقنـــي
فقـــام محتـــدمـــاً بـــالعـــزم مشتمـــلاً
وصَفَّـــف اللبـــن مـــن فـــوقـــي وفـــارقنـــي
وقـــال هُلُّـــوا عليـــه التـــراب واغتنمـــوا
حُســـن الثَّـــواب مـــن الـــرحمـــن ذي المنـــن[1]

لحظات ويتفرَّق من حولك، وتبقى رهين عملك، ويصبح قبرك روضة من رياض الجنة ـ جعلنا الله كذلك ـ أو حفرة من حفر النار ـ والعياذ بالله.

مر فارسي بغلام، فقال: يا غلام، أين العمران؟ اصعد الرَّابية تشرف عليهم، فصعد فأشرف على مقبرة، فقال: إن الغلام لجاهل أو حكيم، فرجع فقال: سألتك عن العمران، فدللتني على مقبرة، فقال الغلام: «لأنِّي رأيت أهل الدنيا ينتقلون إليها ولا يرجعون»[2].

والناس في الدنيا لاَهُونَ في معايشهم، مشغولون بدنياهم، أما صاحب القبر فقد وُسِّد ولحد في التُّراب.

ثـــوى مفـــرداً فـــي لحـــده وتـــوزَّعـــت
مـــواريثـــه أولاده والأصـــاهـــر

---

(١) موارد الظمآن ٣/ ٤٩٢.

(٢) الذراري في ذكر الزراري، لابن العديم، بتصرف، ص٦٢.

وأحنـــوا علـــى أمـــوالـــه يقسمـــونهـــا
فـــلا حـــامـــد منهـــم عليهـــا وشـــاكـــر
فيـــا عـــامـــر الـــدُنيـــا ويـــا ســـاعيـــاً لهـــا
ويـــا آمنـــاً مـــن أن تـــدور الـــدَّوائـــر

انظر لحالي وتأمَّل في مآلي:

أصبحـــت بقعـــر حفـــرتـــي مـــرتهنـــاً
لا أملـــك مـــن دنيـــاي إلا كفنـــا[٢]

أما ـ والله ـ سيأتيك مثل يومي، وسيمر عليك ما مر بي، ألا فاعتبر.

قال **أنس بن مالك**: ألا أحدثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق بمثلهن: أول يوم يجيئك البشير من الله ـ تعالى ـ؛ إما برضاه وإما بسخطه، ويوم تُعرض فيه على ربك آخذاً كتابك؛ إما بيمينك وإما بشمالك، وليلة تستأنف فيها المبيت في القبور ولم تبت فيها قط، وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة[٣].

يـــوم القيـــامـــة لا مـــالٌ ولا ولـــد
وضمَّـــة القبـــر تُنســـي ليلـــة العـــرس

كان **داود الطائي** في دار واسعة خربة، ليس فيها إلا بيت وليس على بيته باب، فقال بعض القوم: «أنت في دار وحشة، فلو اتخذت لبيتك هذا باباً، أما تستوحش؟ فقال: حالت وحشة القبر بيني وبين وحشة الدنيا.

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٢٦.
(٢) شذرات الذهب ٥/ ٢٤٩.
(٣) التذكرة، ص٩٨.

ومشيِّـــــــــداً داراً ليسكـــــــــن داره
سكـــن القبـــور وداره لـــم تسكـــنِ[١]

دخل مالك بن دينار المقابر ذات يوم فإذا رجل يُدفن، فجاء حتى وقف على القبر، فجعل ينظر إلى الرجل وهو يُدفن، فجعل يقول: مالِكٌ غداً هكذا يصير، وليس له شيء يتوسده في قبره، فلم يزل يقول غداً مالِكٌ يصير، حتى خرّ مغشياً عليه في جوف القبر، فحملوه فانطلقوا به إلى منزله مغشياً عليه[٢].

تفكَّـــر فـــي مشيبـــك والمـــآب
ودفنُـــك بعـــد عِـــزِّك فـــي التُّـــراب
إذا وافيـــت قبـــراً أنـــت فيـــه
تقيـــم بـــه إلـــى يـــوم الحســـاب
وفـــي أوصـــال جسمـــك حيـــن تبقـــى
مقطعـــةً ممـــزقـــة الإهـــاب
فطلِّـــق هـــذه الـــدُّنيـــا ثـــلاثـــاً
وبـــادر قبـــل مـــوتـــك بـــالمتـــاب

أخي الحبيب:

نصحتُـــكَ فـــاستمـــعْ قـــولـــي ونصحـــي
فمثلُـــكَ يُـــدلُّ علـــى الصَّـــواب

---

(١) السير ٧/ ١٦٩.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٨٠.

خُلقنـــا للممـــات ولـــو تـــركنـــا
لضـــاق بنـــا الفسيـــح مـــن الـــرحـــاب
يُنـــادى فـــي صبيحـــة كـــلِّ يـــومٍ
لِـــدُوا للمـــوت وابنـــوا للخـــراب[1]

وكان سلفنا الصالح لا يفارقهم التفكير في الآخرة؛ فإن رأوا من نعيم الدنيا دعوا الله نعيم الجنة، وإن رأوا من شدة الدنيا وقسوتها تعوذوا بالله من النار.

كان **هشام بن أبي عبدالله** إذا فقد السراج في بيته تملَّل على فراشه، وكانت امرأته تأتيه بالسراج، فقالت له في ذلك فقال: «إذا فقدت السراج ذكرت ظلمة القبر»[2].

فـــي ظلمـــة القبـــر لا أمٌّ هنـــاك ولا
أبٌ شفيـــقٌ ولا أخ يُـــؤنسُنـــي

وذكر بعض الأفاضل أنه اجتاز جسراً معلقاً مع أحد الدعاة، ولما رأى ارتفاع الجسر وضيقه وظهرت عليه آثار الخوف قال له الداعية: هل تذكرت الصراط ودقته؟

هل منا من اعتبر بتلك الأمور؟ هل منا من وقف على القبر واعتبر وتفكر في المآل؟

خرج **داود الطائي** في جنازة، فقعد ناحية وهي تدفن، فجاء الناس فقعدوا قريباً منه فتكلم فقال: «من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن

---

(١) إرشاد العباد ٤٩.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٣٤٩.

طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آتٍ قريب».

واعلم ـ يا أخي ـ أنَّ كلَّ ما يشغلك عن ربِّك فهو عليك مشئوم، واعلم أن أهل القبور يفرحون بما يقدمون، ويندمون على ما يخلفون، أهل الدنيا يقتتلون ويتنافسون فيما عليه أهل القبور يندمون[١].

هذه المقابر كم حوت؟ وبأجسامهم ماذا فعلت؟ ظاهرها السكون والصمت. قبورٌ متفرقة. أما ماذا بداخلها فاستمع:

إنِّي سألت القبر: ما فَعلت
بعدي وجوه فيك مُنعَفِرة
فأجابني: صيرت ريحهم
تؤذيك، بعد روائح عطرة
وأكلت أجساداً منعمةً
كان النَّعيم يهزُّها نضرة
لم أبقِ غير جماجم عَريَت
بيضٍ تلُوح وأعظم نخرة[٢]

كل امرئٍ يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله، وتنطوي عليها صحيفة عمله، فخذ من نفسك لنفسك، وقس يومك بأمسك، وكف عن سيئاتك، وزد في حسناتك، قبل أن تستوي مدة الأجل، وتقصر عن الزِّيادة في السعي والعمل[٣].

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٣٥.
(٢) أبو العتاهية، ص٢٠٤.
(٣) أدب الدنيا والدين، ص١٢٣.

خرج **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه إلى المقبرة، فلما أشرف عليها قال: يا أهل القبور، أخبرونا عنكم أو نخبركم، أما خبر مَن قبَلنا، فالمال قد اقتسم، والنساء قد تزوجن، والمساكن قد سكنها قومٌ غيركم، ثم قال: أما ـ والله ـ لو استطاعو لقالوا: لم نر زاداً خيراً من التقوى[1].

سألت الدَّار تخبرني
عن الأحباب ما فعلوا
فقالت لي أناخ القو
م أياماً وقد رحلوا
فقلت: فأين أطلبهم
وأيٌّ منازل نزلوا
فقالت بالقبور وقد
لقوا والله ما فعلوا

تمر بنا الأيام سراعاً، وننسى من دفناه من أحبابنا وأقاربنا. كم مرة توقفنا عن الحديث في الدنيا وتحدثنا عن الموت والحساب. كم مرة تفكّرنا في القبر؟

قال **عمر بن عبدالعزيز** لبعض جلسائه: «يا فلان، لقد أرقت البارحة تفكُّراً في القبر وساكنه، إنَّك لو رأيت الميِّت في قبره بعد ثلاثٍ لاستوحشت منه بعد طول الأنس به، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان، مع تغير الريح، وتقطع الأكفان.

---

(١) التذكرة، ص١٣.

وكان ذلك بعد حُسن الهيئة، وطيب الريح، ونقاء الثوب» ثم شهق شهقة ثم خرّ مغشياً عليه[١].

تنبَّـــه قبـــل المـــوت إن كنـــت تعقـــل
فعمَّـــا قليـــل للمقـــابـــر تُنقـــلُ
وتُمســـي رهينـــاً فـــي القبـــور وتنثنـــي
لـــدى جَـــدثٍ تحـــت الثَّـــرى تتجنـــدلُ
فـــريـــداً وحيـــداً فـــي التُّـــراب وإنَّمـــا
قـــريـــن الفتـــى فـــي القبـــر مـــاكـــان يعمـــلُ[٢]

كان عمر بن عتبة ـ رضي الله عنه ـ يخرج كل ليلة إلى المقابر، ويقول: «يا أهل القبور! طويت الصحف، ورفعت الأقلام». ثم يصف قدميه، ويصلِّي إلى الصَّباح.

أتيـــت القبـــور فنـــاديتهـــا
فـــأيـــن المعظَّـــم والمحتقـــر
وأيـــن المـــدل بسلطـــانـــه
وأيـــن العظيـــم إذا مـــا افتخـــر
تنـــادوا جميعـــاً فـــلا مخبـــرٌ
ومـــاتـــوا جميعـــاً وأضحـــوا عبـــر

وقد شيّع عمر بن عبدالعزيز جنازة، فلما انصرفوا تأخَّر عمر وأصحابه ناحية عن الجنازة، فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين، جنازةٌ أنت وليه

---

(١) العاقبة، ص١٩١.
(٢) عقود اللؤلؤ والمرجان، ص٢٩١.

تأخرت عنها وتركتها؟ فقال: نعم، ناداني القبر من خلفي: يا عمر بن عبدالعزيز، ألا تسألني ما صنعت بالأحبَّة؟ قلت: بلى، قال: خرقت الأكفان، ومزقت الأبدان، ومصصت الدَّم، وأكلت اللحم. ألا تسألني ما صنعت بالأوصال؟ قلت: بلى، قال: نزعت الكفين من الذراعين، والذراعين من العضدين، والعضدين من الكتفين، والوركين من الفخذين، والفخذين من الركبتين، والركبتين من الساقين، والساقين من القدمين. ثم بكى عمر، فقال: ألا إن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وشبابها يهرم، وحيّها يموت، فلا يغرَّنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها[1].

ضعـــوا خـــدي علـــى لحـــدي ضعـــوه
ومـــن عفـــر التُّـــراب فـــوسِّـــدوه
وشقُّـــوا عنـــه أكفـــانـــاً رقـــاقـــاً
وفـــي الـــرَّمـــس البعيـــد فغيِّبـــوه
فلـــو أبصـــرتمـــوه إذا تقضَّـــت
صبيحـــة ثـــالـــثٍ أنكـــرتمـــوه
وقـــد ســـالـــت نـــواظـــر مقلتيـــه
علـــى وجنـــاتـــه وانفـــضَّ فـــوه
ونـــاداه البِلـــى: هـــذا فـــلان
هَلمُّـــوا فـــانظـــروا هـــل تعـــرفـــوه

(١) حلية الأولياء ٥/ ١٦١.

حبيبكـــم وجـــاركـــم المفـــدى
تقـــادم عهـــده فنسيتمـــوه[١]

قال بعض الحكماء: «أربعة أبحر لأربعة: الموت بحر الحياة، والنَّفس بحر الشَّهوات، والقبر بحر النَّدامات، وعفو الله بحر الخطيئات[٢].

فنسأل الله العظيم أن يجعل القبر خير بيتٍ نعمره ونسكنه؛ حتى نصير إلى جناتٍ عرضها السَّماوات والأرض في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.

قال **أبو عياش القطان**: «كانت امرأة بالبصرة متعبدة يقال لها مُنيبة، ولها ابنة أشد عبادة منها، فكان الحسن ربما رآها، وتعجَّب من عبادتها على حداثتها، فبينما الحسن ذات يوم جالس إذ أتاه آتٍ، فقال: أما علمت أن الجارية قد نزل بها الموت؟ فوثب الحسن فدخل عليها، فلما نظرت إليه الجارية بكت، فقال لها: يا حبيبتي، ما يبكيك؟ فقالت له: يا أباسعيد، التُّراب يُحثَى على شبابي، ولم أشبع من طاعة ربِّي، يا أبا سعيد، أنظر إلى والدتي وهو تقول لوالدي: احفر لابنتي قبراً واسعاً، وكفِّنها بكفنٍ حسن، والله، لو كنت أُجهز إلى مكَّة لطال بكائي، كيف وأنا أجهز إلى ظلمة القبور ووحشتها وبيت الظُّلمة والدُّود»[٣].

إنَّ الأمـــاكـــن فـــي المعـــاد عـــزيـــزةٌ
فـــاختـــر لنفســـك إن عقلـــت مكـــانَـــا

---

(١) التذكرة، ص١١٤.
(٢) تسلية أهل المصائب، ص١٩٣.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ٢٧.

قال **أبو الدرداء**: «ألا أخبركم بيوم فقري؟ يوم أنزل قبري»[١].

وهذا هو الفقر الأبدي لا فقر الدنيا؛ ففي هذه الحفرة الضَّيقة لا عمل تزيد به الحسنات أو تحط به الخطيئات إلا ماقدمت؛ فاليوم حساب بلا عمل.

شهد **عمر بن ذر** جنازة وحوله الناس، فلما وضع الميت على شفير القبر بكى عمر، ثمَّ قال: «أيها الميت أما أنت فقد قطعت سفر الدنيا، فطوبى لك إن توسدت في قبرك خيراً»[٢].

وكان **الحسن بن صالح** إذا أشرف على القبور قال: «ما أحسن ظواهرك، إنَّما الدواهي في بواطنك»

ياخدُ إنَّك إن توسَّد ليِّنا
وُسِّدْتَ بعد الموت صم الجندلِ
فاعمل لنفسك في حياتك صالحاً
فلتندمنَّ غداً إذا لم تفعلِ

قال بعضهم: كفتك القبور مواعظ الأمم السَّالفة[٣].

مالي وقفت على القبور مسلِّماً
قبر الحبيب فلم يرد جوابي
أجِبْ، مالك لا ترد جوابنا
أنسيت بعدي خلَّة الأحباب

---

(١) العاقبة، ص١٩٠.
(٢) حلية الأولياء ٥/١١٦.
(٣) أدب الدنيا والدين، ص١٣٠.

قال الحبيب: وكيف لي بجوابكم
وأنا رهين جنادلٍ وتراب
أكل التراب محاسني فنسيتكم
وحُجِبتُ عن أهلي وعن أقراني
فعليكم منِّي السَّلام تقطَّعت
منِّي ومنكم خلَّة الأحباب[١]

وبات هرم بن حيان عند حممة صاحب رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال له هرم: يا حممة، ما أبكاك؟ قال: «ذكرت ليلةً صبيحتها تُبعثر القبور، فيخرج من فيها»[٢].

ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته، فوقف على قبره، وبكى ثم قال: «والله ياأخي، لا تقرُّ عيني بعدك حتى أعلم إلى ما صرت إليه، ولا والله أعلم ذلك مادمت حياً»[٣].

سلامٌ على أهل القبور الدوارس
كأنَّهمو لم يجلسوا في المجالس
ولم يبلُغوا من بارد الماء لذَّة
ولم يَطْعموا ما بين رطبٍ ويابس
ولم يك منهم في الحياة منافس
طويل المنى فيها كثير الوساوس

---

(١) ديوان الإمام علي، ص٣٠.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢١٤.
(٣) العاقبة، ص١٥٣.

لقد صرتم في موحش التُّرب والثَّري
وأنتم بها ما بين راج وآيس
فلو عقل المرء المنافس في الذي
تركتم من الدُّنيا إذا لم ينافس[١]

قال **سفيان الثوري**: «من أكثر من ذكر القبر وجده روضةً من رياض الجنَّة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرةً من حفر النَّار[٢].

تزوَّد قريناً من عِمالك إنَّما
قرين الفتى في القبر ماكان يفعلُ
فإنْ كُنت مشغولاً بشيءٍ فلا تكن
بغير الذي يرضى به الله تشغلُ
فلن يصحب الإنسان بعد موته
إلى قبره إلا الذي كان يعملُ
ألا إنَّما الإنسان ضيفٌ لأهله
يقيم عندهم قليلاً ثمَّ يرحلُ[٣]

ووالله، لم نر أحداً لم يرحل. رحل الصَّغير والكبير. من طال بهم العمر، ومن قصر بهم الأجل.

شيَّع **الحسن** جنازة فجلس على شفير القبر، فقال: «إنَّ أمراً هذا آخره لحقيقٌ أن يُزهَد في أوله[٤]، وإنَّ أمراً هذا

---

(١) أبو العتاهية، ص٢٢٤.
(٢) تسلية أهل المصائب، ص١٩٤.
(٣) عقد اللؤلؤ، ص٩٠.
(٤) يعني الدنيا.

أوله[١] لحقيق أن يُخاف آخره»[٢].

وقال **أحمد بن حرب** ـ رحمه الله ـ: «تتعجَّب الأرض ممن يَمْهَدُ مضجعه، ويسوي فراشه للنَّوم، تقول: يا بن آدم، ألا تذكر طول رقادك في جوفي، ومابيني وبينك شيءٌ»[٣]؟

أخي الحبيب:

أيُّ شيءٍ بينك وبين الموت؟! كم من أصبح ولم يمس وكم من أمسى ولم يصبح..

كتب رجلٌ إلى صالح بن عبدالقدوس.

الموت بابٌ وكلُّ النَّاس داخله
فليت شعري بعد الباب ماالدَّارُ

فأجاب بقوله:

الدَّار جنَّةُ عدن إن عملت
بما يرضي الإله وإن فرَّطت فالنَّارُ
هما محلاَّن ما للنَّاس غيرهما
فانظر لنفسك ماذا أنت مُختار[٤]

وكان **مغيث الأسود** يقول: «زوروا القبور كلَّ يوم بفكركم، وتوهَّموا جوامع الخير كلَّ يومٍ في الجنة بعقولكم، وانظروا إلى المنصرف

---

(١) يعني الموت.
(٢) المدهش، ص١٩٠.
(٣) العاقبة، ص١٩٥.
(٤) أدب الدنيا والدين، ص١٣١.

بالفريقين إلى الجنة أو النار بهِمَمكم، وأشعِروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها»[١].

ومن تذكر الموت وانقطاع العمل والتزود من الحسنات فإن ذلك يبعث الهمم ويقوي العزائم. لو أراد الميت تسبيحة واحدة أو تحميدة واحدة لم يستطع. فالبدار البدار.

كان **يزيد الرقاشي** يقول لنفسه: «ويحك يا يزيد. من ذا الذي يصلِّي عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يُرضي ربك بعد الموت؟ ثم يقول: أيُّها النَّاس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ ويا من الموت موعده، والقبر بيته، والثَّرى فراشه، والدُّود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر. كيف يكون حاله؟» ثمَّ يبكي حتى يسقط مغشياً عليه[٢].

أمـــرُّ علـــى المقـــابـــر كـــلَّ حيـــنٍ
ولا أدري بـــــأيِّ الأرض قبـــــري
وأفـــرح بـــالغنـــى إن زاد مـــالـــي
ولا أبكـــي علـــى نقصـــان عمـــري

قال **السري**: «اجعل قبرك خزانتك، احشوها من كلِّ عملٍ يمكنك، فإذا وردت على قبرك سرَّك ما ترى فيه»[٣].

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ١٤٣.
(٢) العاقبة، ص٤٠.
(٣) الزهد للبيهقي، ص٢٢٩.

ولو أجاب الميِّت لقال:

يـــا أيُّهـــا النَّـــاس كـــان لـــي أمـــلٌ
قصَّـــر بـــي عـــن بلـــوغـــه الأجـــلُ
فليتـــــق الله ربَّـــــه رجـــــلٌ
أمكنـــه فـــي حيـــاتـــه العمـــل
مـــا أنـــا وحـــدي نقلـــت حيـــث تـــرى
كـــلٌّ إلـــى مثلـــه سينتقـــل[١]

وقد مرّ **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ بالمقابر فوقف عليها، فقال: «السَّلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبعٌ، وبكم عمَّا قليل لاحقون، اللهمَّ اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنَّا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي في جميع أحواله عن الله ـ تعالى ـ»[٢].

وكان بَدْءُ توبة **داود الطَّائي** أنه دخل المقبرة فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

مقيـــمٌ إلـــى أن يبعـــث الله خلقـــه
لقـــاؤك لا يُـــرجـــى وأنـــت قـــريـــب
تـــزيـــد بِلـــى فـــي كـــلِّ يـــوم وليلـــةٍ
وتُسلـــى كمـــا تُبلـــى وأنـــت حبيـــبُ[٣]

---

(١) مكاشفة القلوب، ص١٣٨.
(٢) العاقبة، ص١٩٦.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٣٢.

أخي الحبيب: أين نحن من سنَّة زيارة المقابر والاتعاظ بما نراه فيها من الأموات الذين أُخذوا بدون علمٍ ودُفنوا بدون ردٍّ؟

قف بالمقابر واذكر إن وقفت بها
لله درُّك ماذا تستر الحفر
ففيهمو لك يا مغرور موعظة
وفيهمو لك يا مغرور معتبر
كانوا ملوكاً تواريهم قصورهم
دهراً فوارتهم من بعدها الحفر(١)

يعجب الإنسان حين يرى البعض وهم في المقابر يتضاحكون، وكأنَّ أديم الأرض لم يَحْوِ رفات الأموات! تراه لاهياً ساهياً، ربَّما تحدَّث طويلاً في كلِّ شيءٍ سوى هذا اللحد وذاك القبر! والميِّت بين يديه! أليست غفلة؟! وأي غفلة من هذا؟! وأين؟ في وسط قبور متراصة وجيرة متباعدين.

روى عن **الحسن البصري** أنه رأى رجلاً يأكل في المقابر، فقال: «هذا منافق؛ الموت بين عينيه، وهو يشتهي الطَّعام»(٢).

لو زرت المقابر ورأيت البنيان حولها لردَّدت:

لكلِّ أناس مقبر بفنائهم
فهم ينقصون والقبور تزيد
هم جيزة الأحياء أما محلهم
فدانٍ وأما الملتقى فبعيد(٣)

---

(١) موارد الظمآن ٢/ ٧٤.
(٢) تنبيه الغافلين ٢/ ٦١٧.
(٣) وفيات الأعيان ٧/ ٢٤.

أخي:

تذكّر إذا بدأ الناس ينصرفون من المقبرة، وقد وُسِّدتَ قبرك، وأدخلت لحدك، عاد الصمت والسكون. رحمك الله وآنس وحشتك.

آنـــــــس اللهُ وحشتـــــــك

رَحِـــــمَ اللهُ وحـــــدتـــــك

أنـــــتَ فـــــي صحبـــــةِ البلـــــى

أحســـــــنَ اللهُ صحبتَـــــــك

* * *

القبر
هديه صلى الله عليه وسلم[١]

وكان من هديه ﷺ ألاَّ يدفن الميت عند طلوع الشمس، ولا عند غروبها، ولا حين يقوم قائم الظهيرة، وكان من هديه اللَّحد وتعميقُ القبر وتوسيعه من عند رأس الميت ورجليه، ويُذكر عنه أنه كان إذا وضع الميِّت في القبر قال: «**بسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله**»[٢].

ويذكر عنه أيضاً أنه كان يحثو التُّراب على قبر الميت إذا دُفن من قِبَلِ رأسه ثلاثاً. وكان إذا فرغ من دفن الميت قام على قبره هو وأصحابه، وسأل له التَّثبيت، وأمرهم أن يسألوا له التَّثبيت.

ولم يكن من هديه ﷺ تعلية القبور ولا بناؤها بآجرٍ، ولا بحجرٍ ولَبِنٍ، ولا تشييدها، ولا تطيينها، ولا بناء القباب عليها.

ونهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً، ولعن زوَّارات القبور.

وكان هديه ﷺ أن لا تُهانَ القبور وتُوطَأ، وألا يُجلس عليها، ويُتَّكأ عليها، ولا تُعظَّم بحيث تتخذ مساجد، فيصلى عندها وإليها، وتتخذ أعياداً وأوثاناً.

---

(١) للاستزادة انظر زاد المعاد ١/ ٥٢١ وما بعدها.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي وأبوداود وابن ماجة عن ابن عمر.

الوقفة الخامسة

التعزية

التعزية

قال ﷺ: «ما من مؤمن يعزِّي أخاه بمصيبةٍ إلا كساه ـ الله سبحانه ـ من حُلَلِ الكرامة يوم القيامة»(١).

بعد الموت جاء المعزُّون زرافاتٍ ووحداناً، امتثالاً لأمر ربِّهم واهتداءً بسنَّة نبيهم ﷺ، جاءوا يعزون أهل الميت، فهو حبيبهم وأنيسهم؛ ولكنَّهم رضوا بقضاء الله وقدره، كيف لا وهم يرغبون فيما عندالله من الأجر العظيم والثواب الجزيل؟: ﴿الَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦ـ١٥٧].

قال **ابن جريج**: «من لم يتعزَّ عند مصيبته بالأجر والاحتساب سلا كما تسلو البهائم».

وعزَّى **الشَّافعي** رجلاً بهذين البيتين:

إنـــي معـــزيـــك لا أرانـــي علـــى ثقـــةٍ
مـــن الخلـــود ولكـــن سُنَّـــة الـــدِّيـــن
فمـــا المُعَـــزَّى ببـــاقٍ بعـــد ميتـــه
ولا المُعـــزِّي ولـــو عـــاشـــا إلـــى حيـــنِ

قال **مشيط بن عجلان**: «النَّاس رجلان، فمتزوِّدٌ من الدُّنيا ومتنعِّمٌ فيها، فانظر أيُّ الرجلين أنت؟ إنِّي أراك تحبُّ طول البقاء في الدنيا فلأيِّ شيءٍ تحبَّه؟ أن تطيع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وتحسن عبادته، وتتقرَّب إليه بأعمال

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجة.

صالحة، فطوبى لك، أم لتأكل، وتشرب، وتلهو، وتلعب، وتجمع الدُّنيا، وتثمرها، وتنعم زوجتك وولدك؟ فلبئس ما أردت له البقاء.

ونحن ـ **يا أخي** ـ كما قال بعض الزُّهاد: «لنا من كلِّ ميت عظةٌ بحاله وعبرةٌ بمآله»[١].

سير المنايا إلى أعمارنا خبب
فما تبين ولا يعتاقها نَصَبُ
كيف النَّجاء وأيديها مُصممة
بذبحنا بمُدى ليست لها نصبُ
وهل يؤمل نيل الشَّمل مُلتئماً
سفر لهم كل يوم رحله عجبُ[٢]

قال **عبيد بن عمير**: «كان لرجل ثلاثةُ أخلاَّء بعضهم أخصُّ له من بعض، فنزلت به نازلةٌ، فلقي أخصَّ الثلاثة به فقال: يا فلان، إنه نزل بي كذا وكذا، وإني أحب أن تُعينني، قال: ما أنا بالذي أفعل، فانطلق إلى الذي يليه في الخاصة، فقال: يا فلان، إنَّه قد نزل بي كذا وكذا، وأنا أحبُّ أن تُعينني، قال: فأنطلق معك حتى تبلغ المكان الذي تريد، فإذا بلغت رجعت وتركتك، قال: فانطلق إلى أبعد الثلاثة، فقال: يا فلان، قد نزل بي كذا وكذا فأنا أحب أن تُعينني، قال: أنا أذهب معك حيث ذهبت، وأدخل معك حيث دخلت، قال: فالأول ماله، خلفه في أهله ولم يتبعه منه شيء، والثاني أهله وعشيرته ذهبوا معه إلى قبره، ثم رجعوا

---

(١) العاقبة، ص٤٣.
(٢) إرشاد العباد، ص٨٢.

وتركوه، والثالث هو عمله وهو معه حيثما ذهب، ويدخل معه حيثمادخل»[١].

النَّفس تبكي على الدُّنيا وقد علمت
أنَّ السَّلامة فيها تَرْكُ ما فيها
لا دار للمرء بعدالموت يسكنها
إلا التي كان قبل الموت بانيها
فإنْ بناها بخيرٍ طاب مسكنها
وإنْ بناها بشرٍّ خاب بانيها
أموالُنا لذوي الميراث نجمعُها
ودورنُا لخراب الدَّهر نبنيها
كم من مدائنٍ في الآفاق قد بُنيت
أمست خراباً ودان الموت دانيها
لكلِّ نفسٍ وإن كانت على وجلٍ
مِنْ المنية آمال تقوِّيها
فالمرء يبسطها والدَّهر يقبضها
والنفس تنشرها والموت يطويها[٢]

وسُئل **أبو حازم**: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصي فكقدوم الآبق على سيده الغضبان.

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٦٩.
(٢) ديوان الإمام علي، ص٢١٠.

أخي الحبيب:

عِـــشْ مـــا بـــدا لـــك ســـالمـــاً
فـــي ظـــل شـــاهقـــة القصـــور
يُسعـــــى عليـــــك بمـــــا اشتهـ
ـيـــت لـــدى الـــرواح وفـــي البكـــور
فـــــإذا النفـــــوس تقعقعـــــت
فـــي ضيـــق حشـــرجـــة الصُّـــدور
فهنـــــاك تعلـــــم مـــــوقنـــــاً
مـــــا كنـــــت إلا فـــــي غـــــرور

كان **حميد الطويل** قائماً يصلِّي فمات، فذكروه لابن عون وجعلوا يذكرون من فضله، فقال: احتاج حميد إلى ماقدَّم[١].

وقال **أبو السور حسان بن حريث** وقرأ هذه الآية: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. قال: هما نشرتان وطيَّة، أما ما حييت يا بن آدم فصحيفتك منشورة فأمل فيها ما شئت، فإذا متَّ طُويتْ، ثم إذا بعثت نشرت ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[٢] [الإسراء: ١٤].

فصحيفة الحي كتابٌ يُدوَّن فيه، حتى إذا انتهى عمره طُويت تلك الصحائف للحساب. فصحفُنا منشورة، ولكن ماذا يدون فيها؟

عن **الحسن** قال: قال رجل لأخيه: أي أخي، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٢.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٣٠.

الضحك إذاً؟ فما رُؤي ضاحكاً حتى مات[١].

وقد أتانا ورود النَّار ضاحية
حقّاً يقيناً ولمَّا يأتينا الصَّدرُ

عجباً لذاكر الموت كيف يلهو؟! ولخائف الفوت كيف يسهو؟! ولمتيقِّن حلول البلى ثم يزهو! وإذا ذكرت له الآخرة مرّ يلغو![٢].

فما لك يوم الحشر سوى الذي تزوَّدته
قبل الممات إلى الحشر
إذا أنتَ لم تزرعْ وأبصرتَ حاصداً
ندمت على التَّفريط في زمن البذرِ

قال **عمر بن عبدالعزيز** لأبي حازم: عظني. فقال: «اضطجع، ثمَّ اجعل الموت عند رأسك ثم انظر ما تحبُّ أن يكون فيك تلك الساعة فجِدَّ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك فَدَعْه الآن».

ووالله لو اضطجعنا وأقمنا الموت عند رؤوسنا لتركنا الكثير من أعمالنا، وأقوالنا، وأفعالنا، ولظهر الاجتهاد في العمل والإخلاص في النيَّات، ولتضاءلت الحياة؛ استعداداً للمات.

عن **ثابت بن مطرف** أنه كان يقول: «ياإخوتاه، اجتهدوا في العمل؛ فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجاتٌ في الجنَّة، وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحاذر لم نقل ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، نقول: قد عملنا فلم ينفعنا ذلك».

---

(١) التذكرة، ص٣٩٠.
(٢) المدهش، ص١٨١.

اعملْ فأنتَ من الدُّنيا على حذرٍ
واعلم بأنَّك بعد الموت مبعوثُ
واعلمْ بأنَّك ما قدَّمت من عمل
محصىً عليك وما جمعت موروثُ[١]

وقال رجلٌ لزهير بن نعيم: ياأبا عبدالرحمن، توصي بشيء؟ قال: «نعم، احذر أن يأخذك الله وأنت على غفلة»[٢].

وهذه هي النصيحة الباقية، والمحبة في الله؛ حثٌّ على الطاعات، وتواصٍ باجتناب المحرمات.

لا أُلفينَّك بعد الموت تندبُني
وفي حَيَاتِي ما زودتنِي زادَا[٣]

قال أبو حازم: «يا بن آدم، بعد الموت يأتيك الخبر»[٤].

وهو خبر لا ينفع فيه الندم، ولا يجدي معه التحسُّر.

وفي البعث بعد الموت نشرُ صحائفٍ
وميزانُ قسطٍ طائشٌ أو مثقَّلُ
ونشرٌ يشيب بطفلٍ من عظم هوله
وفيه الجبالُ الراسياتُ تزلزلُ[٥]

فتوهَّم يا أخي أنَّ الكتب قد تطايرت، والموازين قد نصبت، وقد

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٢٢٦.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٩.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص١٨٧.
(٤) شرح الصدور، ص٢٢.
(٥) عقد اللؤلؤ، ص٧٩.

نوديت باسمك على رؤوس الخلائق: أين فلان ابن فلان[١].

قال **إبراهيم بن أبي عبدة**: بلغني أن المؤمن إذا مات تمنَّى الرجعة إلى الدُّنيا؛ ليس ذلك إلا ليكبِّر تكبيرةً، أو يهلل تهليلةً، أو يسبح تسبيحةً[٢].

والوقت فيه للحيِّ مُتَّسعٌ، ولكن تُترك تلك الدَّقائق النَّفيسة تذهب سُدىً، فإنَّ الزَّمن يمرُّ مرَّ السَّحاب، ويجريْ جري الرِّيح، ومهما طال عمرالإنسان في هذه الحياة الدنيا فهو قصير ما دام الموت هو نهاية كلِّ حيٍّ. ورحم الله الشاعر الذي قال:

وإذا كان آخر العمر موتاً
فسواءٌ قصيره والطويل

وعند الموت تنكمشُ الأعوامُ والعقودُ التي عاشها الإنسان حتى لكأنَّها لحظاتٌ مرَّت كالبرق الخاطف[٣].

نسير إلى الآجال في كلِّ لحظةٍ
وأيامنا تطوى وهن مراحلُ
ولم أر مثل الموتِ حقَّاً كأنَّه
إذا ما تخطته الأماني باطلُ
وما أقبح التفريطَ في زمن الصِّبا
فكيف به والشَّيب للرأس شاعل؟

---

(١) التذكرة، ص٢٩٤.
(٢) شرح الصدور، ص٨.
(٣) الوقت في حياة المسلم، ص٩.

تـرحَّـل مـن الـدُّنيـا بـزادٍ مـن التُّقـى
فعُمـرك أيـامٌ وهـن قـلائـلُ[١]

فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكرٌ ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، أن لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا منه ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا خول إلا حوله، ولا انتظار وتربُّص إلا له، وحقيقٌ بأن يعدّ نفسه من الموتى، ويراها في أصحاب القبور، فإن كل ما هو آتٍ قريب والبعيد ماليس بآتٍ[٢].

أخي الحبيب:

إذا كـان غَيـرُك قـد أجـاب الـدَّاعـي
فكـأنَّنـي بـك قـد نعـاك النَّـاعـي
قـد طـال بـاعـك والمنيَّـة بعـد ذا
ليسـت إذا طـالـت قصيـرة بـاعِ

قال **الأوزاعي**: «من أكثر من ذكر الموت كفاه اليسير، ومن علم أنَّ منطقه من عمله قلَّ كلامه»[٣].

لقـد أخبـرتـك الحـادثـات نـزولهـا
ونـادتـك إلاَّ أنَّ سمعـك ذو وقـر

---

(١) عقد اللؤلؤ، ص٣٥١.
(٢) الإحياء ٤/ ٤٧٥.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ٢٥٨.

تنـــوحُ وتبكـــي لـــلأحبَّـــة إنْ مضـــوا
ونفســـك لا تبكـــي وأنـــت علـــى الأثـــرِ

روى عن بعض السَّلف أنَّ رجلاً جاءه وهو يأكل طعاماً، فقال له: قد مات أخوكَ، فقال: أقعد وكُل، فقد علمت، فقال: من أعلمك وما سبقني أحد؟ قال: قوله ـ تعالى ـ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[١] [آل عمران: ١٨٥].

فإن استطعت ـ **ياأخي** ـ أن تُعدَّ لك كل يوم زاداً لما بين يديك فافعل، فإن الأمر أعجل من ذلك، فتزوَّد يا أخي لنفسك وخذ في جهازك، وكن وصي نفسك، واعلم يا أخي أن الليل والنهار يسرعان في هدم نفسك وفناء عمرك وانقضاء أجلك، فلا تطمئن يا أخي حتى تعلم مسكنك ومصيرك ومستقرك ومنزلك. فانظر لنفسك وأقضِ ما فاتك، واقض ما أنت قاضٍ من أمرك، وكأني بالأمر يأتيك على بغتة. فكأنك بالقيامة وقد قامت، وبالنفس الأمارة وقد لامت، وانفجعت عينٌ طال ما نامت، ونحرت قلوب العصاة وقد هامت[٢].

إنَّ فـــي المـــوت والمعـــاد لشغـــلاً
وادّكـــاراً لـــذي النُّهـــى وبـــلاغَـــاً
فـــاغتنـــم نعمتيـــن قبـــل المنـــايـــا
صحَّـــة الجســـم يـــاأخـــي والفـــراغـــا

كتب بعض الحكماء إلى رجلٍ من إخوانه: «يا أخي، احذر الموت في هذه الدَّار، قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده»[٣].

---

(١) الثبات عند الممات، ص٢٠.
(٢) الزهر الفائح، ص١٠.
(٣) إرشاد العباد، ص١٥.

قيل لبعض السَّلف: طاب الموت، قال: «لا تفعل، السَّاعة تعيش فيها تستغفر الله خير لك من موت الدَّهر».

وقيل لشيخ كبير منهم: تحبُّ الموت؟ قال: لا، قيل: ولِمَ؟ قال: ذهب الشباب وشرُّه، وجاء الكبر وخيره، فإذا قمت قلت باسم الله، وإذا قعدت قلت الحمد لله، فأنا أحبُّ أن يبقى لي هذا.

ونحن ـ ولله الحمد ـ بقي لنا هذا الآن. فكيف استفدنا من أعمارنا وأوقاتنا؟

قال **الفضيل**: «لاتجعل الرِّجال أوصياءك، كيف تلومهم إن ضيَّعوا وصيتك وأنت قد ضيَّعتها في حياتك؟!»[١]

قيل: إن **حسان بن أبي سفيان**، كان لا ينام الليل، ولا يأكل سميناً[٢]، ولا يشرب ماءً بارداً، فلمَّا مات رؤي في المنام، فقيل له: مافعل الله بك؟ فقال: أنا محبوس عن الجنة بإبرةٍ استعرتها فلم أردها لصاحبها[٣].

فانظروا في أعمالكم، وحاسبوا أنفسكم قبل انقضاء أعماركم؛ فإنَّ الموت نهاية العمل وبداية الجزاء، والموت قريبٌ لا تدرون متى نزوله، والحساب دقيق لا تدرون متى حلوله، والشَّيب نذير الموت، فاستعدوا له. فكم من مؤمِّلٍ أملاً لا يدركه، وكم من مصبحٍ في يومٍ لا يدرك غروبه، ومُمْسٍ في ليل لايدرك صباحه.

ولم يغرّنا إلا طول الأمل، ولم يلهنا إلا حبُّ الدُّنيا. فكم نؤمِّل أن

---

(١) السير ٨/ ٤٣٢.

(٢) الزهر الفائح، ص٦٩.

(٣) العاقبة، ص٦٧.

نعيش. نرى أنَّ الموت بعيدٌ، والأمل ينسج خيوط الغفلة والتَّقصير!!

كان **داود الطَّائي** يقول: لو أمَّلتُ أن أعيش شهراً لرأيت أنِّي قد أتيت عظيماً، وكيف آمل ذلك، أنا أرى الفجائع تنزل بالخلائق آناء الليل والنهار.

مـــاذا تـــؤمِّـــل والأيـــام ذاهبـــةٌ
ومِـــن ورائـــك لـــلآمـــال قُطّـــاعُ
وصيحـــةٌ لهجـــوم المـــوت منكـــرةٌ
صُمَّـــتْ لـــوقعتهـــا الشنعـــاء أسمـــاع
وغصَّـــةٌ بكـــؤوسٍ أنـــت شـــاربهـــا
لهـــا بقلبـــك آلامٌ وأوجـــاعُ[1]

فيا أخي:

اعلم أنَّ العاقل يعتمد على عمله، والجاهل يعتمد على أمله[2].

واعلم أن الأمل يكسل عن العمل، ويورث التَّراخي والتَّواني، ويعقب التشغال والقاعس، ويخلد إلى الأرض، ويُميل إلى الهوى.

يـــامـــن يعـــد غـــداً لتـــوبتـــه
أَعَلَـــى يقيـــنٍ مـــن بلـــوغ غـــدِ
المـــرءُ فـــي زلـــلٍ علـــى أمـــلٍ
ومنيـــةُ الإنســـان بـــالـــرَّصـــد

---

(١) العاقبة، ص٦٨.
(٢) العاقبة، ص٦٨.

أيـــام عمـــرك كلُّهـــا عـــدَدٌ
ولعـــل يـــومـــك آخـــر العَـــدد[١]

قال بعض الصالحين: «دخلنا على مغيرة الخراز وهو مريضٌ، فقلنا له: كيف تجدك؟ فقال: أجدني موقراً الآثام، فقلنا له: فما تشتكي؟ قال: الحسرة على طول الغفلة، قلنا: فما تشتهي؟ قال: الإنابة إلى ماعندالله، والنَّقلة عما يكرهه الله، قال: فبكى القوم جميعاً»[٢].

واعلم ـ رحمك الله ـ أن مما يعينك على التَّفكُّر في الموت، ويفرغك له، ويكثر اشتغالك به تذكّر من مضى من إخوانك، وخلانك، وأصحابك، وأقرانك الذين مضوا قبلك، وتقدَّموا أمامك، كانوا يحرصون حرصك، ويسعون سعيك، ويأملون أملك، ويعملون في هذه الدنيا عملك، وقصَّت المنون أعناقهم، وقلعت أعراقهم، وقصمت أصلابهم، فجعت فيهم أهليهم وأحباءهم، فأصبحوا آية للمتوسِّمين وعبرة للمعتبرين[٣].

يا لله مصرعهم، كم فيهم من مجرِّر ذيل إعجابه، متطاول على أصحابه، متعاظم على أقرانه وأترابه، تجمع له الأماني، إن بُصِّر لا يتبصر، وإن أُمِر لا يأتمر، وإن زُجر لا ينزجر، لا يسمع إلا داعي الهوى، ولا يستجيب إلا لمن إليه دعا، يلهو ويفرح، ويمزح ويمرح، ويبيت من دنياه مثل ما كان أصبح، قد أبدأَ في أمره وأعاد، وأحكم فيه فأجاد، وأشاد من أمله ما أشاد، حتى إذا نال مراده أو كاد صاحت به المنية صيحة

(١) المدهش، ص٢٣٢.
(٢) العاقبة، ص١٢٠.
(٣) العاقبة، ص٥٠.

الغضبان، وصدمته صدمة اللهفان، فهدت أركانه، وكسرت أغصانه، وفرقت أنصاره وأعوانه، فأصبح قد باع النفيس بالدون، وأعطى الثمين بالثمون، ومضى يعضّ بنانه المغبون، لم يَرُح بنائل، ولا حصل على طائل. فنعوذ بالله من سوء الأقدار وسيء الاختيار[١].

فِـــرّ مـــن المـــوت أو اثبـــتْ لـــه
لابـــدَّ مـــن أنَّـــك تلقـــاه
واكتـــب بهـــذه الـــدَّار مـــا شئتـــه
فـــإنَّ فـــي تلـــك ستقـــراه[٢]

لَّما حضرت **عبدالله بن علي** الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «أبكي لتفريطي في الأيام الخالية، وقلَّة عملي للجنَّة العالية، وما ينجيني من النَّار الحامية»[٣].

ربَّما ينفعنا البكاء قبل الفوات وقدوم السَّكرات. وأي عيش يهنأ؟ كما قال بعض العلماء: أي عيش يطيب وليس للموت طبيب؟[٤].

لما مرض **الربيع بن خثيم** - رضي الله عنه - قالوا له: ألا ندعو لك طبيباً؟ فتفكَّر وقال: «أين عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونٌ بين ذلك كثيراً؟ قد كانت فيهم الأدواء والأطباء، فلا أرى المداوِي بقى ولا المدَاوَى، كلٌ قد قضى ومضى»[٥].

---

(١) العاقبة، ص٥٢.
(٢) الزهر الفائح، ص٢٧.
(٣) العاقبة، ص١٣١.
(٤) العاقبة، ص٤٣.
(٥) العاقبة، ص١١٩.

يأتي القضاء ولا ينفع الاستشفاء ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾[القيامة: ٢٦ـ٣٠].

أخي المسلم:

وحـــدَّثتـــك الليـــالـــي إنَّ شيمتهـــا
تفـــريـــقُ مـــا جمعَتْـــه فـــاسمـــع الخبـــرَا
وكـــنْ علـــى حـــذرٍ منهـــا فقـــد نصحـــتُ
وانظـــرْ إليهـــا تـــرى الآيـــات والعبـــرَا
فهـــل رأيـــتَ جـــديـــداً لـــم يعـــد خلقـــاً
وهـــل سمعـــت بصفـــوٍ لـــم يعـــد كـــدرَا[1]

أيُّها الحبيب.. اسمع صوت المنادي وهو يستحثُّ خطاك:

أيُّهـــا الـــزائـــرون بعـــد وفـــاتـــي
جـــدثـــاً ضمنـــي ولحـــداً عميقـــاً
ستـــرون الـــذي رأيـــتُ مـــن المـــو
ت عيـــانـــاً وتسلكـــون الطَّـــريقـــا[2]

وقيل إنَّ **الحجاج الزَّاهد** رآه بعض أصحابه في النَّوم، فقال: كيف ترى حالك؟ فقال: الأمر سهلٌ، وما رأيت شيئاً ممَّا كنت أخاف منه ـ والحمد لله ـ.

فنحن نقدم على ربٍّ كريمٍ غفورٍ رحيمٍ، غافر الذنب وقابل التَّوب، لاربَّ لنا سواه، ولا معبود لنا غيره.

---

(١) المدهش، ص١٥٥.
(٢) شذرات الذهب ٤/ ١٢٩.

قال **مالك بن دينار** ـ رضي الله عنه ـ: «رأيت ابن بشار في النَّوم بعد موته بسنةٍ فسلَّمت عليه، فلم يرد عليَّ السَّلام، فقلت له: ماذا لقيت بعد الموت؟ فدمعت عيناه، وقال: لقيتُ أهوالاً وزلازلَ عظاماً شداداً، فقلت: وما كان بعد ذلك؟ فقال: وما يكون من الكريم، قَبِلَ منَّا الحسنات، وعفا عن السيئات، وضمن لنا الدرجات». ثم شهق مالك شهقةً عظيمةً فخَرَّ مغشياً عليه.

ونحن نبكي على الموتى، ونتذكر حالهم أحرى بنا أن نتذكَّر حالنا:

ويبكي على الموتى ويتركُ نفسه
ويزعمُ أنْ قد قلَّ عنهم عزاؤه
ولو كان ذا رأيٍ وعقلٍ وفطنة
لكانَ عليه لا عليهم بكاؤه[١]

أخي الحبيب:

كان **الحسن** يقول: «ابن آدم، إنَّك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك. ابن آدم، لو أنَّ النَّاسَ كلَّهم أطاعوا الله وعصيت أنت لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لم تضرّك معصيتهم. ابن آدم، ذنبك ذنبك، فإنَّما هو لحمك ودمك؛ فإن سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنَّما هي نارٌ لا تُطفأ، وجسمٌ لا يبلى، ونفسٌ لا تموت»[٢].

فتدارك الذَّنب بالتَّوبة فإنَّه كما قال بعضهم: وقوع الذَّنب على القلب

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٢.
(٢) الحسن البصري، ص١٠١.

كوقوع الدِّهن على الثَّوب إن لم تعجل غسله وإلا انبسط[١]

ووالله إنَّ أيام المعزِّين قليلةٌ. وبعد أيامٍ وشهورٍ ينسى الخليل خليله.

إذا انقرضت عنِّي من العيش مدَّتي
فإنَّ عناءَ الباكيات قليلُ
سيعرض عن ذكرى وتنسى مودَّتي
ويحدث بعدي للخيل خليل[٢]

أخي الحبيب:

ألا كلُّ حيٍّ هالكٌ وابن هالكٍ
وذو نسبٍ في الهالكين عريق
فقل لغريب الدَّار إنَّك راحلُ
إلى منزل نائي المحل سحيق
وما تعدمُ الدُّنيا الدَنيَّة أهلها
شواظ نارٍ أو دخان حريق
تجرع فيها هالكاً فقْد هالكٍ
وتشجي فريقاً منهم بفريق
فلا تحسب الدُّنيا إذا ما سكنتها
قراراً فما دنياك غير طريق
إذا امتحن الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفت
له عن عدوٍ في ثياب صديق

---

(١) المدهش، ص٣٥٧.

(٢) ترتيب المدارك ١/ ٣٢٤.

عليـــك بـــدارٍ لا يُـــزال ظـــلالهـــا
ولا يتـــــأذَّى أهلهـــــا بمضيـــــق
فمـــا يبلـــغ الـــرَّاضـــي رضـــاه ببلغـــة
ولا ينفـــع الصَّـــادي صـــداه بـــريـــق

لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربعك، ولا تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم، ولا تَبِتْ وأنت مسرور حتى تعلم عاقبةَ الأمور.

أخي:

إنَّ الموتى لم يبكوا من الموت، ولكنَّهم يبكون من حسرة الفوت، فاتتهم ـ والله ـ دارٌ لم يتزوَّدوا منها، ودخلوا داراً لم يتزودوا لها، فأي ساعة مرّت على من مضى؟ وأي ساعة بقيت علينا؟

أخي:

إن الآمال تُطوى، والأعمار تَفنى، والأبدان تحت التراب تبلى، وإن الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد، يقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، وفي ذلك ما يلهي عن الشهوات، ويسلي عن اللذات، ويرغِّب في الباقيات الصالحات.

أخي:

اعمل ما وجدت سبيلاً للعمل، وما دمْتَ في فسحةٍ وَمَهَلٍ، ومهِّد المضجع، ووطِّىء لذلك المصرع[1].

---

(١) فيض القدير ٦/ ١٨٥.

هديه ﷺ(١)

وكان من هديه ﷺ تعزيةُ أهل الميِّت، ولم يكن من هديه أنْ يجتمع للعزاء، ويُقرأ له القرآن، لا عند قبره ولا غيره، وكلُّ هذا بدعةٌ حادثةٌ مكروهةٌ. وكان من هديه السُّكونُ والرِّضا بقضاء الله، والحمد لله، والاسترجاع، ويبرأ ممن خرَّق لأجل المصيبة ثيابه، أو رفع صوته بالنِّدب والنِّياحة، أو حلق لها شعره.

وكان من هديه ﷺ أنَّ أهل الميت لا يتكلَّفون الطعام للنَّاس، بل أمر أن يصنع الناس لهم طعاماً يُرسلونه إليهم، وهذا من أعظم مكارم الأخلاق والشِّيم، والحملِ عن أهل الميت؛ فإنَّهم في شغل بمصابهم عن إطعام الناس.

وكان من هديه ﷺ تركُ نعي الميت، بل كان ينهى عنه، ويقول: «**هو من عمل الجاهلية**».

أخي الحبيب:

جمعني الله وإياك في دار كرامته، وهوَّن علينا سكرات الموت، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وآنس وحشتنا في القبور، وثبتنا على الصِّراط يوم البعث والنُّشور، وحرَّم وجوه آبائنا وأمهاتنا على النار، وجمعنا معهم في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ.

والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) للاستزادة انظر زاد المعاد ص ٥٢٧.

المصادر

[١] إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

[٢] أدب الدنيا والدين، للماوردي، دار الكتب العلمية.

[٣] إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبدالعزيز السلمان، ص١، ١٤٠٦هـ.

[٤] البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

[٥] بستان الواعظين، للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، حقَّقه عبدالحجار.

[٦] تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، مكتبة الرياض الحديثة.

[٧] تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.

[٨] تاريخ عمر، لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

[٩] التبصرة، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ.

[١٠] تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث.

[١١] التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للإمام القرطبي، دار الرياض، ط٧ ١٤٠هـ.

[١٢] التذكرة في الاستعداد لليوم الآخر، علي صالح الهزاع، ط٢، ١٤٠٧هـ.

[١٣] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض، مكتبة الحياة.

[١٤] تسلية أهل المصائب، الإمام أبي عبدالله محمد بن النبجي، دار الكتب العلمية، ط١ ١٤٠٦هـ.

[١٥] تتنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق، ١٤١٠هـ.

[١٧] الثبات عند الممات، أبي الفرج جمال الدين بن الجوزي، تحقيق عبدالله الأنصاري، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٦هـ.

[١٨] جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥، ١٤٠٠هـ..

[١٩] جنة الرضا في التسليم لما قدَّر الله وقضي، أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق د. صلاح جرار دار البشير، ١٤١٠هـ.

[٢٠] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

[٢١] ديوان الإمام علي، جمعة وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

[٢٢] ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ.

[٢٣] الزراري في ذكر الزراري، لابن العديم.

[٢٤] روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لشمس الدين محمد ابن أبي بكر ابن قيم الجوزي، تحقيق د. السيد جميل، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ.

[٢٥] زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، حققه

شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة مكتبة المنار الإسلامية، ط٢، ١٤٠١هـ.

[٢٦] كتاب الزهد الكبير، للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار القلم، ط٢، ١٤٠٣هـ.

[٢٧] كتاب الزهد، أبي بكر أحمد ابن عمرو بن أبي عاصم، الدار السلفية بالهند، ط٢، ١٤٠٨هـ.

[٢٨] الزهد، للحسن البصري، تحقيق د. محمد عبدالرحيم محمد، دار الحديث.

[٢٩] كتاب الزهد، أبي عبدالله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.

[٣٠] الزهر الفائح في ذكر من تنزَّه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد بن يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.

[٣١] سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.

[٣٢] شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

[٣٣] شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ.

[٣٤] صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

[٣٥] صيد الخاطر، لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ.

[٣٦] طبقات الحنابلة، للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية، وأخرى دار المعرفة، بيروت.

[٣٧] العاقبة في ذكر الموت والآخرة، الإمام أبي محمد عبدالحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى، ط١، ١٤٠٦هـ.

[٣٨] كتاب العزلة، للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، ط١، ١٣٥٦هـ. نشرة عزت العطار.

[٣٩] عقول اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

[٤٠] محاسبة النفس، للحافظ ابن أبي الدنيا، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن.

[٤١] مختصر منهاج القاصدين، الإمام أحمد بن محمد المقدسي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٧، ١٤٠٦هـ.

[٤٢] مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٨هـ.

[٤٣] المدهش لأبي الفرج جمال الدين الجوزي، ضبطه وصحَّحه د. مروان قباني، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٥هـ.

[٤٤] مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا، حققه ونشره جميز أ. بلمي، مكتبة ابن تيمية.

[٤٥] مكاشفة القلوب، لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ.

[٤٦] موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان، ط١٣، ١٤٠٣هـ.

[٤٧] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ.

[٤٨] الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ.

❊ ❊ ❊

والثمن الجنة

المقدمة

الحمد لله الذي وعد من أطاعه جنات عدن تجري من تحتها الأنهار فيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، خير من صلى وصام وعبد الله حتى أتاه اليقين، **وبعد:**

بين يديك - أخي القاريء - الجزء الثاني من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» تحت عنوان «**والثمن الجنة**» الذي يتحدث عن موضوع مهم ألا وهو الصلاة، التي فرط فيها بعض الناس وتهاون بها البعض الآخر.

ونحن في زمن الضعف والتكاسل والتشاغل أحببت ذكر هِمم من كان قبلنا ومسارعتهم لأداء هذه الفريضة العظيمة حتى تكون محيية للقلوب محركة للنفوس مقوية للعزائم.

جعل الله أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

عبدالملك بن محمد بن عبدالحمن القاسم

الصلاة

للصلاة في الإسلام منزلة لا تعدلها منزلة أي عبادة أخرى، فهي عماد الدين الذي لا يقوم إلا به، قال ﷺ: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**»(١).

وهي فريضة دائمة مطلقة، لا تسقط حتى في حال الخوف، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

وهي أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات، وهي أول ما يحاسب عليه العبد، وهي آخر وصية وصى بها رسول الله، ﷺ، أمته عند موته فقال: «**الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»(٢).

وهي آخر ما يُفقد من الدين، فإن ضاعت ضاع الدين كله، قال ﷺ: «**لتُنقضن عُرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عُروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضاً الحُكم وآخرهن الصلاة**»(٣).

وقد ذكرها الله تعالى من الشروط الأساسية للهداية والتقوى فقال ـ تعالى ـ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ١ ـ ٣].

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد وصححه الألباني.
(٢) أخرجه ابن ماجه وأحمد وصححه الألباني.
(٣) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه الألباني.

واستثنى تبارك وتعالى المحافظين على الصلوات من أصحاب الأخلاق الذميمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٣].

وقال ـ عز وجل ـ وهو يحكي عن أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣][1].

وقد توعد الله تارك الصلاة بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤، ٥]، والسهو: هو تركها حتى يخرج وقتها.

وحذر ـ جل وعلا ـ من إضاعة الصلاة وتوعد مضيعها بالعذاب الشديد فقال ـ تعالى ـ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩] والغي: واد في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر جعله الله لمن أضاع الصلاة واتبع الشهوات.

ولقد اهتم المسلمون بهذه الصلوات أيّما اهتمام وحافظوا عليها أشد المحافظة وكان قدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ، كما ذكرت ذلك عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه».

هذا هو قدوتنا ﷺ نسير على طريقه ونقتفي أثره..

إذا نحن أدلجنا وأنت إمامنا
كفى بالمطايا طيبُ ذكراك هادياً[2]

---

(١) معلومات مهمة من الدين ١٧.
(٢) جامع العلوم والحكم ٢٢٩.

وسار السلف الصالح من هذه الأمة على هذا المنهج النبوي الشريف، فهذا **سعيد بن المسيب** من شدة حرصه على الصلاة حافظ على دخول المسجد قبل الأذان لمدة تزيد عن أربعين سنة، قال برد مولى سعيد بن المسيب: ما نودي للصلاة منذ أربعين سنة إلا وسعيد في المسجد[١].

وقال **ربيعة بن يزيد**: «ما أذن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد إلا أن أكون مريضاً أو مسافراً»[٢].

وأرشد ﷺ، للمحافظة على هذا الخير العظيم فقال: «**اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»[٣].

وشهد أهل الخير لأهل الخير فقد قال يحيى بن معين عن يحيى بن سغيد إنه لم يفته الزوال في المسجد أربعين سنة[٤].

أولئك قومٌ قلوبهم معلقة بالمساجد وقد جاءتهم البشائر في قوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**. . .» وذكر منهم: «**رجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه**»[٥].

وقد حث **سفيان بن عيينة** على السير إلى الصلاة حتى قبل النداء فقال: «لا تكن مثل عبد السوء لا يأتي حتى يُدعى، إئت الصلاة قبل النداء»[٦].

وذلك استجابة لقوله ﷺ: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا،**

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٤١، حلية الأولياء ٢/ ١٦٣، صفة الصفوة ٢/ ٨٠.
(٢) السيرة ٥/ ٢٤٠.
(٣) أخرجه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه الألباني.
(٤) السير ٩/ ١٨١، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٢٩، الزهد ص ٥٣٠.
(٥) متفق عليه.
(٦) التبصرة ١/ ١٣٧.

ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» [رواه مسلم].

الحنين إلى الصلاة:

ضرب سلفنا الصالح أروع الأمثلة وأصدق الاستجابة حتى في حالات المرض الشديد، فعندما سمع عامر بن عبدالله، المؤذن وهو يجود بنفسه ومنزله قريب من المسجد قال: «خذوا بيدي، فقيل له: إنك عليل فقال: أسمع داعي الله فلا أجيبه، فأخذوا بيده، فدخل في صلاة المغرب فركع مع الإمام ركعة ثم مات»[(١)].

وهذا فاروق هذه الأمة ـ رضي الله عنه ـ ينتبه بعدما ذُكّر بالصلاة وهو في حالة الإغماء الشديد. فقد ذكر المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ أن **عمر بن الخطاب** لما طُعن جعل يُغمى عليه فقيل: إنكم لن تُفزعوه بشيء مثل الصلاة إن كان به حياة، فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين، قد صليت؟! فانتبه فقال: الصلاة ها الله، فلا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلى وإن جرحُه ليثعبُ دماً[(٢)].

رضي الله عنه وأرضاه، لقد علم الصحابة شدة اهتمامه وحرصه على الصلاة فعلموا أنه إن ذكرت الصلاة على مسمعه وبه حياة فإنه سيُفيق من الإغماءة التي كان فيها. وقد كان ذلك، فلما ذكروا له الصلاة أفاق.

أما في زماننا فلا يحلو للبعض النوم إلا وقت الصلاة، والبعض يسمع

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٣١، السير ٥/ ٢٢٠.

(٢) تاريخ عمر ٢٤٣، الزهد للإمام أحمد ١٨٢.

صوت المنبه للصلاة ولكن لا يستيقظ، وآخرون يوقظون للصلاة ولا يستجيبون ـ وكأنهم إلى الموت أقرب منهم للحياة ـ ولكن لو سمعوا بأن لصاً في الدار أو أن صافرة الإنذار انطلقت، لرأيت سرعة الانتباه وقوة الوثبة.

لا تعرضن لذكرنا في ذكرهم
ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد[١]

أخي المسلم:

سطر **الربيع بن خيثم** موقفاً عظيماً في حياته فها هو بعدما سقط شقه يُهادى بين رجلين إلى مسجد قومه، وكان أصحابه يقولون: يا أبا يزيد لقد رُخص لك، لو صليت في بيتك، فيقول: إنه كما تقولون، ولكني سمعته يُنادى: حي على الفلاح، فمن سمعه منكم ينادى حي على الفلاح فليجبه ولو زحفاً، ولو حبواً[٢].

لقد كان هناك دافعٌ يدفعهم ويستحثهم لتحمل المشاق في سبيل إقامة الصلاة طاعة لله ـ عز وجل ـ، وامتثالاً لأوامره، ورغبة فيما عنده.

فهذا **عدي بن حاتم** يقول: «ما جاء وقت الصلاة إلا وأنا إليها بالأشواق، وما دخل وقت صلاة قط إلا وأنا لها مستعد»[٣].

لقد حرّك الداعي إلى الله وإلى دار السلام النفوس الأبيّة والهمم العالية، فأسمع منادي الإيمان من كانت له أذان واعية. وأسمع الله من كان حيًّا

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٢٦٦.
(٢) حلية الأولياء ٢/ ١١٣.
(٣) الزهد للإمام أحمد ٢٤٩.

فهزه النداء إلى منازل الأبرار وحدا به في طريق سيره فما حطّت به رحاله إلا بدار القرار[١].

أحِـــنُّ اشتيـــاقـــاً للمســـاجـــد لا إلى
قصـــورٍ وفـــرشٍ بـــالطـــرازِ مـــوشـــحُ

وهذا الاهتمام بالصلاة تحول إلى فرح وسرور بدخول وقتها وهو فرح وبهجة بالعطاء العظيم من الله الكريم المنان فهو كما ذكر **أبو بكر بن عبدالله المزني**: «من مثلك يا ابن آدم؟ خُلي بينك وبين الماء والمحراب، متى شئت تطهرت ودخلت على ربك ـ عز وجل ـ ليس بينك وبينه ترجمان ولا حاجب»[٢].

فهذه ولله الحمد من نعمه علينا نقصده متى شئنا فترُفع بالصلاة الدرجات وتحط الخطيئات، فسبحانه ما أكرمه وجل جلاله ما أعظمه.

ولا شك أنه يُتأسف على فوات هذه النعم وضياع الأوقات بدون فائدة ورأس مال المسلم عمره.. أفلا يتأسف على ضياعه؟ قال **أبو رجاء العطاردي**: «ما أنفس علي شيء أخلِّفه بعدي إلا أني كنت أعفر وجهي في كل يوم وليلة خمس مرات لربي ـ عز وجل ـ»[٣].

أخي المسلم:

لقد أعطوا الصلاة حقها وأنزلوها منزلتها، ولذلك كانت عندهم المقياس الأول، كما أكد ذلك **عمر بن الخطاب** بقوله: «إذا رأيت الرجل

---

(١) رهبان الليل.٣٩.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٦.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٠٦.

يضيع من الصلاة فهو والله لغيرها أشد تضييعاً»[١].

وسار على هذا المنهج **أبو العالية** فقال: «كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفقد من أمره صلاته، فإن وجدته يُقيمها ويُتمها أقمت وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه وقلت: هو لغير الصلاة أضيع».

وامتداداً لهذا التواصل الخيِّر امتد هذا الحرص ليصل إلى أطفالهم امتثالاً لقوله، ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع**»[٢].

فكان **زيد الأيامي** يقول للصبيان: «تعالوا فصلوا أهب لكم الجوز، فكانوا يجيئون ويصلون ثم يحوطون حوله، فقيل له: ما تصنع بهذا؟ قال: وماعلي، أشتري لهم جوزاً بخمسة دراهم ويتعودون على الصلاة»[٣].

والكثير الآن اهتم بتربية أبنائه تربية دنيوية بحتة، فحرص على المأكل والمشرب وتوفير وسائل الترفيه واللهو ولكنه ترك المهمة الأولى والمسئولية الكبرى للآباء ألا وهي تربية أبنائهم التربية الإسلامية الصحيحة وتعويدهم على الصلاة وتفقدهم حال غيابهم عنها والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

الصلاة مع الجماعة:

أوجب الله ـ سبحانه وتعالى ـ أداء الصلاة المفروضة مع الجماعة فقال تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة: ٤٣]. وداوم عليها ﷺ، وأصحابه

---

(١) تاريخ عمر ٢٠٤.

(٢) أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم وحسنه الألباني.

(٣) حلية الأولياء ٥/ ٣١.

مداومة شديدة حتى كأنها جزء من الصلاة، ولم يتركها ﷺ في السلم ولا في الحرب، ولا في مرضه الذي مات فيه.

وفي مساجدنا اليوم اختفى هذا الأمر ولم يحرص الجميع على أدائها مع الجماعة، فإننا نرى حضور المصلين لصلاة الجمعة وامتلاء المساجد بهم، ثم لا نراهم في الصلوات الخمس، أيحسبون أنهم لا يُحاسبون على هذا التقصير والتهاون؟ أم بأي عذر سقطت عنهم صلاة الجماعة حتى يتخلفوا عنها لا سيما وهم يسمعون ذلك النداء الذي يرتفع على المسامع خمس مرات كل يوم.

أخي الحبيب:

لكَمْ نَحمد الله على ذلك، فكم من مسلم في بلاد الكفار يُحرم من سماع هذا النداء، وكم من ميت لم يعد يجب نداء التوحيد، وكم من مريض يحنُّ إلى تلبية الدعوة ويحول بينه وبينها المرض. فإن لنداء التوحيد رنة في الأذن وفرحةً في القلب.. كيف لا، وهي دعوة من الله جل وعلا للسير في ركب الصالحين الراكعين الساجدين.

ولهذا كان **أبو عمران الجزني** إذا سمع الأذان تغير لونه وفاضت عيناه.

وقبله كان سيد المرسلين كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ «**كان رسول الله ﷺ، يحادثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه**» صلوات ربي وسلامه عليه.

وكان **علي بن الحسن** ـ رحمه الله ـ إذا توضأ يصفّر لونه فيقول له أهله: ماهذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول: تدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟![1].

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٩٣.

وحين استيقظ **سليمان بن الأعمش** من النوم لحاجة فلم يُصب ماء، وضع يده على الجدار فتيمم، ثم نام، فقيل له في ذلك قال: أخاف أن أموت على غير وضوء[١].

وذلك امتثالاً لقول الرسول ﷺ: «**واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»[٢].

ليس الطريق سوى طريق محمد
فهي الصراط المستقيم لمن سلك
من يمشي في طرقاته فقد اهتدى
سبل الرشاد ومن يزغ عنها هلك[٣]

* توضأ **منصور بن زاذان** يوماً فلما فرغ دمعت عيناه ثم جعل يبكي حتى ارتفع صوته فقيل له: رحمك الله ما شأنك؟ فقال: «وأي شيء أعظم من شأني أريد أن أقوم بين يدي من لا تأخذه سنة ولا نوم، فلعله أن يُعرض عني»[٤].

وماذاك إلا لصلاح قلوبهم وصفاء سرائرهم. فعندما قيل **ليزيد بن عبدالله**: ألا نسقف مسجدنا؟ قال: «أصلحوا قلوبكم يكفيكم مسجدكم»[٥].

فإن من صلح قلبه وأخلص نيته لم ينظر إلى سقفٍ ولا إلى نقش بل اهتم

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٤٩.
(٢) أخرجه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه الألباني.
(٣) ذيل تذكرة الحفاظ ١٧٥.
(٤) صفة الصفوة ٢/ ١٢.
(٥) حلية الأولياء ٢/ ٣١٢.

بصلاته وتأديتها على الوجه الأكمل رجاء قبولها.

وهذا **عدي بن حاتم** ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء[١].

وتلبية النداء في حياتهم تتم بصورة عملية لا تراخٍ فيها ولا تكاسل، فهو نداء يعني لهم التوجه إلى المسجد وترك مافي أيديهم من أعمال الدنيا.

لنرى **إبراهيم بن ميمون** المروزي ومهنته الصياغة وطرق الذهب والفضة، كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردها.

إنهم رجال تفرغوا لتلبية هذا النداء طاعة لرب العالمين وامتثالاً لأمر سيد المرسلين، تركوا الدنيا جانباً وقاموا عن أعمالهم متجهين إلى الله ـ جل وعلا ـ.

أخي المسلم:

صلاة المرء في أخراه ذخرٌ
وأول ما يحاسبُ بالصلاة
فإن يمت فطوبى ثم طوبى
له الفوز فيها بالصلاة
وإلا النار مثواه وتبًّا
له تبًّا بعد الممات

وكانوا من شدة الحرص على الصلاة وعلى الطاعات نراهم يتسابقون إلى المساجد حال النداء فهو كما قال الشاعر:

تراه يمشي في الناس خائفاً وجلاً
إلى المساجد هوناً بين أطمارِ

---

(١) السير ٣/ ١٦٠.

وحالنا اليوم خلاف ذلك، ونرى البون الشاسع والفارق الكبير بين عُبَّاد الأمس ورجال اليوم، فهناك الكثير اليوم ممن لم يدخل المسجد قبل الأذان أو معه، بل إن البعض قد يموت وهو لم يدخل المسجد بل قد يُدخل به للصلاة عليه مع أنه لا تجوز الصلاة على من لا يصلي.

وهذا الاهتمام بأمر الصلاة الذي نراه في واقع حياتهم من حضورهم إلى المساجد مبكرين ومحافظتهم على الصف الأول نراه استجابة لقوله ﷺ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لا يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه**»(١).

وحافظ على هذا الخير الكثير من سلف الأمة. فكان **بشر بن الحسن** يقال له (الصفّي) لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة.

وانقلبت الأمور وتغيرت المفاهيم وندر من يحافظ على هذا الواجب العظيم والخير العميم.

أما عن الحرص على حضور التكبيرة الأولى مع الإمام التي لا يدركها الكثير من الناس اليوم فحدث ولا حرج.

قال **سعيد بن المسيب**: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة(٢).

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

هو مطلب يستحق المنافسة، وهو أفق يستحق السباق، وهو غاية تستحق الغلاب.

---

(١) متفق عليه.

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٥ وحلية الأولياء ٢/ ١٦٣.

والذين يتنافسون على شيء من أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم، إنما يتنافسون في حقير قليل فانٍ قريب، الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولكن الآخرة ثقيلة في ميزانه فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة[١].

بقي **سليمان بن مهران** سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى[٢]. رحمنا الله برحمته، فالبعض قد لا يدرك التكبيرة الأولى في السنة كاملة إلا مرة أو مرتين. . وانظر إلي الصفوف بعد انتهاء الإمام من الصلاة ترى أن من أدرك الصلاة كاملة هم القلة القليلة.

أين نحن من هؤلاء؟

هذا **أسيد بن جعفر** يقول: ما رأيت عمي **بشر بن منصور** فاتته التكبيرة الأولى ولا رأيته قام في مسجدنا سائل قط إلا أعطاه[٣].

وقال **وكيع بن الجراح**: كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى[٤].

بل إن بعضهم ـ رحمهم الله ـ لم تفته التكبيرة الأولى مع الإمام إلا في يومٍ واحدٍ منذ أربعين سنة ولعذر.

فقد قال **ابن سماعة**: مكثت أربعين سنة لم تفتني التكبيرة الأولى إلا يوم ماتت أمي[٥].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٣٨٦٠.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٤.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ٣٧٦.
(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٤ والسير ٦/ ٢٢٨ وصفة الصفوة ٣/ ١١٧.
(٥) السير ١٠/ ٦٤٦.

وإذا كان هذا ما عرفناه من اهتمامهم بالصلاة وبتكبيرة الإحرام خصوصاً، فلا غرابة إذا قال **إبراهيم النخعي**: إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبيرة الأولى فاغسل يديك منه[١].

وهذا **إبراهيم التيمي** يؤكد هذا الاهتمام وأنه عنوان صاحبه بقوله: «إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يديك منه»[٢]

وقد أدرك السلف ـ رحمهم الله ـ ذلك فاهتموا بالتبكير إلى الصلاة فقال **سفيان بن عيينة**: إن من توقير الصلاة أن تأتي قبل الإقامة[٣].

هذا هو شدة حرصهم واهتمامهم ما بالك إذا فاتتهم الصلاة في الجماعة مع شدة عنايتهم بها واستعدادهم لها.

قال قاضي الشام **سليمان بن حمزة المقدسي**: «لم أصل الفريضة منفرداً إلا مرتين، وكأني لم أصلهما قط، مع أنه قارب التسعين»(*).

وكانوا يتألمون لفوات هذاالخير العظيم والأجر الجزيل.

قال **محمد بن المبارك الصوري**: كان **سعيد بن عبدالعزيز** إذا فاتته صلاة الجماعة بكى[٤].

ولم تكن صلاة الجماعة تعدل عندهم شيئاً من أمور الدنيا التي أصبحنا نلهث وراءها وربما نؤخر الصلاة من أجلها، فقد أتى **ميمون بن مهران**

---

(١) السير ٥/ ٦٥ وصفة الصفوة ٣/ ٨٨.

(٢) السير ٥/ ٦٢.

(٣) صفة الصفوة ٢/ ٢٣٥.

(*) حدثني أحد المشائخ الفضلاء.. إنه لم تفته صلاة الجماعة إلا مرة واحدة عندما كان عمره تسع سنوات وأضاف كأني لم أصلها مطلقاً.

(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ٢١٩.

المسجد فقيل له: إن الناس قد انصرفوا فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، لفضل هذه الصلاة أحب إلي من ولاية العراق»[١].

والبعض منا يَفوتْ صلاة الجماعة لأمر بسيط وشُغلٍ قليل من أمور الدنيا لا يعدل شيئاً يذكر، فما بالك بولاية العراق؟!!

وقومٌ أمرهم كذلك لابد أن هناك نوعاً من التأثر على فوات الجماعة فهذا ابن عمر إذا فاتته العشاء في جماعة، أحيا بقية ليلته.

اغتنم في الفراغ فضل ركوع
فعسى أن يكون موتُك بغتة
كم صحيح رأيت من غير سقمِ
ذهبت نفسُه الصحيحة فلته

أخي الحبيب:

صلاة الجماعة عند هؤلاء الأخيار لها منزلة عظيمة وفقدها كفقد عزيز لديهم؛ لعظم أمرها ولمعرفتهم بحقيقتها وهو كما جرى لحاتم الأصم عندما قال: «فاتتني الصلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف، لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدين دنيا»[٢].

وهذا من درر الكلام ونفيسه: فما أكثر ما نرى من المعزين بفقد عزيز وذهاب قريب، ولكننا لا نرى من يعزي في فقد جانب من جوانب الدين، فاللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا.

---

(١) مكاشفة القلوب ٣٦٤.
(٢) مكاشفة القلوب ٣٦٤.

قال **يونس بن عبدالله**: «ما لي تضيع لي الدجاجة فأجد لها وتفوتني الصلاة فلا أجد لها»[١].

كم لدينا ممن يغتمون بهموم العمل وزيادة المراتب، ومتى يحين موعد الترقية، ويسهرون الليالي وربما تطاول بهم الهم لا ينامون إلا قليلاً، وفي النهار يتعبون ويجرون هنا وهناك بهمة ونشاط ويحسبون حساباً لكل شاردة وواردة من أمر الدنيا، وتفوتهم الصلاة مع الجماعة وهم لا يألمون ولا يتألمون، وقد يتعذر البعض بكثرة المشاغل ومتطلبات الحياة وأمور الدنيا.

أخي الحبيب:

وأنت تهب من فراشك مسرعاً، تركت لذة النوم ولين الفراش.. تردد مع المؤذن ما يقول ثم تسير إلى صلاة الفجر بخطوات مطمئنة.. في بردٍ قارس وظلامٍ دامس.

لا حرمك الله الأجر وكتب خطواتك.. ألا فأبشر بخير عظيم بشرك به نبي هذه الأمة ﷺ بقوله: «**بشروا المشائين في الظُلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**» [رواه أبو داود والترمذي].

لا يغلبنك الشيطان ولا تتردد في القيام.. سر إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر..

بلغك الله ما قصدت وجعل الجنة مثواك..

أخي المسلم:

لنرى كيف كان اهتمام السلف الصالح بالطاعات والعبادات رغم

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٩ و صفة الصفوة ٣/ ٣٠٧.

الأعباء التي يحملونها، فهذا القاضي **أبو يوسف** يصلي بعد ما ولي القضاء في كل يوم مائتي ركعة[١].

بل إن خليفة المسلمين **هارون الرشيد** بعد أن تولى الخلافة يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن يعرض له علة[٢].

وكان للمسجد عندهم اهتمام خاص لكونه مكاناً للعبادة فعندما رأى **عطاء بن يسار** رجلاً يبيع في المسجد دعاه فقال له: هذه سوق الآخرة فإن أردت الدنيا فأخرج إلى سوق الدنيا.

ونتمثل بقول الشاعر حين نرى التهاون والتكاسل:

أيـــا عجبـــاً كيـــف يُعصـــى الإلـ
ـــه أم كيـــف يجحـــده جـــاحـــدُ
ولله في كـــل تحـــريكـــة
وفي كـــل تسكينـــة شـــاهـــدُ
وفي كـــل شيء لـــه آيـــة
تـــدلُّ على أنـــه واحـــدُ[٣]

* * *

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٩٣.
(٢) تاريخ بغداد ١٤/ ٦.
(٣) تاريخ بغداد ٦/ ٢٥٣.

الوقوف بين يدي الله..

كان من تمام محافظتهم على الصلاة القيام بأركانها وواجباتها وسننها ومُستحباتها على الوجه الأكمل. بخشوع وخضوع لله ـ عز وجل ـ وحضور قلب وتدبر وقد مدحهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ٢].

وقال ﷺ: «**إن الرجل لينصرف ما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»(١).

وقد قال **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ على المنبر: «إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يُتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله ـ عز وجل ـ فيها»(٢).

هذا قول عمر بن الخطاب في صدر الإسلام، ماذا عن واقعنا نحن اليوم، والكثير ـ إلا من رحم ربي ـ تذهب به أحوال الدنيا كل مذهب، فهو يصلي ببدنه ولكنه يذهب بفكره إلى الدنيا وأسواقها؛ يبيع ويشتري، ويزيد ويُنقص.. وماذاك إلا من الغفلة.

قال الحسن: سمعهم «**عامر بن عبد قيس**» وما يذكرون من ذكر الضيعة في الصلاة، قال: تجدونه، قالوا: نعم، قال: والله لئن تختلف الأسنَّةُ في جوفي أحبُّ إليَّ أن يكون هذا في صلاتي»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود وأحمد وحسنه الألباني.
(٢) الإحياء ١٠/ ٢٠٢.
(٣) الزهد للإمام أحمد ٣٢١.

وهذا ـ والله ـ واقع من عرف الله حق معرفته وأدى الصلاة كما يجب ولهذا قال **حماد بن سلمة**: «ما قمت إلى صلاة إلا مُثلت لي جهنم»[١].

كيف يا أخي الحبيب ـ ترى صلاة من يخشى الوقوع في نار جهنم؟ إنها صلاة خوف من عذاب الله ورجاء لما عنده، وهي صلاة مودع لما في الدنيا راجٍ بعمله الدار الآخرة ومافيها.. وعليك بوصية **معاذ بن جبل** لابنه: «يابني إذا صليت صلِّ صلاة مودع، لا تظن أنك تعود إليها أبداً، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنة قدمها وحسنة أخرها»[٢].

فلو وقف كل مناد في صلاته هذا الموقف واستشعر هذا الأمر لأتمها كما يجب طاعة لله ـ عز وجل ـ.

يـــامـــن لـــه تعنـــو الـــوجـــوه وتخشـــع
ولأمـــره كـــل الخـــلائـــق تخضـــع
أعنـــو إليـــك بجبهـــة لم أحنهـــا
إلا لـــوجهـــك ســـاجـــداً أتضرعُ[٣]

وهذه وصية **بكر المزني** تنادي بالحرص على الصلاة وإتمامها على وجهها الصحيح إذ قال: «إذا أردت أن تنفعك صلاتك، فقل: لا أصلي غيرها»[٤].

ولو سرنا على هذا الأمر لتبدل خالنا ولصلح أمرنا ولاستقامت صلاتنا، فإن الصلاة زاد المسلم في رحلته من الدنيا إلى الدار الآخرة وأول ما يُسأل عنه في قبره.

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٢١٩ وشذرات الذهب١/ ٢٦٣.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٤٩٦.
(٣) ديوان يوسف القرضاوي ص ٣٢.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٦.

قال **سفيان الثوري**: «لو رأيت **منصور بن المعتمر** يصلي لقلت يموت الساعة»[١].

وما ذاك إلا من شدة المحافظة عليها وتأديتها على أكمل وجه، ومن كان هذا دأبه في كل صلواته فلابد أن تكون له صلاة لا يصلي بعدها أبداً ويختم له إن شاء الله بخير كما ذكر ذلك **عبدالله بن مسعود**: «مادمت في صلاة فأنت تقرع باب الملك، ومن يقرع باب الملك يُفتح له»[٢].

فإن الله أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين لمن أطاعه واستجاب لأوامره واجتنب نواهيه.

قال شبرمة: «صحبنا **كرزا الحارثي** فكنا إذا نزلنا إلى الأرض فإنما هو قائل ببصره هكذا ينظر، فإذا رأى بقعة تعجبه ذهب فصلى فيها حتى يرتحل»[٣].

لأن قلبه معلق بالطاعات مغتنم للساعات، وقته كله عبادةٌ وجد.. وهل في عمر الإنسان وقتٌ للهو والعبث وعمره سنوات معدودة وأنفاس محسوبة:

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله
إذا كنت فارغاً مستريحاً
وإذا ماهممت بالنطق بالباطل
فاجعل مكانة تسبيحاً
فاغتنام السكوت أفضل من
خوضٍ وإن كنت بالكلام فصيحاً

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١١٤.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٤١٥.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٢٠.

والأيام المحسوبة واللحظات المعدودة استثمروها في الطاعات وعملوا فيها بجد وحزم رغبة فيما عند الله من النعيم المقيم، فحياتهم كلها عبادة وطاعة وصلاح وتقوى وقد قيل **لعامر بن عبدالله** هل تحدثك نفسك في الصلاة بشيء..؟

قال: «نعم، بوقوفي بين يدي الله ـ عز وجل ـ ومنصرفي إحدى الدارين»[1].

وانظر إلى حالنا اليوم بم تحدثنا أنفسنا في الصلاة؟

بل إن الخواطر والهواجس تتدافع لكثرتها في الصلاة، فلربما استمرت تلك الأفكار طوال الصلاة، وكأن الصلاة متنفس لإطلاق عنان الأفكار والهواجس، فالبيع يزيد في الصلاة والشراء كذلك، وحساب الأرباح والخسائر يعاود مع كل صلاة.. بل إن البعض يسافر ويعود وهو يقف أمام الله ـ عز وجل ـ ولو كان هذا الوقوف بين يدي مسئول لوجدت قوة التركيز وشدة الإنصات، فلا تفوته كلمة ولا تغيب عنه شاردة ولا واردة. أما في الصلاة فلا يوجد من يؤديها على وجهاالصحيح بدون وساوس وخواطر إلا من رحم ربي وقليلٌ ما هم.

أخي:

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همُه إلا الله وحده تحمّل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمَه، وفرَّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدنيا همه، حمَّله الله همومها وغمومها، وأنكادها ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق،

---

(١) الإحياء ١/ ٢٠٢.

ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره[١].

قال أبو عبدالرحمن الأيدي: قلت لسعيد بن عبدالعزيز: «ماهذا البكاء الذي يعرض لك في الصلاة؟ فقال: ياابن أخي، وما سؤالك عن ذلك؟ قلت: لعل الله أن ينفعني به، فقال: ماقمت إلى صلاة إلا مثلت لي جهنم»[٢].

ولهذا كان عاصم بن أبي النجود إذا صلى ينتصب كأنه عود، وكان يكون يوم الجمعة في المسجد إلى العصر، وكان عابداً خيراً، يصلي أبداً، ربما أتى حاجة، فإذا رأى المسجد قال: مُل بنا، فإن حاجتنا لا تفوت، ثم يدخل فيصلي.

ومات رحمه الله ـ ونحن رحمنا الله ـ لا نزال..

نـــروح ونغـــدو لحـــاجـــاتنـــا
وحـــاجـــة مـــن عـــاش لا تنقضي
تمـــوت مـــع المـــرء حـــاجـــاتـــه
وتبقـــى لـــه حـــاجـــة مـــا بقـــي

حتى يدركه الموت ويأتيه الأجل وهو يلهث وراء الدنيا ويجري خلف الحطام منها ولا يبقى له إلا ما قدم من العمل الصالح..

قال القاسم بن محمد: «غدوت يوماً، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة ـ رضي الله عنها ـ أُسلم عليها، فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلي الضحى

---

(١) الفوائد ١١٠.
(٢) السير ٥/٢٥٩.

وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٧]. وتبكي وتدعو وتردد الآية فقمت حتى ملكت وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع، ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو»[١].

سنة الضحى:

وسنة الضحى هذه غفل عنها أكثر الناس اليوم.. فلا يؤديها إلا القليل. والنبي ﷺ، أوصى أبا هريرة كما في الحديث: «**أوصاني خليلي رسول الله، ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام**»[٢].

واليوم نرى حتى من يحافظ على صلاة الفجر لا يذكر الله إلا قليلاً في هذا الوقت الطويل من صلاة الفجر إلى صلاة الظهر.. وهي ساعات طويلة ولحظات غالية نفيسة ربما كانت فيها الغفلة عن الآخرة بذكر الدنيا والتشاغل بها.

يؤمل دنيا لتبقى له
فوافي المنية دون الأمل
حثيثاً يروي أصول الفسيل(*)
فعاش الفسيل ومات الرجل[٣]

---

(١) الإحياء ٤/٤٣٦.
(٢) متفق عليه.
(*) الفسيل ـ النخلة الصغيرة.
(٣) تاريخ بغداد ١٢/٣١٨.

خشوع السلف:

حب الصلاة والمسارعة إليها وأداؤها على أكمل الوجوه وإتمامها ظاهراً وباطناً، هي الآية على قدر ما في القلب من حب الله والشوق إلى لقائه والإعراض عنها والتكاسل والتباطؤ عن تلبية داعيها والتكاسل في القيام إليها أو أداؤها منفردة في غير المسجد مع جماعة المسلمين من غير عذر، آية فراغ القلب حقاً من حب الله والزهد فيما عنده.

ولنرى حال السلف في الصلاة وخشوعهم.

فعن ميمون بن حيان قال: «ما رأيت **مسلم بن يسار** متلفتاً في صلاته قط خفيفة ولا طويلة، ولقد انهدمت ناحية المسجد ففزع أهل السوق لهدته وإنه في المسجد في صلاته فما التفت»[١].

وعندما سُئل **خلف بن أيوب**: «ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطردها قال: لا أُعود نفسي شيئاً يفسد علي صلاتي، قيل له: وكيف تصبر على ذلك؟ قال: بلغني أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان فيقال: فلان صبور ويفتخرون بذلك، فأنا قائم بين يدي ربي أفأتحرك لذباب!!»[٢].

وكان **ابن الزبير** إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع..

---

(١) الزهد للإمام أحمد ص ٣٥٩.

(٢) الإحياء ١/ ١٧٩.

وكان **أبو حنيفة** يُسمى الوتد لكثرة صلاته[١].

وعن مداومتهم على العبادة وكثرة صلاتهم ما قاله عبيد الله بن سليمان حفيد **أبي عبيد الله الوزير**: أبلى جدنا سجادتين(*) وشرع في ثالثة وأبلى موضع ركبتيه ووجه ويديه من كثرة صلاته ـ رحمه الله ـ وكان له كل يوم كر(*) دقيق يتصدق به، فلما وقع الغلاء، تصدق بكرين.

ولم يكن يشغلهم عن الصلاة شاغل، ولم يكن بينهم وبين الله حائل، فالانتباه مقتصٌر على الصلاة والخشوع لله.

فقد صلى **أبو عبدالله النباحي** يوماً بأهل طرسوس، فصيح النفير، فلم يخفف لصلاة، فلما فرغوا قالوا: أنت جاسوس، قال: ولم؟ قالوا: صيح بالنفير وأنت في الصلاة فلم تخفف. قال: ماحسبت أن أحداً يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطبه به الله ـ عز وجل ـ[٢].

وهم كما قال عنهم العلامة ابن رجب في كتابه لطائف المعارف: «لـمَّا سمع القوم قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] وقوله: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] فهموا أن المراد من ذلك أن يجتهد كل واحد منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة، والمسارع إلى بلوغ هذه الدرجة العالية، فكان أحدهم إذا رأى من يعمل عملاً يعجز عنه خشي أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له فيحزن لفوات سبقه، فكان تنافسهم في درجات الآخرة

---

(١) السير ٦/ ٤٠٠.

(*) أعرف عابداً توفي قبل سنوات جرى له قريباً من ذلك.

(*) الكر: يشبع خمسة آلاف إنسان.

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٢٧٩.

واستباقهم إليها، ثم جاء من بعدهم قوم فعكسوا الأمر فصار تنافسهم في الدنيا الدنيئة وحظوظها الفانية».

هذا أبو طلحة ـ رضي الله عنه ـ: صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبسٌ طار في الشجر يلتمس مخرجاً، فأتبعه بصره ساعة، ثم لم يدر كم صلى؟

فذكر لرسول الله ﷺ، ما أصابه من الفتنة، ثم قال يا رسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت[١].

وصلى رجلٌ في حائط له والنخل مطوقه بثمرها، فنظر إليها فأعجبته ولم يدر كم صلى، فذكر ذلك لعثمان ـ رضي الله عنه ـ وقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الله ـ عز وجل ـ فباعه عثمان بخمسين ألفاً[٢].

وما قدّما هذا العمل إلا لعلمهما بعظم أمر الصلاة وشأنها.

ونحن يا أخي سنودع هذه الدنيا بين صلاتين، صلاة أديناها وصلاة ننتظر دخول وقتها، فحريٌّ بنا أن نؤدي صلاة مودع في كل صلاة، عسى الله أن يختم لنا بخير، ويتقبل منا حسناتنا ويتجاوز ـ بمنه وكرمه ـ عن سيئاتنا.

* كان **محمد بن إسماعيل** «الإمام البخاري» يصلي ذات ليلة، فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة، فلما قضى الصلاة، قال: انظروا أيش آذاني[٣].

وهذا الصبر ناتج من عظم خشوعهم واستحضارهم مناجاة ربهم كما قال أبو نصر الفرادس عن **سعيد بن عبدالعزيز**: كنت أسمع وقع دموعه على الحصير في الصلاة[٤].

---

(١) الإحياء ١/ ١٩٤.
(٢) الإحياء ١/ ١٩٤.
(٣) السير ١٢/ ٤٤١.
(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ٢١٩.

ونحن لقسوةٍ في قلوبنا لا نرى تلك الدموع إلا في شهر رمضان ومن قلة قليلة لانت قلوبهم وخشعوا لربهم وأذلوا جباههم له.

ولم يمنع الصالحين كبر السن وضعف الجسم عن الوقوف الطويل بين يدي الله فهذا أبو إسحاق السبيعي يقول: «ذهبت الصلاة مني، ضعفت ورق عظمي، إني اليوم أقوم في الصلاة فما أقرأ إلا البقرة وآل عمران»[١].

أما عندما ضعف عن القيام بنفسه فإنه كما قال أبو العلاء العبدي: ضعف أبو إسحاق السبيعي عن القيام فكان لا يقدر أن يقوم إلى الصلاة حتى يُقام، فإذا أقاموه فاستتم قائماً قرأ ألف آية وهو قائم[٢].

أما **عطاء بن أبي رباح** فهو كما قال عنه ابن جريج.. لزمت عطاء ثماني عشرة سنة، وكان بعدما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة، فيقرأ مائتي آية في البقرة وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك[٣].

اجتمعت فيه ثلاثة أمور.. كبر سن وضعف وقراءة طويلة ثم هو خاشعٌ لا يزول منه شيءٌ ولا يتحرك.

لنرى حال **عبدالله بن الزبير** ـ رضي الله عنه ـ وهو المعروف بطول صلاته قال عنه مسلم بن بنّاق المكي: ركع **ابن الزبير** ركعة، فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وما رفع رأسه[٤].

ويؤكد لنا نشاطهم في العبادة ما قاله الوليد بن علي.. كان **سويد بن غفلة** يؤمّنا في شهر رمضان في القيام وقد أتى عليه عشرون ومائة سنة.

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٠٤.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٠٥.
(٣) السير ٥/ ٨٧ وصفة الصفوة ٢/ ٢١٣.
(٤) البداية والنهاية ٨/ ٣٥٩ وصفة الصفوة ١/ ٧٦٧.

وكان **معروف** (ابن وصل التيمي) إمام مسجد بني عمر وابن سعد، وكان يختم القرآن في كل ثلاثة سفراً وحضراً، أمَّ قومه ستين سنة لم يسه في صلاة قط، لأنها تهمه.

وكان **طلق بن حبيب** يقول: إني لأحب أن أقوم لله حتى أشتكي ظهري، فيقوم فيبتديء بالقرآن حتى يبلغ سورة الحِجْر ثم يركع.

وقال ثابت البناني.. كنت أمر **بعبد الله بن الزبير** وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك[١].

وإلى الله المشتكى، أسرع شيء يؤدى في حياتنا الصلاة فمنا من ينقرها نقراً، ومنا من لا يخشع الخشوع الواجب.. ويغلب على الكثرة تأدية الصلاة بلا اهتمام ولا حرص ولو تأملنا في مصالح حياة هذا المُصلي، لرأينا الدقة والحرص والتأني والتمهل والأخذ والعطاء، في سبيل دريهمات تزيد له.

ما بالنا هكذا عن الصلاة معرضون ولواجباتنا مضيّعون.

كان **عبدالله بن مسعود** إذا قام في الصلاة كأنه ثوبٌ ملقى[٢].

وكان **سعيد بن جبير** إذا قام إلى الصلاة كأنه وتد[٣].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟.

هذا **عبدالله بن الزبير** يركع، فيكاد الرخم أن يقع على ظهره، ويسجد فكأنه ثوبٌ مطروح[٤].

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٣٥٨.
(٢) الزهد للإمام أحمد ص ٢٣١.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ٧٧.
(٤) البداية والنهاية ٨/ ٣٥٩.

إننا نستغرب من ذلك الخشوع وتلك الطمأنينة وما ذاك إلا لأننا لا نرى هذا في واقع حياتنا وإلا فإن . .

العنبس بن عقبة كان يسجد حتى تقع العصافير على ظهره، فكأنه جذم حائط[١].

ونسير مع الصالحين فهذا أبو بكر بن عياش يقول:

رأيت **حبيب بن أبي ثابت** ساجداً، فلو رأيته قلت ميت، يعني من طول السجود[٢].

وكان **إبراهيم التيمي** إذا سجد كأنه جذم حائط ينزل على ظهره العصافير[٣].

أما ابن وهب فقد قال: رأيت **الثوري** في الحرم بعد المغرب، صلى، ثم سجد سجدة، فلم يرفع حتى نودي بالعشاء[٤].

رُفع لهم علم الجنة فشمروا إليه، ووضح لهم صراطها المستقيم فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، في أبد لا يزول ولا ينفد، بصبابة عيش إنما هو كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، مشوب بالنغص، ممزوج بالغصص، إن أضحك قليلاً أبكى كثيراً، وإن سر يوماً أحزن شهوراً، آلامه تزيد على لذاته، وأحزانه أضعاف أضعاف مسرّاته، أوله مخاوف وآخره متالف.

---

(١) الزهد ص ٤٩٦.
(٢) السير ٥/ ٢٩١.
(٣) السير ٥/ ٦١.
(٤) السير ٧/ ٢٦٦.

قال **أبو قطن**: مارأيت **شعبة بن الحجاج** قد ركع إلا ظننت أنه نسي، ولا سجد إلا قلت نسي[١].

وقال علي بن الفضيل.. رأيت **الثوري** ساجداً فطفت سبعة أسابيع(*) قبل أن يرفع رأسه[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

مـــوت التقـــيّ حيـــاةٌ لا انقطـــاع لهـــا
قـــد مـــات قـــومٌ وهـــم في النـــاس أحيـــاء[٣]

ورغم تلك العناية بالصلاة وشدة المحافظة عليها فإن **عثمان بن أبي دهرش** قال: ماصليت صلاة قط إلا استغفرت الله تعالى من تقصيري فيها.

ولنرى ماذا يقولون عن صلاتهم.. ورسم حالهم، فقد قال **معاوية بن مرة**: «أدركت سبعين رجلاً من أصحاب محمد ﷺ، ولو خرجوا فيكم اليوم ماعرفوا شيئاً مما أنتم عليه اليوم إلا الأذان»[٤].

أما ميمون بن مهران فقد قال: «لو نشر فيكم رجل من السلف ما عرف إلا قبلتكم». هذا في القرون الأولى ـ فماذا عنا نحن ـ

أخي الكريم:

زماننا لاح للعاقل تغيره ولاح للبيب تبدله، يبس ضرعه بعد الغزارة، وذبل فرعه بعد النضارة، ونحل عوده بعد الرطوبة، وبشع مذاقه بعد العذوبة.

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٩٣.
(*) الأسبوع هنا الطواف الكامل حول الكعبة مرة واحدة.
(٢) السير ٧/ ٢٧٧.
(٣) تاريخ بغداد ١٣/ ٢٠٧.
(٤) حلية الأولياء ٢/ ٢٩٩.

لنرى صورة أخرى معبرة عن أدائهم للصلاة فعندما سُئل **حاتم الأصم** ـ رضي الله عنه ـ عن صلاته فقال: «إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والجنة عن يميني والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، أظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيراً بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعاً بتواضع، وأسجد سجوداً بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري أقُبلت مني أم لا»[١].

والناس في الصلاة على مراتب خمسة:

إحداها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثانية: من حافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار:

الثالثة: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته فهو في صلاة وجهاد.

الرابعة: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يُضَيِّع شيئاً منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، وقد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

---

(١) الإحياء ١/ ١٧٩.

الخامسة: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ـ عز وجل ـ ناظراً بقلبه إليه مراقباً له، ممتلئاً من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده، وقد أضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبتها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغولٌ بربه ـ عز وجل ـ قرير العين به.

فالقسم الأول: معاقب.

والثاني: محاسب.

والثالث: مكفر عنه.

والرابع: مثاب.

والخامس: مقرب من ربه لأن له نصيباً ممن جعلت قرة عينه في الصلاة[١].

فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه ـ عز وجل ـ في الآخرة، وقرت عينه أيضاً في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله ـ تعالى ـ تقطعت نفسه على الدنيا حسرات[٢].

قال بعض السلف: ابن آدم، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة، وكنت من نصيب الدنيا على خطر، وإن بدأت بنصيبك من

---

(١) وهو رسول الله ﷺ، ففي الحديث: «**حُبب إلي من دنياكم الطيب، والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة**» [أخرجه النسائي وأحمد وصححه الألباني].

(٢) فضائل الذكر لابن الجوزي ص ٢٧.

الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظاماً[١].

وصدأ القلوب **يا أخي الكريم** ـ بأمرين ـ بالغفلة والذنب.

وجلاؤها بشيئين: بالاستغفار والذكر، فمن كانت الغفلة أغلب وقته، كان الصدأ متراكباً على قلبه، وصدؤه بحسب غفلته، وإذا صدأ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ماهي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم، فلم تظهر فيه صورة الحقائق، كما هي عليه، فإذا تراكم عليه الصدأ وأسود وركبه الران، فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقاً ولا ينكر باطلاً وهذا أعظم عقوبات القلب، وأصل ذلك من الغفلة، واتباع الهوى فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره[٢].

وكيف يلذ العيش من هو عالم
بأن إلهَ الخلق لابد سائله
فيأخذ من ظُلمه لعباده
ويجزيه بالخير الذي هو فاعلُه[٣]

قال **طلق بن حبيب**: «إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين»[٤].

---

(١) فضائل الذكر لابن الجوزي ص ١٩.
(٢) فضائل الذكر لابن الجوزي ص ٤٦.
(٣) شرح الصدور ص ٢٩٥.
(٤) الإحياء ١٦/٤.

أخي الحبيب.. قال ﷺ، عند موته يوصي أمته: «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»[١].

فلا يفقدك الله حيث أمرك ويجدك حيث نهاك.

* * *

حكم تارك الصلاة

أخي الحبيب:

بعد أن عشنا بين تلك السطور التي يفيض الإيمان بين جوانحها ويزدهر الخير في جذورها.

فلا نرى إلا مصليًّا قائماً ولا نلمح إلا ملبياً النداء مسرعاً.. حريٌّ بنا أن نعرف حكم تارك الصلاة لعظم الأمر وخطورته ونهب مسرعين إلى أقاربنا وجيراننا وأحبابنا لإنقاذهم من النار.. قراءة متأنية لتلك الأحكام تجعلك تسارع داعياً من تعرف تهاونه بالصلاة لعل الله أن يفتح على قلبه وينير طريقه..

سئل الشيخ محمد بن عثيمين السؤال التالي:

*** ماذا يفعل الرجل إذا أمر أهله بالصلاة ولكنهم لم يستمعوا إليه هل يسكن معهم ويخالطهم أم يخرج من البيت؟**

فأجاب رحمه الله:

إذا كان هؤلاء الأهل لا يصلون أبداً فإنهم كفار، مرتدون، خارجون عن الإسلام ولا يجوز أن يسكن معهم ولكن يجب عليه أن يدعوهم ويلح ويكرر لعل الله يهديهم لأن تارك الصلاة كافر ـ والعياذ بالله ـ بدليل الكتاب والسنة، وقول الصحابة والنظر الصحيح.

أما من القرآن فقوله تعالى عن المشركين: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ مفهوم الآية أنهم إذا لم يفعلوا ذلك فليسوا إخواناً لنا، ولا تنتفي الأخوة الدينية بالمعاصي وإن عظمت ولكن تنتفي عند الخروج عن الإسلام.

أما من السنة فقول النبي ﷺ: «**بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**» ثابت في صحيح مسلم، وقوله في حديث بريدة ـ رضي الله عنه ـ في السنن: «**والعهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**».

أما أقوال الصحابة: قال أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ: «**لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة**» والحظ: النصيب، وهو هنا نكرة في سياق النفي فيكون عاماً لا نصيب لا قليل ولا كثير. وقال عبدالله بن شقيق: «كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة».

أما من جهة النظر الصحيح فيقال: هل يعقل أن رجلاً في قلبه حبة خردل من إيمان يعرف عظمة الصلاة وعناية الله بها ثم يحافظ على تركها؟ هذا شيء لا يمكن وقد تأملت الأدلة التي استدل بها من يقول أنه لا يكفر، فوجدتها لا تخرج عن أحوال أربع:

١ ـ إما أنها لا دليل فيها أصلاً.

٢ ـ أو أنها قيدت بوصف يمتنع مع ترك الصلاة.

٣ ـ أو أنها قيدت بحال يعذر فيها من ترك هذه الصلاة.

٤ ـ أو أنها عامة فتخصص بأحاديث كفر تارك الصلاة.

وإذا تبين أن تارك الصلاة كافر **فإنه يترتب عليه أحكام المرتدين** ـ وليس في النصوص أن تارك الصلاة مؤمن أو أنه يدخل الجنة أو ينجو من النار ونحو ذلك مما يحوجنا إلى تأويل الكفر الذي به على تارك الصلاة بأنه كفر نعمة أو كفر دون كفر ـ ومنها:

أولاً: أنه لا يصح أن يزوج فإن عقد له وهو لا يصلي فالنكاح باطل ولا تحل له الزوجة به لقوله تعالى عن المهاجرات: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ثانياً: أنه إذا ترك الصلاة بعد أن عقد له فإن نكاحه ينفسخ ولا تحل له الزوجة.. للآية التي ذكرناها سابقاً، على حسب التفصيل المعروف عند أهل العلم بين أن يكون ذلك قبل الدخول أو بعده..

ثالثاً: إن هذا الرجل الذي لا يصلي إذا ذبح لا تؤكل ذبيحته لماذا؟.. لأنها حرام، ولو ذبح يهودي أو نصراني فذبيحته يحل لنا أن نأكلها، فيكون ـ والعياذ بالله ـ ذبحه أخبث من ذبح اليهود والنصارى.

رابعاً: أنه لا يحل له أن يدخل مكة أو حدود حرمها لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

خامساً: أنه لو مات أحد من أقاربه فلا حق له في الميراث، فلو مات رجل عن ابن له لا يصلي (الرجل مسلم يصلي والابن لا يصلي) وعن ابن عم له بعيد (عاصب)، من الذي يرثه؟ ابن عمه البعيد دون ابنه لقوله ﷺ، في حديث أسامة: «**لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم**» [متفق عليه]، ولقوله ﷺ: «الحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكره» [متفق عليه] وهذا مثال ينطبق على جميع الورثة..

سادساً: أنه إذا مات لا يُغسل ولا يُكفن ولا يُصلى عليه ولا يدفن مع المسلمين، إذاً ماذا نصنع به؟. نخرج به إلى الصحراء ونحفر له وندفنه بثيابه لأنه لا حرمة له وعلى هذا فلا يحل لأحدٍ مات عنده ميت وهو يعلم أنه لا يصلي أن يقدمه للمسلمين يصلون عليه.

سابعاً: أنه يحشر يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف، وأئمة الكفر ـ والعياذ بالله ـ ولا يدخل الجنة ولا يحل لأحد من أهله أن يدعو له بالرحمة والمغفرة، لأنه كافر لا يستحقها لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

فالمسألة يا أخواني خطيرة جداً. ومع الأسف فإن بعض الناس يتهاونون في الأمر ويقرون في البيت من لا يصلي وهذا لا يجوز.

هذا حكم من ترك الصلاة رجلاً أو امرأة يا من تركت الصلاة أو تساهلت بها تدارك بقية العمر بالعمل الصالح فلا تدري كم بقي من عمرك هل بقي شهور أو أيام أو ساعات العلم إلى الله وتذكر دائماً قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه: ٧٤].

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

وفقك الله لكل خير وفلاح وجعل الله أيامك سعادة وهناء في ظل شريعة الله علماً وعملاً ودعوة.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ـ دار الكتب العلمية ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

٣ ـ تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

٤ ـ تاريخ عمر لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

٥ ـ التبصرة لابن الجوزي، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦ه.

٦ ـ تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي، دار إحياء التراث العربي.

٧ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥، ١٤٠٠هـ.

٨ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي..

٩ ـ ديوان يوسف القرضاوي «نفحات ولفحات» دار الضياء للنشر، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٠ ـ ذيل تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي، دار إحياء التراث العربي.

١١ ـ رهبان الليل، سيد ابن الحسين العفاني، مكتبة ابن تيمية، ط١/ ١٤١٠هـ.

١٢ ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

١٣ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٤ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٤هـ.

١٥ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق، محمود فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.

١٦ ـ صلاة الجماعة حكمها وأحكامها د. صالح السدلان، دار الوطن ط١، ١٤١٣هـ.

١٧ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية.

١٨ ـ فضائل الذكر لابن الجوزي، دار الجيل ط٢، ١٤٠٥هـ.

١٩ ـ الفوائد لابن القيم الجوزية، دار النفائس.

٢٠ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٩، ١٤٠٠هـ.

٢١ ـ كتاب الزهد للإمام أحمد، دراسة وتحقيق محمد السعيد، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.

٢٢ ـ معلومات مهمة من الدين، محمد جميل زينو.

٢٣ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ.

٢٤ ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمن، لابن خلكان، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ.

❊ ❊ ❊

أولئك الأخيار

المقدمة

الحمد لله الذي جعل جنة الفردوس لعباده المؤمنين، ويسر لهم للأعمال الصالحة الموصلة إليها، فلم يتخذوا سواها شغلاً، وسهل لهم طرقها فسلكوا السبيل الموصلة إليها ذللاً، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين الذي قام من الليل حتى تفطرت قدماه.

وبعد:

فإن صحبة الأخيار ومجالسة الصالحين، وسماع أخبارهم تغرس في النفوس حب الخير والرغبة في مجاراتهم والوصول إلى ما وصلوا إليه من الجد والاجتهاد في الطاعة.. فإن القلوب تحتاج إلى تذكير وترغيب خاصة مع ما نراه من طول الأمل واللهث وراء حطام الدنيا.

وهذه هي المجموعة الثالثة من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» تحت عنوان «**أولئك الأخيار**» تتحدث عن قيام الليل.. وهو جانب مضيء مشرق من أعمال سلفنا الصالح. لعل قلوبنا تستيقظ من غفلتها وتصحو من غفوتها.

جعل الله أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

قيام الليل

قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٨].

وعندما سُئل رسول الله ﷺ، عن رجل نام الليل حتى أصبح قال: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنه**»(١).

وقد وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ قيام الليل بقوله: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ [المزمل: ٦]. وفسر ابن كثير قوله: ﴿ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ بأنه أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش(٢).

وقيام الليل مرحلة صراع ومجاهدة مع النفس فلا شيء أعظم أثراً في النفس البشرية من الاستمرار في الطاعة والعبادة خاصة وقت الراحة والدعة والسكون، ولذلك شهد الله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوّام الليل بالإيمان الصادق ووعدهم بالخير الجزيل فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٦.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥ـ١٧].

أخي الحبيب:

إن قيام الليل عبادة تصل القلب بالله، وتجعله قادراً على التغلب على مغريات الحياة وعلى مجاهدة النفس، في وقتٍ هدأت فيه الأصوات ونامت العيون وتقلَّب النوَّام على الفرشُ، ولكن قُوام الليل يهبون من فرشهم الوثيرة وسررهم المريحة ويكابدون الليل لا ينامون إلا القليل، ولذا كان قيام الليل من مقاييس العزيمة الصادقة وسمات النفوس الكبيرة وقد مدحهم الله وميَّزهم عن غيرهم بقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

وقيام الليل سنة مؤكدة حثَّ النبي، ﷺ على أدائها بقوله: «**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم ومطردة للداء عن الجسد**»(١).

وقال، ﷺ مبيناً فضل قيام الليل: «**أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل**»(٢)، وقد حافظ عليه، ﷺ، ولم يتركه لا سفراً ولا حضراً وقام، ﷺ وهو سيد ولد آدم وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر ـ حتى تفطّرت قدماه ـ فقيل له: أما قد غُفِرَ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي وأحمد وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) متفق عليه.

وقد رغَّب ﷺ في قيام الليل لما فيه من الخير العظيم والإحسان الجزيل بقوله: «**إن في الليل ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إيَّاه**»(١).

وهذا من منِّه وكرمه ـ جلَّ وعلا ـ.

* هذا **عمر بن ذر** يذكرنا بتلك الساعات والليالي فيقول: «اعملوا لأنفسكم رحمكم الله في هذا الليل وسواده، فإن المغبون من غُبن خير الليل والنهار، والمحروم من حرم خيرهما، وإنما جعلا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربهم، ووبالاً على الآخرين للغفلة عن أنفسهم، فأحيوا لله أنفسكم بذكره، فإنما تحيا القلوب بذكر الله، كَمْ من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله ـ عز وجل ـ للعابدين غداً، فاغتنموا عُمر الساعات والليالي والأيام يرحمكم الله»(٢).

فيا أخي:

اشترِ نفسك اليوم، فإن السوق قائمة والثمن موجود والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يومٌ لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧](٣).

قال **أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ: «صلوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور»(٤).

وقد عَجِبَ أحمد بن حرب ـ رضي الله عنه ـ من نوم النائمين وغفلة

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ١٠٩.
(٣) الفوائد ص ٦٤.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ٢٦٤.

الغافلين فقال: «عجبت لمن يعلم أن الجنة تزين فوقه، والنار تُضرم تحته، كيف ينام بينهما»[١].

ولذلك تجدهم يستعدون لليل ويفرحون بإقباله ويغتمون بإدباره، فكان عمر بن ذر إذا نظر إلى الليل قد أقبل قال: جاء الليل، ولليل مهابة، والله أحق أن يُهاب[٢].

وماذاك إلا من توقير الله ورغبة فيما عنده، وهم أقوام وصفهم الفضيل بن عياض بقوله: «أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد الليل من طول الهجعة، إنما هو على الجنب فإذا تحرَّك قال: ليس هذا لك، قومي خذي حظك من الآخرة»[٣].

وهو كما ذكر عبدالرحمن بن يزيد ـ جابر حين قال: «كنا نُغازي عطاء الخراساني وننزل متقاربين، فكان يحيي الليل، ثم يخرج رأسه من خيمته فيقول: يا عبدالرحمن، يا هشام بن الغار، يا فلان، قيام الليل وصيام النهار أيسر من شرب الصديد، ولبس الحديد، وأكل الزقوم، فالنجاء النجاء..»[٤].

أخي..

سفر الليل لا يطيقه إلا مُضَمَّر المجاعة، النجائب في الأوَّل وحاملات الزاد في الأخير[٥].

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٣٥.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ١١١.
(٣) صفة الصفوة ٢/ ٢٤١.
(٤) السير ٦/ ١٤٣.
(٥) الفوائد ص٦٧.

لبست ثوب الرجاء والناس قد رقدوا
وقمت أشكو إلى مولاي ما أجدُ
وقلت ياعُدتي في كل نائبة
ومن عليه لكشف الضُّر أعتمدُ
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها
مالي على حملها صبرٌ ولا جلدُ
وقد مددتُ يدي بالضر مبتهلاً
إليك يا خير من مُدت إليه يدُ
فلا تردنها يا رب خائبة
فبحرُ جودِك يروي كل من يَردُ[1]

* **قال الحسن** ـ رحمه الله ـ: ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ونفقة المال، فقيل له ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره[2].

وهذه المجاهدة والمكابدة في أول الأمر ثم تتبدَّل إلى محبة وشوق، فقد عُرف عن **ثابت البناني** أنه يقوم الليل ويصوم النهار، وكان يقول: ماشيءٌ أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل.

وقوّام الليل يحبون ـ مثلنا ـ النوم والراحة والدعة ولكنهم نفضوا غبار الكسل واستحثوا الخطى وقووا العزائم انظر إلى عبدالعزيز بن روّاد إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمر يده عليه ويقول: «إنك لليِّن، والله إن في الجنة

---

(١) طبقات الشافعية ٤/ ٢٢٥.
(٢) الإحياء ١/ ٢٢٠.

لألين منك، ولا يزال يصلي الليل كله»[١].

ويسبق حلول الليل استعداد مبكر ونية صادقة لقيام الليل فهذا **معاوية بن قرّة** يذكر نصيحة أبيه لهم إذا صلّوا العشاء.. يا بَنيَّ ناموا لعل الله أن يرزقكم من الليل خيراً.

ولا يكن نهار المسلم كما قال الشاعر:

نهارك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ
وليلُك نومٌ والردى لك لازمُ
وتتعبُ فيما سوف تكره غبه
كذلك في الدنيا تعيشُ البهائم

فكن - **يا أخي** - من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا، فإن الولد يتبع الأم[٢].

* خرج **سليمان التيمي** إلى مكان يصلي الصبح بوضوء عشاء الآخرة وكان يأخذ بقول الحسن؛ إنه إذا غلب النوم على قلبه توضأ[٣].

إن جهاد النفس جهاد طويل وطريق صعب يحتاج إلى صبر ومثابرة، فقد كان **صفوان بن سليم** في الصيف يصلي في البيت، وإذا كان في الشتاء صلى في السطح لئلا ينام[٤].

وهذا الجهاد والحرص على القيام يكون بأجمل هيئة وأحسن زينة..

---

(١) الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٢) الفوائد ص ٦٨.
(٣) حلية الأولياء ٣/ ٢٩.
(٤) حلية الأولياء ٣/ ١٥٩.

فكان الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ له قلنسوة خاطها بيده، فيها قطن فإذا قام الليل لبسها.[١]

قم في الدجى واتل الكتابَ ولا تنمْ
إلا كنومة حائرٍ ولهان
فلربما تأتي المنيةُ بغتة
فتساق من فرشٍ إلى الأكفان
ياحبذا عينان في غسق الدجى
من خشية الرحمن باكيتان

ومجاهدة النفس صعبة المنال في البداية ولكنها سهلة الانقياد بالإصرار والعزيمة في النهاية، كما ذكر ذلك ثابت البناني بقوله: «كابدت الصلاة(*) عشرين سنة وتنعمت بها عشرين سنة»[٢].

وكانت أم سليمان ـ رضي الله عنها ـ، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، تقول له: «يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع الرجل فقيراً يوم القيامة، يابني.. من يرد الله لا ينم الليل، لأن من نام الليل ندم بالنهار»[٣].

ياكثير الرقاد والغفلات
كثرة النوم تورث الحسرات[٤]

---

(١) السير ١١/ ٢٠٦.
(*) أي صلاة آخر الليل.
(٢) السير ٥/ ٢٢٤، صفة الصفوة ٣/ ٢٦٠.
(٣) الزهر الفائح ص ١٩.
(٤) الزهر الفائح ص ١١١.

* كانت **أم الربيع بن خيثم** إذا رأت قلقه بالليل قالت: «يا بني لعلك قتلت قتيلاً، فيقول.. يا أماه قتلت نفسي»[١].

وقالت **أم غزوان** له: «أما لفراشك عليك حق!؟ أما لنفسك عليك حق؟ قال: يا أماه.. إنما أطلب راحتها، أبادر طي صحيفتي»[٢].

أماشداد بن أوس فإنه إذا دخل الفراش يتقلبَّ على فراشه لايأتيه النوم، فيقول: «اللهم إن النار أذهبت النوم، فيقوم فيصلي حتى يصبح»[٣].

ينـــاجـــون ربَّ العـــالمين إلهَهُـــم
فتسري همـــومُ الـــدنيـــا والنـــاسُ نُـــوَّمُ[٤]

ورغبة في الخير العظيم والجزاء الأكمل.. صام **منصور بن المعتمر** أربعين سنة وقام ليلها وكان يبكي، فتقول له أمه: يا بني، قتلت قتيلاً؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعت بنفسي، فإذا كان الصبح، كحل عينيه، ودهن رأسه، وبرَّق شفتيه(*) وخرج إلى الناس[٥].

قال **عمرو بن ذر**: «لما رأى العابدون الليل قد هجم عليهم، ونظروا إلى أهل الغفلة قد سكنوا إلى فُرشهم ورجعوا إلى ملاذهم من النوم، قاموا إلى الله فرحين مستبشرين بما قد وهب لهم من حُسن عادة السهر وطول التهجد، فاستقبلوا الليل بأبدانهم وباشروا الأرض بصفاح وجوههم،

---

(١) المدهش ص ٤٤٣.
(٢) مختصر قيام الليل ٢٧.
(٣) صفة الصفوة ١/ ٧٠٩.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ٣٨٠.
(*) وذلك حتى لا يظهر عليه أثر الجهد والسهر خوفاً من الرياء.
(٥) السير ٥/ ٤٠٦، صفة الصفوة ٣/ ١٦٢.

فانقضى عنهم الليل وما انقضت لذتهم من التلاوة، ولا ملَّت أبدانهم من طول العبادة، فأصبح الفريقان وقد ولَّى عنهم الليل بربح وغبن، أصبح هؤلاء قد ملّوا النوم والراحة، وأصبح هؤلاء متطلعين إلى مجيء الليل للعادة، شتّان مابين الفريقين».

* حين سألت ابنة الربيع بن خيثم أباها: يا أبتاه الناس ينامون ولا أراك تنام؟ قال: يا بنية إن أباك يخاف السيئات[١].

والآن تقلبت الأمور وتغيَّرت الأحوال فمن لم ينم فهو غالباً قائم على منكر أو محرم.. ولربما كان مهموماً مغموماً من نقصان مال وأمر تجارة أو عارض من عوارض الدنيا، ولنرى ما كان يهمهم ويشغلهم.. فقد كان أحدهم وهو بشر الحافي لا يزال مهموماً، فقيل له في ذلك، فقال: إني مطلوب، وكان لا ينام الليل.. وكان يقول: أخاف أن يأتيني أمره وأنا نائم[٢].

وقالت ابنة لعامر بن عبد قيس: مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام.. فقال: يا بنية إن جهنم لا تدع أباك ينام[٣].

ألا يـــاعين ويحـــك أسعـــديني
بطـــول الـــدمـــع في ظُلَـــمِ الليـــالي
لعلـــك في القيـــامـــة أن تفـــوزي
بخير الـــدهـــر في تلـــك العـــلالي[٤]

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٤٦٩.
(٢) الزهر الفاتح ص ١٨.
(٣) الزهد ص ٣١٦.
(٤) صفة الصفوة ٤/ ٥٩.

ولنسمع **مالك بن دينار** وهو يقول: لو استطعت أن لا أنام لم أنم، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرقتهم ينادون في منار الدنيا كلها يا أيها الناس: **النار، النار**[١].

وحتى سماع هذا النذير إذا بقي الأمر دون جدٍّ ووثبة قوية فهو كما قال هَرِم بن حبان: لم أر مثل النار نام هاربها ولم أر مثل الجنة نام طالبها[٢].

تيقظ لساعاتٍ من الليل يافتى
لعلك تحظى في الجنانِ بحورها
فقم فتيقَّظ ساعةً بعد ساعةٍ
عساك تُوَفَّى ما بقي من مهورها

وقيام الليل مِنَّةٌ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفضل منه على عباده الصالحين الذين يسر لهم أسباب القيام على عبادة الصالحين الذين يسر لهم أسباب القيام وأعانهم عليه.

وقيام الليل مِنةٌ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفضل منه على عباده الصالحين الذي يسر لهم أسباب القيام وأعانهم عليه.

* قال **أبو سفيان الدارني**: «من صَفى صُفي له، ومَن كَدر كُدر عليه. ومن أحسن في ليله كوفيء في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفيء في ليله»[٣].

ومن أهم الأسباب المانعة التي تعوق عن قيام الليل:

المعاصي والذنوب، فإن قيام الليل منحة ربانية للصالحين من عباده.

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٨٦.
(٢) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٣٣٢.
(٣) صيد الخاطر ص ٣٤.

ذكر ذلك **الحسن** بقوله: «إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل»[١].

وقال **سفيان الثوري**: «حرمت قيام الليل بذنب أحدثته منذ خمسة أشهر»[٢].

ومن حُرم من خير القيام ومناجاة رب العالمين فإنه بسبب ذنوبه ومعاصيه.

ونبه إلى ذلك **الفضيل بن عياض** فقال: «إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار فاعلم أنك محروم كبلتك خطيئتك»[٣].

وحين اشتكى شاب إلى الحسن عدم قيامه الليل قال له **الحسن**: قيَّدتك خطاياك[٤].

فمن ترك المعاصي والذنوب أعانه الله على فعل الخيرات والطاعات، فقيام الليل دأب الصالحين، بعيد عن الفاسقين قريب للتائبين.

وفسر ذلك **بشر بن الحارث** عندما قال: «لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات سدًّا»[٥].

فإن من تحرى الخير وجده، ومن بحث عن الطريق لقيه، ومن أقبل على الله أعانه وسدده.

---

(١) الإحياء ١٠/ ٤٤٢٠.
(٢) حلية الأولياء ٧/ ١٧.
(٣) السير ٨/ ٤٣٥، الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ٢٣٥.
(٥) السير ١٠/ ٤٧٣.

أخي:

همتك احفظها بقيام الليل، فإن الهمة مقدمة الأشياء فمن صلحت له همته وصدق فيها، صلح له ما وراء ذلك من الأعمال ويمثل لها ابن القيم بمثل لطيف فيقول مثل القلب مثل الطائر، كلما علا، بعد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات[١].

❊ قال أبو عصمة بن عصام البيهقي: «بتُّ ليلة عند **أحمد بن حنبل**، فجاء بالماء فوضعه فلما أصبح، نظر في الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله رجل يطلب العلم لا يكون له وردٌ بالليل!!.

ونلتفت قليلاً إلى رجال اليوم وكهول الغد.. إلى الشباب أصحاب القوة والنشاط والهمة والعزيمة ونناديهم بنداء **سفيان الثوري** الذي كان يصلي ثم يلتفت إلى الشباب فيقول: إذا لم تصلوا اليوم فمتى؟![٢].

وقد ذكَّر إبراهيم بن شماس أحمد بن حنبل فقال: كنت أعرف أحمد بن حنبل: وهو غلام وهو يحيي الليل[٣].

من لم يقم للجد قبل مشيبه
وخمود سريَّه، فليس بقائم[٤]

وبمقارنة سريعة نرى أن أكثر القُوَّام هم من الشيوخ والكهول.. فأين نصيب الشباب من ذلك.. وهو سن الصحة والقوة والنشاط. مقارنة بذلك الجسم النحيل الضعيف، الذي احدودب ظهره، وضعفت قوته،

---

(١) الجواب الكافي ص ٧٠.
(٢) حلية الأولياء ٧/ ٥٩.
(٣) السير ١١/ ٨.
(٤) عقد اللؤلؤ والمرجان ص ٢٦٩.

وارتعشت أطرافه . . ورغم كل ذلك نجده يقوم لله عابداً، راكعاً، ساجداً.

قال **شميط بن عجلان** موضحاً ذلك التفاوت: إن الله ـ عز وجل ـ جعل قوة المؤمن في قلبه ولم يجعلها في أعضائه، ألا ترون أن الشيخ يكون ضعيفاً يصوم الهواجر ويقوم الليل، والشاب يعجز عن ذلك. .[١].

وكان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة وهو ممتّع بقوته وعقله، فوثب يوماً وثبة شديدة، فعوتب في ذلك فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر[٢].

وقال بعض العلماء في كلمات صادقة: ليس في الدنيا وقتٌ يشبه نعيم أهل الجنة، إلا مايجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة[٣].

وكان **ابن مسعود** ـ رضي الله عنه ـ إذا هدأت العيون قام فيسمع له دويٌّ كدويِّ النحل حتى يصبح[٤].

ويروى أن **طاؤوساً** جاء في السحر يطلب رجلاً، فقالوا: هو نائم، قال: ماكنت أرى أن أحداً ينام في السحر[٥].

إذا مـــا الليـــل أظلـــم كـــابـــدوه
فيسفـــر عنهـــمُ وهـــمُ ركـــوع
أطـــار الخـــوفُ نـــومهـــم فقـــامـــوا
وأهـــلُ الأمـــنِ في الـــدنيـــا هجـــوع

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٣٤١، حلية الأولياء ٣/ ١٣٠.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٢٦.
(٣) الإحياء ١/ ٤٢٣.
(٤) الإحياء ١/ ٤١٩.
(٥) السير ٥/ ٤٢، صفة الصفوة ٢/ ٢٨٥.

لهـــم تحـــت الظـــلام وهـــم سجـــودٌ
أنينٌ منـــــه تنفـــــرجُ الضلـــــوع[١]

أما **عمرو بن دينار** فإنه جَزَّأ الليل ثلاثة أجزاء، ثلثاً ينام، وثلثاً يدرس حديثه، وثلثاً يصلي[٢].

وهذا كمال الاستفادة من الوقت، ونرى اليوم من أضاع نهاره ثم هو في الليل بين نائم أو قائم على منكر تاركٍ لواجب، لأن النوم والسهر فيما لا فائدة منه مضيعة لأوقات محسوبة باللحظات والأنفاس.

قال **محمد بن عبدالعزيز بن سليمان**: حدثتني أمي قالت: قال أبوك: ما للعابدين وما للنوم؟ لا نوم والله في دار الدنيا إلا نوم غالب، قال فكان والله لا يكاد ينام إلا مغلوباً.

وفي أيامنا هذه يشتكي الكثير من الأرق ومن السهر، ولا يفكر أن يستفيد من هذا الوقت بصلاة أو قراءة قرآن.. بل تجده يتقلَّب يمنة ويسره بدون فائدة، فالنوم بعيد والتفكير في صلاة الليل والاستفادة من الوقت غير وارد.

ورحم الله **طاووساً** كان إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة، ثم يثب ويصلي إلى الصباح، ثم يقول: طيرَّ ذِكُر جهنم نوم العابدين[٣].

أخي:

لمّا علم الصالحون قِصر العمر، وحثهم حادي ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ

(١) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٢٧٠.
(٢) السير ٥/ ٣٠٢.
(٣) الإحياء ١/ ٤٢٠.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ طووا مراحل الليل من النهار إنتهابا للأوقات.

أصغ سمعك لنداء ربك، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات: ٥٠] وبادر طيَّ صحيفتك، وأحسر عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الموتى، وشمِّر للسباق غداً، فإن الدنيا ميدان المتسابقين[١].

عن نافع أنه قال: كان ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ يحيي الليل صلاة ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة إلى أن أقول: نعم، فيقعد ويستغفر ويدعو حتى يصبح.

وهاهو الحسن بن علي لا يزال مصليًّا ما بين المغرب والعشاء، فقيل له في ذلك فقال: إنها ناشئة الليل.

أما منصور بن المعتمر فكان يصلي في سطحه، فلما مات، قال غلامٌ لأُمه: يا أماه: الجذع الذي كان في سطح آل فلان ليس أراه؟

قالت: يابني ليس ذاك بجذع.. ذاك منصور قد مات[٢].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟

كـــرِّر عليَّ حـــديثَهـــم يـــا حـــادي
فحـــديثُهـــم يجلـــو الفـــؤاد الصـــادي[٣]

كان أسيد ـ رضي الله عنه ـ إذا آوى إلى فراشه يتقلَّب كالحبة على المقلي

---

(١) رهبان الليل ص ٣٧.
(٢) السير ٥/ ٤٠٦، صفة الصفوة ٣/ ١١٣.
(٣) بستان العارفين ص ٤.

ويقول: إنك لين، وفراشٌ ألين منك[١]، ولا يزال راكعاً وساجداً إلى الصباح[٢].

ولم يكن أمام أعينهم هدف سوى الوصول إلى مرضاة الله ودخول جنات عدن، فانظر إلى صنيعهم كما قال **عبدالله بن داود**: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه، كان لا ينام الليل[٣].

وهم كما قال فيهم القائل:

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح[٤]

ونحن ينطبق علينا قول **إبراهيم التيمي**: «كم بينكم وبين القوم، أقبلت عليهم الدنيا فهربوا، وأدبرت عنكم، فاتبعتموها»[٥].

فالدنيا مضمار سباق وقد انعقد الغبار وخَفِي السابق، والناس في المضمار بين فارس وراجل وأصحاب حُمرٍ معقرة.

قس على نفسك أخي انظر أين أنت منهم.. واعلم أن من علامات الشقاء ما قاله **مالك بن دينار**.. أربع من علم الشقاء قسوة القلب وجمود العين وطول الأمل والحرص على الدنيا[٦].

* ذات ليلة زار **قيس بن مسلم**، محمد بن جحادة، فأتاه وهو في المسجد بعد صلاة العشاء، ومحمدٌ قائمٌ يصلي، فقام قيس بن مسلم في

---

(١) يعني في الجنة.
(٢) الزهر الفاتح ص ٢٠.
(٣) الإحياء ٤/ ٤٣٥.
(٤) شذرات الذهب ١/ ١٤١.
(٥) الفوائد ص ٦٥.
(٦) السير ٥/ ٦١، حلية الأولياء ٤/ ٢١٢.

الناحية الأخرى يصلي، فلم يزالا على ذلك حتى طلع الفجر، وكان قيس بن مسلم إمام مسجده، فرجع إلى الحي فأمهم، ولم يلتقيا، ولم يعلم محمد مكانه، فقال بعض أهل المسجد: زارك أخوك قيس بن مسلم البارحة فلم تنفتل إليه. قال: ما علمته، فغدا عليه فلما رأه قيس بن مسلم مُقبلاً، قام إليه فاعتنقه، ثم خلوا جميعاً فجعلا يبكيان[١].

وحالنا اليوم تبدلت فما أن يسلم الإمام حتى ترى من يتفحّص الوجوه ويلتفت يمنة ويسرة بدون داعٍ فيؤثّر على سكونه وهدوئه وربما غفل عن الأذكار الواردة بعد الصلاة.

حدَّثَ المغيرة بن حبيب فقال: يموت **مالك بن دينار** وأنا معه في الدار لا أدري ما عمله! قال: فصليت معه العشاء الآخرة ثم جئت فلبست قطيعة في أول ما يكون الليل، قال: وجاء مالك فقرَّب رغيفه فأكل ثم قام إلى آخر الصلاة فاستفتح ثم أخذ بلحيته فجعل يقول: إذا جمعت الأولين والآخرين فحرّم شبيه مالك بن دينار على النار، فوالله مازال كذلك حتى غلبتني عيني، ثم انتبهت فإذا هو على تلك الحال يقدِّم رجلاً ويؤخر رجلاً، ويقول: يا رب إذا جمعت الأولين والآخرين فحرَّم شيبة مالك بن دينار على النار، فمازال كذلك حتى طلع الفجر[٢].

لله قـــــومُ خلصـــــوا في حُبـــــه
فـــاختـــارهـــم ورضي بهـــم خُـــدَّامـــاً
قـــــومٌ إذا جـــــن الظـــــلام عليهـــمُ
أبصرتَ قـــومـــاً سجـــداً وقيـــامـــاً

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٢٧.
(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٦١.

فسيغنمـــون عـــرائســـاً بعـــرائـــسٍ
ويُبَـــوَّءون مـــن الجنـــان خيـــامـــاً
وتقـــرُّ أعينُهـــم بمـــا أُخفـــي لهـــم
ويسمعـــون مـــن الجليـــل ســـلامـــاً
يتلـــذَّذون بـــذكـــره في ليلهـــم
ويكـــابـــدون لـــدى النهـــار صيـــامـــاً[1]

وذُكِرَ أن أبا حنيفة قام ليلةً بهذه الآية: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦]. يرددها ويبكي ويتضرع[2].

وهذا معمر مؤذِّن سليمان التيمي يقول: صلَّى إلى جنبي سليمان التيمي بعد العشاء الآخرة وسمعته يقرأ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فلما أتى على هذه الآية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٧٢]، جعل يرددها حتى خفّ أهل المسجد فانصرفوا، فخرجت وتركته، وغدوت لأذان الفجر فنظرت فإذا هو في مقامه فسمعت فإذا هو يجزها وهو يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[3].

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أماتوا فيها الهوى طلباً لحياة الأبد، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ماانتهبه العدو منهم في زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق فلمّحوا المقصد، فقرب عليهم البعيد، وكلَّما أمرَّت لهم الحياة حَلِيَ لهم تذكُّر: ﴿هَٰذَا

(١) عقود اللؤلؤ ص ٧٩.
(٢) تاريخ بغداد ١٣/ ٣٥٧.
(٣) حلية الأولياء ٣/ ٢٩.

﴿يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣][١].

وقال القاسم بن أبي أيوب: «سمعت ابن جبير يردد هذه الآية في الصلاة بضعاً وعشرين مرة: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١][٢].

لله ساهرُ ليلهِ ما يهجع
وجِلُ الفؤاد من الذنوبِ مُصدعُ
يبكي بدمع ساكب هفواته
والليل في جلباته متبرقعُ
ندماً على ماكان من عصيانه
ملكاً تذلُّ له الملوك وتخضعُ
ياربُّ، ما للذنب غيرك غافرٌ
وإليك منه يا إلهي المفزعُ
يا ربُّ عبدُكَ ضارعٌ فاغفر له
ما لم يزل يدعوك فيه ويضرعُ[٣]

قيل لبعضهم: كيف الليل عليك؟ فقال: ساعة أنا فيها بين حالتين، أفرح بظلمته إذا جاء، وأغتمُّ بفجره إذا طلع، ما تم فرحي به قط[٤].

وقال وهب بن الورد في نداء حار وكلمات مؤثِّرة: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فأفعل[٥].

---

(١) الفوائد ص ٦٠.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٧٧.
(٣) عقود الؤلؤ ص ٥١.
(٤) الإحياء ١/ ٤٢٣.
(٥) رهبان الليل ص ٣٦.

أخي الحبيب.. في هذه الأمة سباق إلى الخير أين أنت منه؟

قال **قتادة**: إن الملائكة تفرح بالشتاء للمؤمن، يقصر النهار فيصومه ويطول الليل فيقومه.

وذُكر أن عامراً لما حُضِر جعل يبكي.. فقالوا: ما يبكيك يا عامر؟! قال ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكني أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الشتاء[١].

ولما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع الأمل لأربابه، وتملُّك الشيطان وقياد النفوس، ورأوا الدولة للنفس الأمّارة، لجأوا إلى حصن التضرُّع والالتجاء[٢].

قال **إبراهيم بن أدهم** أفضل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان، ومن وَفَى العمل وُفي له الأجر، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير[٣].

ولما لقيام الليل من الأجر العظيم والثواب الجزيل حثَّ، ﷺ أن يعُم هذا الخير أهل البيت جميعهم فقال عليه الصلاة والسلام: «**رحم الله امرأة قامت من الليل، ثم أيقظت زوجها فصلَّى، فإن أبى نضحت الماء في وجهه**»[٤].

وقال ﷺ: «**من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين كثيراً والذاكرات**»[٥].

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٣٢٣.
(٢) الفوائد ص ٦٢.
(٣) كتاب الزهد للبيهقي ص ٢٨٢.
(٤) أخرجه أبو داود وابن ماجة.
(٥) أخرجه أبو داود والنسائي.

واهتم السلف الصالح بأمر أسرهم وساروا على نهجه، ﷺ في الحثِّ على الخير والتذكير به.

فعن القاسم بن راشد الشيباني قال.. كان **رفعة بن صالح** نازلاً عندنا، وكان له أهلٌ وبنات وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته..

يا أيها الركب المُعرِّسُونا
أكُلُّ هذا الليل ترقدونا
ألا تقومون فتصلونا

قال.. فيتواثبون؛ من هنا باكٍ، ومن ههنا داعٍ، ومن ههنا قاريء، ومن ههنا متوضيء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السُرى[1].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟!

امنع جفونك أن تذوق مناماً
وذر الدموع على الخدود سجاما
واعلم بأنك ميت ومحاسب
يامن على سخط الجليل أقاما
لله قوم أخلصوا في حبه
فرضي بهم واختصّهم خدّاما
قوم إذا جنّ الظلام عليهُم
باتوا هنالك سجَّداً وقياماً

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٢٢٩.

خمص البطون من التعفف ضمرا
لا يعرفون سوى الحلال طعاما

وحين تزوَّج **رياح القسي** امرأة فبنى بها، فلما أصبح قامت إلى عجينتها، فقال: لو نظرتِ إلى امرأة تكفيك هذا، فقالت: إنما تزوَّجت رياحاً القبي ولم أرني تزوَّجت جبَّاراً عنيداً، فلما كان الليل نام ليختبرها، فقامت ربع الليل ثم نادته، قُم يا رياح، فقال: أقوم، فلم يقم، فقامت الربع الآخر ثم نادته فقالت: قم يا رياح، فقال أقوم. فلم يقم، فقامت الربع الآخر ثم نادته فقالت: قم يا رياح، فقال أقوم. فقالت: مضى الليل وعسكر المحسنون وأنت نائم، ليت شعري من غَرَّني بك يا رياح، قال: وقامت الربع الباقي[١].

وانتبهت امرأة **حبيب العجمي بن محمد** ليلة وهو نائم، فأنبهته في السحر، وقالت له: قم يا رجل فقد ذهب الليل وجاء النهار وبين يديك طريقٌ بعيد وزادٌ قليل، وقوافل الصالحين قد سارت، ونحن قد بقينا[٢].

فطالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيرة وطلبُه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الألتفات إلى غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه[٣].

قالت امرأة **حسان بن أبي سنان**: كان يجيء فيدخل معي في فراشي، ثم

---

(١) صفة الصفوة ٤٤٤.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٣٥.
(٣) الفوائد ص ٧١.

يخادعني كما تخادع المرأة حبيبها، فإذا علم أني نمت سل نفسه فخرج، ثم يقوم فيصلي، فقلت له: يا أبا عبدالله كم تعذِّب نفسك؟ ارفق بنفسك، فقال: اسكتي ويحك يوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زماناً[١].

أخي:

إنما يقطع السفر ويصل المسافر.. بلزوم الجادة وسير الليل، فإذا حادَ المسافر عن الطريق ونام الليل كله فمتى يصل إلى مقصده[٢]؟

عبَّـــاد ليـــلٍ إذا جـــن الظَـــلامُ بهـــم
كمـــا عـــابـــدٍ دمعـــه في الخـــد أجـــرَاهُ
وأُسْـــدُ غـــابٍ إذا نـــادى الجهـــاد بهـــم
هبّـــوا إلى المـــوتِ يستجـــدون رؤيـــاه
يـــا ربِّ فـــابعـــث لنـــامـــن مثلهـــم نفـــراً
يُشيِّـــدون لنـــا مجـــداً أضعنـــاه

كان **للحسن بن صالح** جاريةٌ فباعها من قوم، فلما كان جوف الليل، قامت الجارية، فقالت: يا أهل الدار الصلاة، فقالوا: أصبحنا؟. أطلع الفجر؟ فقالت: وما تصلُّون إلا المكتوبة؟ قالوا: نعم، فرجعت إلى الحسن فقالت: يا مولاي بعتني من قوم لا يصلون إلا المكتوبة، ردني فردها[٣].

عن **إبراهيم بن وكيع** قال: كان أبي يُصلي، فلا يبقى في دارنا أحدٌ إلاَّ صلَّى حتى جارية لنا سوداء[٤].

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ١١٧، الزهر الفاتح ص ١٨.
(٢) الفوائد ص ١٣١.
(٣) الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٤) السير ٩/ ١٤٩، صفة الصفوة ٣/ ١٧١.

أرأيت يا أخي الكريم.. كيف أن الخير عم منازلهم حتى الخدم تأثَّروا بصلاحهم وعبادتهم..

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتها
وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنعُ

ولننظر في ليلة من ليالي أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ كيف يقضيها، فعن أبي عثمان النهدي قال: تضيفت **أبا هريرة** سبعاً، فكان هو وامرأته وخادمه يتعقبون الليل أثلاثاً، يُصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويُصلي هذا ثم يوقظ هذا..[١].

أرأيت يا أخي.. كيف يقضون ليلتهم وكيف يحافظون على أوقاتهم.. ونحن نهدر أيامنا ونُضيِّع أعمارنا ولا نبالي ولا نحرص على ذلك وأرخص شيء عندنا الوقت.. الدقائق تمر والأنفاس لا تعود وعُمرك محاسب عليه.. فأعد حساباتك.. واغتنم ساعاتك..

فرحم الله امرءاً كان قوياً فاستعمل قوته في طاعة الله، وكان ضعيفاً فعجز عن معاصي الله[٢].

* كان **زيد بن الحارث** يُجزيء الليل إلى ثلاثة أجزاء: جزءٌ عليه، وجزءٌ على ابنه، وجزءٌ على ابنه الآخر عبدالرحمن، فكان هو يصلي ثم يقول لأحدهما: قم، فإن تكاسل، صلى جزأه، ثم يقول للآخر: قم، فإن تكاسل، صلّى جزأه، ثم يقول للآخر: قم، فإن تكاسل أيضاً صلى جزأه، فيصلي الليل كله[٣].

---

(١) صفة الصفوة ١/٦٩٢، الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٢٥٩.
(٢) كتاب الزهد الكبير للبيهقي ص ٢٨٤.
(٣) السير ٥/٢٩٦.

وكان الحسن بن علي ـ رضي الله عنه ـ يأخذ بنصيبه من القيام من أول الليل، وكان الحسين يأخذه من آخر الليل.

يا نائم الليل كم ترقد
قُم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخُذ من الليل وأوقاته
وردًا إذا ما هجع الرُّقَّدُ
قل لذوي الألباب أهل التقى
قنطرةُ العرض لكم موعد

ودعا سليمان التيمي أهله ليتنافسوا في ليلهم: هلموا حتى نُجَزِّيء الليل، فإن شئتم كفيتكم أوله، وإن شئتم كفيتكم آخره[١].

وقال وكيع بن الجراح: «كان علي والحسن ابنا صالح بن حي، وأمهم، قد جزءوا الليل ثلاثة أجزاء، فكان علي يقوم الثلث ثم ينام، ويقوم الحسن الثلث ثم ينام، وتقوم أمهما الثلث، فماتت أمهم، فجزءا الليل بينهما، فكانا يقومان به حتى الصباح، ثم مات علي فقام الحسن به كله[٢].

يا راقد الليل انتبه
إن الخطوب لها سُري
ثقة الفتى بزمانه
ثقةُ محللة العرى[٣]

ونحن نعيش معهم في جو العبادة ونرى طول صبرهم ومدى فرحتهم

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٩.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٥٢.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٣٨.

نتذكَّر قول **قتادة بن دعامة**: قلما ساهر الليل منافق[١].

فالمنافق تشق عليه الطاعة وترهقه العبادة.. ولكن أهل الخير والصلاح لا ينامون. وكيف ينام من يترقَّب حلول المساء ويفرح بانقطاعه في العبادة، كما قال **الفضيل بن عياض**: إذا غربت الشمس فرحتُ بالظلام لِخلوي بربي، وإذا طلَعت، حزنت لدخول الناس عليَّ[٢].

وروي عن **ابن أبي ذئب** أنه كان يصلي الليل أجمع، ويجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غداً، ما كان فيه مزيدٌ من الاجتهاد..

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

يروى أن **ضيغم** قد تعبَّد قائماً حتى أُقعد، ومقعداً حتى استلقى، ومستلقياً حتى مات وهو ساجد، وكان يقول في دعائه: «اللهم إني أُحب لقاءك لقائي»[٣].

والعجب أن الكثير منا وهبهم الله من الصحة والقوة والنشاط ما لا يوجد في غيرهم ولكن تتفاوت الأعمال، فالبعض لا يصلي حتى ثلاث ركعات كل ليلة، وهو لو قام الليالي المتتابعة لما ضَعُف ولا هزُل.. بل إن بعض الشباب يفتخر أنه يمشي رياضةً كل يوم ثلاثة أو أربعة كيلومترات.. وتراه يغَفُل عن صلاة ركعتين كل ليلة..

وكان **عثمان** ـ رضي الله عنه ـ يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعه من أوله[٤].

---

(١) الإحياء ١/ ٤٢٣.
(٢) السير ٧/ ١٤١.
(٣) الزهر الفائح ص ١٨.
(٤) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ١٨٩.

أما **الإمام أبو حنيفة** فقد كان يُحيي نصف الليل، فمر بقوم، فقالوا إن هذا يُحيي الليل كله، فقال: إني أستحي أن أوصف بما لا أفعل، فكان بعد ذلك يُحيي الليل كله، ويروي أنه ماكان له فراش[١].

وهذا الصبر على الطاعة إعانة من الله للصالحين فتراهم كما قال **الفضيل**: إني لأستقبل الليل من أوله فيهولني طوله، فأفتتح القرآن، فأُصبح، وما قضيتُ نهمتي..[٢]

يـــا رجـــال الليـــل جـــدُّوا
رُبَّ داعٍ لا يُـــــــــــــــرَدُّ
مـــــا يقـــــومُ الليـــــل إلا
مـــــن لـــــه عـــــزمٌ وجـــــدُّ
ليـــــس شيءٌ كصـــــلاة الـ
ـليـــــــل للقبر يُعـــــــدُّ[٣]

لننظر بتأمل ما ذكره ابن جريج عندما قال: لزمت **عطاء بن أبي رباح** ثماني عشرة سنة وكان بعدما كبر وَضَعُفَ يقوم إلى الصلاة، فيقرأ مائتي آية من البقرة وهو قائم لا يزول منه شيءٌ ولا يتحرك[٤].

وكان بشر بن المفضل يُلقي للفضيل حصيراً بالليل في مسجده، فيُصلي من أول الليل ساعة، حتى تغلبه عينه، فيُلقي نفسه على الحصير فينام قليلاً

---

(١) الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٢) الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٣) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٢٩٥.
(٤) السير ٥/ ٨٧.

ثم يقوم، فإذا غلبه النوم نام، ثم يقوم، وهكذا حتى يُصبح[١].

أخي:

إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً ولأيامك وأنفاسك أمداً ومن كل ما سواه بُدّ ولابُدَّ لك منه[٢].

لهاكَ النومُ عن طلب الأماني
وعن تلك الكوانس في الجنانِ
تعيش مُخلداً لا موت فيها
وتلهو في الخيام مع الحسانِ
تيقظ من منامك إن خيراً
من النوم التهجد بالقرآن[٣]

قال أبو الجويرية: لقد صحبتُ أبا حنيفة ـ رضي الله عنه ـ ستة أشهر فما رأيته فيها ليلة وضع جنبه على الأرض[٤].

أما إمام أهل السنة **أحمد بن حنبل** ـ رحمه الله ـ فهو كما قال عنه ابنه عبدالله: كان أبي يقرأ كل يوم سبعاً، وكان ينام نومةً خفيفة بعد العشاء، ثم يقوم إلى الصباح يُصلي ويدعو..[٥].

ونحن نلحظ عبادة الصالحين، وتتوالى علينا صور الأخيار العابدين ـ نرى المزيد من حياتهم ومحافظتهم على هذه الحياة والاستفادة

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٢٣٨.
(٢) الفوائد ص ١٢٩.
(٣) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٢٢٥.
(٤) الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٥) السير ١١/ ٢١٤.

الكاملة.. لعلمهم أنها دار العمل.. فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل..

* أشتهر بقيام الليل كله، وصلاة الفجر بوضوء العشاء، الكثير من خيار هذه الأمة لا يعرفون ولم يذكروا وبعضهم ذكروا بذلك فمنهم سعيد بن المسيب، وصفوان بن سليم، ومحمد بن المنكدر المدنيون، وفضيل ووهب المكيان، وطاووس ووهب اليمانيان، والربيع بن خيثم والحكم الكوفيان، وأبو سليمان الداراني وأبو جابر الفارسيان، وسليمان التيمي ومالك بن دينار ويزيد الرقاشي وغيرهم[1].

أخي المسلم:

قم الليل يا هذا لعلك ترشد
إلى كم تنام الليل والعمر ينفدُ
أراك بطول الليل ويحك نائمٌ
وغيرك في محرابه يتهجّدُ
أترقدُ يامغرور والنار توقدُ
فلا حرها يُطفي ولا الجَمرُ يخمدُ
ألا إنها نارٌ يقال لها لظى
فتظلمُ أحياناً وحيناً توقدُ
فيا راكب العصيان ويحك خلها
ستحشرُ عطشاناً ووجهُك أسودُ

---

(١) السير ٥/ ١٢.

ولـــو علـــم البطّـــالُ مـــا نـــال زاهـــدٌ
مـــن الأجـــر والإحســـان مـــاكـــان يـــرقـــدُ
فصـــام وقـــام الليـــل والنـــاسُ نـــوّم
ويخلـــو بـــربٍّ واحـــدٍ يتعبـــدُ
فلـــو كـــانـــت الـــدنيـــا تـــدومُ لأهلهـــا
لكـــان رســـول الله حيًّـــا يخلـــدُ

عن ابن إسحاق قال: قدم علينا **عبدالرحمن الأسود** حاجًّا، فاعتلت رجله، فصلى على قدمٍ حتى أصبح[١].

وقالت امرأة **مسروق**: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفخان من طول الصلاة.

وقال عبدالله بن **أحمد بن حنبل**: كان أبي يصلي في كل يومٍ وليلة ثلاثمائة ركعة، فلما مرض من تلك الأسوا(*) أضعفته، فكان يصلي في كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة، وقال كان قُرب الثمانين، وكان يقرأ في كل يومٍ سبعاً، يختم في كل سبعة أيام، وكانت له ختمة في كل سبع ليالٍ سوى صلاة الظهر، وكان ساعة يصلي العشاء الآخر ينام نومةً خفيفة ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو[٢].

وكان **سليمان التيمي** يسبح الله في كل سجدة سبعين تسبيحة[٣].

ونحن في زماننا هذا نتساءل.. ونشكو إلى الله ضعفنا وخورَنا..

---

(١) المدهش ٤٣١.

(*) الأصوات التي أصابته في فتنة القول بخلق القرآن.

(٢) مناقب الإمام أحمد ٣٥٧.

(٣) تذكرة الحفّاظ ١٥١.

فكم بين مشغولٍ بطاعة ربه
وآخر بالذنب الثقيل مقيدُ
فهذا سعيدٌ بالجنان منعمٌ
وذاك شقيٌ في الجحيم مُخَلَّدُ
كأني بنفسي في القيامة واقفٌ
وقد فاض دمعي والمفاصل ترعُد

ومن محبة الله القيام لمناجاته في ظُلم الليالي وهي مناجاة لا يعدلها فرح ولا سرور ذكر ذلك **أبو سليمان** عندما قال: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل الهوى في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا[١].

وقال **ابن المنكدر**: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث.. قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في الجماعة[٢].

وكيف حالنا اليوم وقد أصبح الناس يتثاقلون في العبادة ويبتعدون عن الطاعة.

فأخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس[٣].

ولنرى لياليا التي أضعناها فيما لا فائدة منه كيف كانوا يغتمون بطلوع الفجر وكيف كانوا يفرحون بقيام الليل وصيام النهار.

---

(١) الإحياء ١/ ٤٢٣.
(٢) الإحياء ١/ ٤٢٣.
(٣) الفوائد ١٠٨.

فهذا علي بن البكار يؤكِّد الحزن بقوله: منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء سوى طلوع الفجر[١].

صلاتك نورٌ والعباد رقود
ونومك ضدٌّ للصلاة عنيد[٢]

يا ترى كيف كانت محبتهم للطاعات ومداومتهم عليها حتى جعلها الله عندهم من لذات الدنيا..

كان ثابت البناني يقول: ماشيء أجده في قلبي ألذّ عندي من قيام الليل[٣].

إنه ليل العبادة والطاعة، ليلٌ يناجي فيه رب السموات والأرض.. يفرحون به إذا أتى ويحزنون إذا رحل.

يروى عن محمد بن المنكدر ـ رحمه الله ـ أنه لما نزل به الموت بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكي حرصاً على الدنيا ولا جزعاً من الموت، ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وقيام ليالي الشتاء.

وصيام ليالي الشتاء وقيامها هي التي سماها النبي، ﷺ الغنيمة الباردة[٤].

بكى الباكون للرحمن ليلاً
وباتوا وهم لا يسأمونا

---

(١) الإحياء ١/ ٤٢٣.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٦٥.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ٢٦٢.
(٤) أخرجه الترمذي وأحمد.

بقـــاع الأرض مـــن شـــوق إليهـــم
تحـــن متـــى عليهـــا يسجـــدونـــا[١]

قال الخلدي: رأيت أحد العباد في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم، ونفدت تلك الرسوم وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في الأسحار.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

مـــن كـــان يـــرغـــب في النجـــاة فمـــا لـــه
غير اتبـــــاع المصطفـــــى فيمـــــا أتي
ذاك السبيـــــــل المستقيـــــم وغيره
سُبـــل الضـــلالـــة والغـــوايـــة والـــردى
فـــاتبِّـــع كتـــابَ الله والسنـــن التـــي
صحَّـــت فـــذاك إن اتبعـــت هـــو الهـــدى[٢]

من أراد قيام الليل والقرب من الله ومن أراد أن ينال هذه المنزلة الرفيعة فعليه أن يأخذ نفسه بهذه الأسباب التي تعين المسلم على قيام الليل ومنها:

١ ـ **لا تكثر الأكل** فيكثر الشرب، فيغلب النوم ويثقل عليك القيام.

٢ ـ **لا تتعب نفسك بالنهار** في الأعمال التي تعيا بها الجوارح، وتضعف بهاالأعصاب، فإن ذلك أيضاً مُجلبٌ للنوم.

٣ ـ **لا تترك القيلولة بالنهار**، فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل.

٤ ـ **سلامة القلب من الحقد على المسلمين**، ومن البدع والخرافات ومن

---

(١) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٣٣١.
(٢) السير ٢٣/ ٣١٤.

هموم الدنيا، فإن هذه الأمراض تصرف عن طاعة الله.

٥ ـ **لا ترتكب الأوزار بالنهار**، فإن ذلك مما يقسي القلب، ويحول بينك وبين أسباب الرحمة.

٦ ـ **خوف يلزمُ القلب مع قصر الأمل**، والتفكر في أهوال يوم القيامة ودركات جهنم.

وأخيراً يا أخي الكريم: تذكَّر أن النبي ﷺ قام من الليل حتى تفطرت قدماه.

وقام السلف الصالح والأخيار الصالحون من هذه الأمة.. أفلا تحب أن تكون بجوارهم في جنات عدن.. مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء الصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

أخي المسلم: وأنت خيرُ من يخلفُ سلف الأمة الصالح بطول القيام وبصدق المناجاة فأنت صاحب القلب الحي العامر بالإيمان الصادق.. لا تنسانا من صالح دعائك.

جعلنا الله وإياك من الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٨].

هديه ﷺ في قيام الليل[١]

لم يكن ﷺ يدع قيام الليل حضراً ولا سفراً، وكان قيامه، ﷺ بالليل إحدى عشرة ركعة، أو ثلاث عشرة.

وكان ﷺ يصلي أول الليل أربع ركعات أو ست ركعات ثم يأوي إلى فراشه، وكان إذا استيقظ بدأ بالسواك، ثم يذكر الله ويقول عند استيقاظه: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»، ثم يتطهّر، ثم يصلي ركعتين خفيفتين، وكان ﷺ يقوم تارة إذا انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، وربما كان يقوم إذا سمع الصارخ وهو الديك وهو إنما يصيح في النصف الثاني، وكان يقطع ورده تارة ويصله تارة وهو الأكثر.

قيامه بالليل ووتره أنواع فمنها:

النوع الأول: أنه ﷺ يقطع ورده تارة ويصله تارة كما قال ابن عباس في حديث بيته عنده، أنه ﷺ استيقظ فتسوّك، وتوضأ، وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة، ثم قام فصلّى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف، فنام حتى نفخ، ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات، كل ذلك يستاك ويتوضأ، ويقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث، فأذّن المؤذن، فخرج إلى الصلاة وهو يقول: «**اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً، ومن أمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً،**

---

(١) زاد المعاد ١/ ٣٢٢ باختصار.

ومن تحتي نوراً، اللهم أعطني نوراً»، [رواه مسلم]. ولم يذكر ابن عباس افتتاحه بركعتين خفيفتين كما ذكرته عائشة، فإما أنه كان يفعل هذا تارة، وهذا تارة، وإما أن تكون عائشة حفظت مالم يحفظه ابن عباس.

النوع الثاني: الذي ذكرته عائشة، أنه كان يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين، ثم يُتم ورده إحدى عشرة ركعة يُسلم من كل ركعتين ويوتر بركعة.

النوع الثالث: ثلاث عشرة ركعة كذلك.

النوع الرابع: يصلي ثمان ركعات، يُسلم من كل ركعتين، ثم يوتر بخمس سرداً متوالياً، لا يجلس في شيء إلا في آخرهن.

النوع الخامس: تسع ركعات، يسرد منهن ثمانياً لا يجلس في شيء منهن إلا في الثامنة، يجلس يذكر الله تعالى ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يُسلم، ثم يُصلي التاسعة، ثم يقعد، ويتشهد، ويُسلم، ثم يصلي ركعتين جالساً بعدما يسلم.

النوع السادس: يصلي سبعاً كالتسع المذكورة، ثم يُصلي بعدها ركعتين جالساً.

النوع السابع: أنه كان يُصلي مثنى مثنى، ثم يُوتر بثلاث لا يفصل بينهن.

النوع الثامن: ما رواه النسائي، عند حذيفة، أنه صلىَّ عند النبي ﷺ في رمضان، فركع، فقال في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**» مثل ما كان قائماً، ثم جلس يقول: «ربِّ اغفر لي، ربِّ اغفر لي»، مثل ما كان قائماً، ثم سجد، فقال: «**سبحان ربي الأعلى**» مثل ما كان قائماً، فلما صلىَّ إلا أربع ركعات حتى جاء بلال يدعوه إلى الصلاة.

وأوتر أول الليل، ووسطه، وآخره، وقام ليلة تامة بآية يتلوها ويرددها حتى الصباح وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨].

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ـ دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

٢ ـ بستان العارفين للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، حققه محمد الجار.

٣ ـ تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

٤ ـ تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي، دار إحياء التراث العربي.

٥ ـ تفسير ابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر ١٤٠١هـ.

٦ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥، ١٤٠٠هـ.

٧ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية ط١، ١٤٠٧هـ.

٨ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

٩ ـ رهبان الليل سيد بن الحسين العفاني، مكتبة ابن تيمية ط١، ١٤١٠هـ.

١٠ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبدالقادر الارناؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ.

١١ ـ الزهد للإمام أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد، دار الكتاب العربي ط١، ١٤٠٦هـ.

١٢ ـ الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن

محمد بن يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي ط١، ١٤٠٦هـ.

١٣ ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

١٤ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٥ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق، محمود فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.

١٦ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

١٧ ـ طبقات الشافعية لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي السبكي، تحقيق محمود محمد طناحي ورفيقه، دار إحياء الكتب العربية.

١٨ ـ عقد الؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

١٩ ـ الفوائد لابن القيم الجوزية ـ دار النفائس.

٢٠ ـ كتاب الزهد الكبير للإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، حققه الشيخ عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية ط١، ١٤٠٨هـ.

٢١ ـ مختصر قيام الليل، شيخ الإسلام أبي عبدالله محمد بن نصر المروزي، اختصرهما العلامة أحمد بن علي المقريزي.

٢٢ ـ المدهش لأبي الفرج جمال الدين الجوزي، ضبطه وصححه د. مروان قباني، دار الكتب العلمية ط٢، ١٤٠٥هـ.

٢٣ ـ مناقب الإمام أحمد للحافظ أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ١٣٩٩هـ، مكتبة الخاني.

اصبر واحتسب

الإهـداء

* إلى من تكالبت عليه الأيام . . وقلب الله له الدهر ظهر المجن . .
* إلى من أدلهمت السماء فوقه تنذر بالخطوب . . وأُغلقت في وجهه المسالك والدروب . . فإذا به صابراً محتسباً .
* ما اهتز له قلب .
* وما رف له جفن .

* * *

* إلى من نامت قريرة العين برضا الله وقدره . . متوسدةً عاصفة هوجاء . . تتخطفها الأسنة وتنالها الرماح . .
* ماعرف الحزن إلى قلبها مدخلا
* وما استقرت الدمعة في عينها زمنا

* * *

* إلى من فقد الأبناء والأحباب . . والآباء والأصحاب
* إلى كل مؤمن مهموم . . وكل مبتلى مغموم

* * *

* عظم الله أجرك . . ورفع درجتك . . وجبر كسرك .

* * *

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وحصناً حصيناً لا يُثلم.. والصلاة والسلام على خير الصابرين والشاكرين والحامدين محمد بن عبدالله.. وبعد:

في هذه الدنيا سهام المصائب مُشرعة ورماح البلاء مُعدةٌ مرسلة.. فإننا في دار ابتلاء وامتحان ونكد وأحزان، وقد بلغ الضعف والوهن ببعضنا إلى التجزع والتسخط من أقدار الله..

فأضحى الصابرون الشاكرون الحامدون هم القلة القليلة.

وسُنن الله في خلقه ثابتةٌ لم تتغير وقضاؤه على عباده سائرٌ لم يتبدل.. نلاحظ أن النوازل تنزل والقوارع تطرق والناس في هذا الزمن غلبت عليهم أمورٌ أربعة:

الأول: عدم الرضا والصبر والاحتساب.. بل البعض يسلو كما تسلو البهائم.

الثاني: الجزع والتسخط.. وكأن الدنيا ما خلقت إلا للصفو والنعيم..

الثالث: عدم احتساب الأجر سوى في المصائب الكبيرة كالموت وغيره وتناسوا أن الأمر سواء على كل ما يسوء المرء حتى الشوكة تُصيب قدمه..

الرابع: ظن الكثير أن الامتحان والابلاء هو زمن المصيبة فحسب، وما عدوا النعمة والغنى بليةٌ وطامةٌ إن لم تُعن على الطاعة والعبادة.

وهذا هو الجزء الرابع من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» نرى فيه كيف

كان رضا وصبر وشكر من كانوا قبلنا وقد أُبتلي بعضهم بأشد مما يُصيبنا.

وهذا الكتاب فيه تعزية للمُصاب وتسلية للمُبتلى وإعانة على الصبر والاحتساب.

جعلنا الله من الصابرين الشاكرين ممن نُنادي يوم القيامة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

إن العبد في تنقلاته في هذه الحياة وأطواره فيها لا يخلو من حالتين: إما أن يحصل له ما يُحب ويندفع عنه ما يكره، فوظيفته في هذه الحالة الشكر والاعتراف بأن ذلك من نعم الله عليه، فيعترف بها باطناً ويتحدث بها ظاهراً، ويستعين بها على طاعة الله وهذا هو الشاكر حقًّا..

الحالة الثانية.. أن يحصل للعبد المكروه أو يفقد المحبوب، فيحدث له، همًّا وحزناً وقلقاً فوظيفته الصبر لله، فلا يتسخط ولا يضجر ولا يشكو للمخلوق ما نزل به، بل تكون شكواه لخالقه سبحانه وتعالى، ومن كان في الضراء صابراً وفي السراء شاكراً فحياته كلها خير وبذلك يحصل على الثواب الجزيل ويكتسب الذكر الجميل[١].

والبلاء الذي يصيب العبد لا يخرج عن أربعة أقسام: إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يُحب، والناس مشتركون في حصولها، فغير المؤمن التقي يلقى منها أعظم مما يلقى المؤمن كما هو مشاهد[٢].

ورأيت جميع الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجاً يزيد على الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذلك وضعت، وهل ينتظر الصحيح إلا

---

(١) الصبر وأثره ص٥.

(٢) الصبر وأثره ص١٢.

السقم، والكبير إلا الهرم والموجود سوى العدم[١].

ولابد أن يعلم المصاب أن الذي إبتلاه بمصيبته أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل البلاء ليُهلكه به ولا ليعذبه، ولا ليجتاحه، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرّعه وابتهاله وليراه طريحاً على بابه لائذاً بجنابه، مكسور القلب بين يديه رافعاً قصص الشكوى إليه[٢] قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [محمد: ٣١].

وقد ذكر الله الصبر في القرآن في نيف وتسعين موضعاً وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٧]، فالهدى والرحمة والصلوات مجموعةٌ للصابرين[٣].

وقرنه بالصلاة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٣][٤].

---

(١) الثبات عند الممات ص١٩.

(٢) تسلية أهل المصائب ص٢٢٥.

(٣) عدة الصابرين، ٩٨ مكاشفة القلوب ٢٣٧.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٩/١٠.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**من يرد الله به خيراً يُصب منه**»[١].

والحمد لله على فضله وجزيل عطائه فقد بشرنا الرسول ﷺ بقوله: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصبٍ ولا هم ولا حزن ولا أذىً ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**»[٢].

والأنبياء ـ عليهم السلام ـ يتوالى عليهم البلاء مثل كافة الناس وإن كانوا أشد بلاءً فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «**الأنبياء**» قلت: ثم من؟ قال: «**الصالحون إن كان أحدهم ليُبتلى بالفقر حتى مايجد إلا العباءة يحتويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدهم بالرخاء**»[٣].

والصبر ـ أخي الكريم ـ مقامٌ من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين[٤].

وقد قال **أبو الدرداء**: «ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضاء بالقدر»[٥].

وفي حديث عن النبي ﷺ: «**الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد**»[٦].

---

(١) رواه البخاري.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه ابن ماجه.
(٤) الإحياء ٤/ ٦٥.
(٥) الإحياء ٤/ ٥٦.
(٦) ضعيف الجامع الصغير ص ٣٥٣٨.

والحسن ـ رحمه الله ـ يقول: «الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله ـ عزّ وجل ـ إلا لعبد كريم عنده»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[٢].

والخير الحاصل للشاكرين هو الزيادة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦].

والخير الحاصل للصابرين هو الأجر والثواب والمغفرة والرحمة[٣].

قال **الفضيل**: «إن الله ـ عزّ وجل ـ ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير»[٤].

وقال رحمه الله: «لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يُعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وحتى لا يحب أن يُحمد على عبادة الله»[٥].

وسأل رجلٌ **الإمام الشافعي** فقال: يا أبا عبدالله، أيهما أفضل للرجل أن يُمكن أو يُبتلى؟ فقال الشافعي: لا يُمكن حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم ألبتة[٦].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٥.
(٢) رواه مسلم.
(٣) الصبر وأثره ص٥.
(٤) الإحياء ٤/ ١٣٩.
(٥) السير ٨/ ٤٣٤.
(٦) الفوائد ص ٢٦٩.

وجعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1] [السجدة: ٢٤].

والمصائب ـ أخي الكريم ـ تتفاوت ولكن أعظمها المصيبة في الدين فهي أعظم مصائب الدنيا والآخرة، وهي نهاية الخسران الذي لا ربح معه، والحرمان الذي لا طمع معه[2].

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه
فما فاته منها فليس بضائر

وأصل كلمة الصبر هو المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما[3].

وحقيقة الصبر خُلقٌ فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به من فعل ما لا يُحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها وحين سُئل **الجنيد** عن الصبر قال تجرع المرارة من غير تعبس.

وقال **ذو النون**: هو التباعد عن المخالفات، والسكون عن تجرع غُصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

وقيل: الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب[4].

أخي الكريم

لابد من الإبتلاء بما يؤذي الناس، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه ألبتة،

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٩.
(٢) تسلية أهل المصائب ص ٢٤.
(٣) عدة الصابرين ص٢٧.
(٤) عدة الصابرين ص ٢٩.

ولهذا ذكر الله ـ تعالى ـ في غير موضع أنه لابد أن يُبتلى الناس، والابتلاء يكون بالسراء والضراء، ولابد أن يبتلى الإنسان بما يسره وما يسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً. . قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف: ٧].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ (١) [الأعراف: ١٦٨].

ولو تبصر الإنسان فيمن حوله لوجدهم بين أمرين وفي أحد حالين: إما سراء أو ضراء، ولكن النفوس البشرية تغفل عن فتنة السراء ولا ترى إلا فتنة الضراء وهي الظاهرة في شكاوي البشر. . فما من إنسان إلا له ألم أو فجيعة أو وهم أو غم أو نكد، ولا يكاد يمر يوم في هذه الدنيا دون تنكيد، وتنغيص قال ـ تعالى ـ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ [البلد: ٤].

قال **ابن كثير** ـ رحمه الله في تفسير هذه الآية: يكابد أمراً من أمر الدنيا وأمراً من أمر الآخرة وفي رواية يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة(٢). .

عن **عبدالملك بن أبجر** قال: ما من الناس إلا مبتلى بعافية، لينظر كيف شُكره أو مبتلى ببلية لينظر صبره(٣).

أما نعمة الضراء. . . فاحتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء(٤).

---

(١) الفوائد ص٢٧١.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٥١٣.
(٣) حلية الأولياء ٥/ ٨٥.
(٤) الفتاوى ١٤/ ٣٠٥.

والفقر يصلح عليه خلق كثير، **والغنى** لا يصلح عليه إلا أقل منهم، ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة وفي الضراء الألم اشتهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء[١].

وقد يُنعم الله بالبلوى وإن عظُمت
ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[٢]

أخي الكريم: إذا فجعتك المصائب ونزلت بك الهموم وادلهمت بك الطرق وأظلمت عليك الدروب من حوادث الدنيا المقدره.. فإن عليك بمنزلة الرضا لما قدر الله وقضى فإنها المنزلة الأولى..

فأرض بقضاء الله وقدره ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

والدرجة الثانية: الصبر على البلاء وهذه لمن لم يستطع الرضا بالقضاء، فالرضا فضل مندوب إليه مستحب، والصبر واجبٌ على المؤمن حتم.

والفرق بين الرضا والصبر أن الصبر كف النفس وحبسها عن السخط مع وجود الألم وتمني زوال ذلك، وكّف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا انشراح الصدر وسعته بالقضاء وترك تمني زوال الألم وإن وجد الإحساس بالألم، لكن الرضا يخففه ما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وإذاقوي الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية[٣].

- وينقسم الصبر إلى: واجب: ، ومندوب، ومحظور، ومكروه، ومباح.

---

(١) الفتاوى ١٤/ ٣٠٥.
(٢) موارد الظمآن ٢/ ٧٥.
(٣) جامع العلوم والحكم باختصار ص١٩٤.

فالصبر الواجب ثلاثة أنواع:

أحدها: الصبر عن المحرمات.

والثاني: الصبر على آداء الواجبات.

والثالث: الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها، كالأمراض والفقر وغيرها.

أما الصبر المندوب: فهو الصبر عن المكروهات والصبر على المستحبات والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله[١].

والصبر المحمود: أنواع: منه صبر على طاعة الله ـ عزّ وجل ـ ومنه صبر عن معاصي الله ـ عزّ وجل ـ ومنه صبر على أقدار الله ـ عزّ وجل ـ[٢].

قال **الفضيل بن عياض** في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].

قال: صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نهوا عنه[٣].

ويذكر عن **علي ـ رضي الله عنه ـ** أنه قال: الصبر ثلاثة: فصبرٌ على المصيبة، وصبرٌ على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب الله له ستمائة درجة.

ومن صبر عن المعصية خوفاً من الله ورجاء ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة[٤]

---

(١) عدة الصابرين ص٥٠.

(٢) جامع العلوم والحكم ص٢٦٦.

(٣) تسلية أهل المصائب ص١٩٣.

(٤) عدة الصابرين ص٩٧.

وقال **ميمون بن مهران**: الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية[١].

واحتمال الأذى فهو الصبر ولكنه أشق، وهو بضاعة الصديقين، وشعار الصالحين وحقيقته أن يؤذى المسلم في ذات الله ـ تعالى ـ فيصبر ويتحمل، فلا يرد السيئة بغير الحسنة، ولا ينتقم لذاته[٢].

والله ـ جل وعلا ـ يجازيه على صبره: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

أخي المسلم:

إن الشخص البالغ العاقل مادام في دار التكليف والأقلام جارية عليه، لا يستغني عن الصبر في حالة من الأحوال، فإنه بين أمرٍ يجب عليه امتثاله، والصبر لابد منه قولاً وفعلاً، وبين نهي يجب عليه الصبر فيهما، وبين نعمة عليه شكر المنعم عليها والصبر عليه، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه، فالصبر لازم له إلى الممات.

ولما كان الصبر مأموراً به، جعل الله ـ سبحانه ـ له أسباباً تعين عليه وتوصل إليه **فمما يسلي المصاب:** أن يوطن نفسه على أن كل مصيبةً تأتيه هي من عندالله وأنها بقضائه وقدره، وأنه ـ سبحانه ـ لم يقدرها عليه ليهلكه بها، ولا ليعذبه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره ورضاه، وشكواه إليه وابتهاله ودعاءه، فإن وفق لذلك كان أمر الله قدراً مقدوراً، وإن حرم ذلك كان ذلك خسراناً مبيناً.

---

(١) تسلية أهل المصائب ص١٩٣.

(٢) الصبر وأثره ص١٩.

وعلاج المصائب بأمور منها:

الأول: أن يعلم أن الدنيا دار ابتلاء، والكرب لا يرجى منه راحة.

الثاني: أن يعلم أن المصيبة ثابتة.

الثالث: أن يقدر وجود ماهو أكثر من تلك المصيبة.

الرابع: النظر في حال من ابتُلي بمثل هذا البلاء، فإن التأسي راحة عظيمة.

الخامس: النظرَ في حال من ابتُلي أكثر من هذا البلاء، فيهون عليه هذا.

السادس: رجاء الخلف إن كان من مضى يصح عنه الخلف كالولد والزوجة.

السابع: طلب الأجر بالصبر في فضائله وثواب الصابرين وسرورهم في صبرهم، فإن ترقى إلى مقام الرضا فهو الغاية.

الثامن: أن يعلم العبد كيف جرى القضاء فهو خيرٌ له.

التاسع: أن يعلم أن تشديد البلاء يخص الأخيار.

العاشر: أن يعلم أنه مملوك، وليس للمملوك في نفسه شيء.

الحادي عشر: أن هذا الواقع، وقع برضى المالك، فيجب على العبد أن يرضى بما رضي به السيد.

الثاني عشر: معاتبة النفس عند الجزع، أن هذا الأمر لابد منه فما وجه الجزع مما لابد منه.

الثالث عشر: إنما هي ساعةٌ فكأن لم تكن[1].

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٩ باختصار.

أخي الحبيب:

متى ما أصابك مكروه في بدنك أو مالك أو حبيبك فاعلم أن الذي قدره حكيم عليم لا يفعل شيئاً عبثاً ولا يقدر شيئاً سدى، وأنه تعالى رحيم قد تنوعت رحمته على عبده، يرحمه فيعطيه، ثم يرحمه فيوفقه للشكر، ويرحمه فيبتليه، ثم يرحمه فيوفقه للصبر، فرحمة الله متقدمة على التدابير السارة والضارة ومتأخرة عنها، ويرحمه أيضاً بأن يجعل ذلك البلاء مكفراً لذنوبه وآثامه ومنمياً لحسناتة ورافعاً لدرجاته[١].

وهنا توجيه نبوي كريم بكتمان المصيبة وعدم التحدث بها قال ﷺ: «**من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة**».

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من نعم الله ـ عزّ وجل ـ الخفية.. وهذا سر من أسرار الرضا وعدم التضجر والانزعاج.

قال **الأحنف**: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد[٢].

ولما نزل في إحدى عيني **عطاء** الماء، مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله[٣].

رحمه الله لو رأى زماننا لعجب من كثرة الحديث في المصائب.. بل إن البعض حتى قبل أن تسأله عن صحته وحاله.. يبادر بالشكوى.. ويكثر التسخط.. يحدثك بما فيه من الأمراض.. وبما في أبنائه وأهله.. حتى ليخيل إليك أن هذا الإنسان ما مر به خيرٌ ونعمةٌ ورخاءٌ قط.. والله لو نظر بعين الرضا لرأى الخير في حياته يحف به من جميع الجوانب.. نعمٌ لا تحصى ولا تعد.

---

(١) الصبر وأثره ص٨.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٢٩٩.

(٣) تسلية أهل المصائب ص٢٢٦.

قال ﷺ: «**من كنوز البر كتمان المصائب، وما صبر من بث**» وحين سأل يونس بن زيد ربيعة بن أبي عبدالرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه[١].

وقال **بكر بن عبدالله المزني**: كان يقال من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة[٢].

وقال **خالد بن أبي عثمان**: مات ابن لي فرآني سعيد بن جبير مقنعاً، فقال لي: إياك والتقنع فإنه من الاستكانة[٣].

وليس الجزع ـ أخي الحبيب ـ أن تدمع العينين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء[٤].

ومن **آداب الصبر** استعماله في أول الصدمة وحين وقوع الفاجعة لقوله ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[٥].

ومن **الآداب** سكون الجوارح واللسان، فأما البكاء فجائز.

قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفائت ولكن يسر الشامت.

ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب[٦].

وأما البكاء والحزن من غير صوتٍ ولا كلامٍ محرمٍ، فهو لا ينافي الصبر والرضا.

---

(١) تسلية أهل المصائب ص١٩٤.
(٢) عدة الصابرين ص٣٢٦.
(٣) تسلية أهل المصائب ص٢٢٤.
(٤) عدة الصابرين ص٣٢٦.
(٥) متفق عليه.
(٦) مختصر منهاج القاصدين ص٢٩٩.

قال تعالى حكايةً عن يعقوب ـ عليه السلام: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: ٨٤].

قال قتادة: كظيم على الحزن، فلم يقل إلا خيراً، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وقوله تعالى عنه في أول السورة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

وقد جاء في أثرٍ مرفوع إلى النبي ﷺ: «**من بث لم يصبر**» لكن يعقوب ـ عليه السلام ـ ابيضت عيناه من البكاء ولم يناف حُزنه وصبره، فإنه ـ عليه السلام ـ ما شكا بثه وحزنه إلى مخلوق، وإنما شكاه إلى الله[١].

وحُكي عن **شريح** أنه قال: إني لأُصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات وأشكره، إذ لم تكن أعظم مما هي، وإذ رزقني الصبر عليها، وإذ وفقني الاسترجاع لما أرجوه فيه من الثواب، وإذ لم يجعلها في ديني[٢].

ومما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة، ولطم الوجه، والضرب بإحدى اليدين على الأخرى، وحلق الشعر، والدعاء بالويل[٣].

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مامن مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمر الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها**» [الحديث].

وقد جعل الله كلمات الاسترجاع وهي قول المصاب «**إنا لله وإنا إليه راجعون**» ملجأً وملاذاً لذوي المصائب، وعصمة للممتحنين من الشيطان

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٢٣.
(٢) تسلية أهل المصائب ص٢٩٠.
(٣) عدة الصابرين ص٣٢٥.

لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة، فيهيج ما سكن، ويظهر ما كمن[١].

وليعلم المصاب أن الجزع لا يرد المصيبةبل يضاعفها، وهو في الحقيقة يزيد في مصيبته، بل يعلم المصاب أن الجزع يشمتُ عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أخزى شيطانه، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزوه، فهذا هو الثبات في الأمر الديني قال النبي ﷺ: «**اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر**» فهذا هو الكمال الأعظم، لا لطم الخدود وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والتسخط على المقدور.

قال **بعض الحكماء**: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم[٢].

قال **عبدالله بن المبارك** ـ رحمه الله ـ أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلي وابنه في الموت، فقال: ابنك يقضي وأنت تصلي؟! فقال: إن الرجل إذا كان له عمل يعمله فتركه يوماً واحداً كان ذلك خللاً في عمله[٣].

قال **ابن عبدالعزيز** لأم مات ابنها: إتقي الله واحتسبيه عند الله واصبري، ، فقالت: مصيبتي به أعظم من أن أُفسدها بالجزع[٤].

قال شيخ الإسلام **ابن تيمة**: الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة

---

(١) تسلية أهل المصائب ص١٦.
(٢) تسلية أهل المصائب ص٣٩.
(٣) تسلية أهل المصائب ص٢٢٤.
(٤) تسلية أهل المصائب ص٢٢٤.

الدين، وإنما اختلفوا في وجوب الرضا[١].

ومما يقدح في الصبر والرضا وينافيهما: إظهار المصيبة، والتحدث بها وإشاعتها، سواء كان كلامًا بها بين الأصحاب أو غيرهم، اللهم إلا أن يقول لأصحابه أو لأقاربه: مات فلان، يعني والده أو ولده، ونحو ذلك، وما يريد به إظهار المصيبة وإنما يريد إعلامهم لأجل الصلاة عليه وتشييعه ونحو ذلك مما هو من فروض الكفايات، ويحصل لهم بذلك القراريط من الأجر[٢].

قال **سقيق البلخي**: من شكا مصيبة به إلى غير الله، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً[٣].

وما يصيب الإنسان محن وابتلاء من الله ـ جل وعلا ـ فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣]. فالفتنة قسمت الناس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث فمن صبر عليها، كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنةٍ أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنةٍ أشد منها[٤].

قال **ثابت**: أصيب عبدالله بن مطرق بمصيبة فرأيته أحسن شيء شارة وأطيبه[٥].

---

(١) الفتاوى ١١/ ٢٦٠.
(٢) تسلية أهل المصائب ص٢٢٦.
(٣) منهاج القاصدين ص٣٠١.
(٤) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٢.
(٥) تسلية أهل المصائب ص٢٢٤.

وكان علي بن أبي طالب يقول: من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك[١].

وعندما سأل رجلٌ الإمام أحمد: كيف تجدك يا أبا عبدالله؟ قال: بخير في عافية، فقال له: حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا في عافية فحسبك، لا تخرجني إلى ما أكره[٢]

وما يكرهه ـ رحمه الله ـ التحدث عن المرض وعدم كتمانه، وذلك لما يرجوه من كتمان المرض. فكيف يشتكي العبد ربه إلى مخلوق مثله، وأما إذا كان الإخبار على سبيل الاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرره، لم يقدح ذلك في الصبر.

* بعث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ برسالة إلى أبي موسى الأشعري جاء فيها: عليك بالصبروأعلم أن الصبر صبران، أحدهما أفضل من الآخر، الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله ـ تعالى ـ[٣].

وإذا تأملت ـ أخي ـ حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات، التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله، كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة، ومنّة

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٢٩٩.
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٢٩٩.
(٣) الإحياء ٤/ ٦٥.

عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان[١].

قال وهب بن منبه: **رؤوس النعم ثلاثة:**

فأولها: نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها.

والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها.

والثالثة: نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا به[٢].

ولو رأيت في نفسك وفيمن حولك لحمدت الله الذي أسبغ عليك نعمه ظاهرةً وباطنةً ولا نخرج في حالنا عمَّا قال **عبدالملك بن إسحاق**: مامن الناس إلا مُبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لنظر كيف صبره[٣].

والبلاء والمصائب في عمر الإنسان أيامٌ معدودة.. لحظاتٌ ثم تنجلي كان **محمد بن شبرمة** إذا نزل به بلاء قال: سحابة صيف ثم تنقشع[٤].

فالحمد لله على نعمه وعلى ماقضى.. ذكر ابن أبي الدنيا: أن داود قال: يارب، أخبرني ما أدنى نعمك عليّ، فأوحى الله إليه: يا داود، تنفس، فتنفس، قال: هذا أدنى نعمي عليك[٥].

وتمام النعمة وكمال العطاء ما قاله رسول الله ﷺ: **«إن تمام النعمة فوز من النار ودخول في الجنة»**.

وقال **ابن أبي الحواري**: قلت لأبي معاوية: ما أعظم النعمة علينا في التوحيد، نسأل الله أن لا يسلبنا إياه، قال: يحق على المنعم أن يتم النعمة

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٢٩٩.
(٢) عدة الصابرين ص١٨١.
(٣) عدة الصابرين ص١٧٢.
(٤) عدة الصابرين ص١٢٥.
(٥) عدة الصابرين ص١٧٦.

على من أنعم عليه، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها، ويستعمل بعمل إلا قبله[١].

وذُكر عن **هلال بن بساق** قال: كنا قعوداً عند عمار بن ياسر، فذكروا الأوجاع، فقال أعرابي: ما أشتكيت قط ، فقال عمار: ما أنت منا أو لست منا، إن المسلم يُبتلى ببلاء، فتحط عنه ذنوبه، كما يحط الورق من الشجر، وإن الكافر أو قال الفاجر يُبتلى ببلية، فمثله مثل البعير إن أُطلق لم يدر لم أُطلق، وإن عُقل لم يدر لم عُقل[٢].

والحمد لله على هذا الفضل العظيم والإحسان الجزيل قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «إن الحمى تحط الخطايا كما تحط الشجرة ورقها».

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمى ليلة**».

قال ابن أبي الدنيا: كانوا يرجون في حمى ليلة كفارة ما مضى من الذنوب[٣].

أخي الحبيب:

أرأيت ما نكرهه ونتأذى من وجوده.. يرحمنا الله به ويحط به ذنوباً سلفت لا إله إلا هو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.

قال **معروف الكرخي**: إن الله ليبتلي عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع، فيشكو إلى أصحابه، فيقول الله ـ تبارك وتعالى ـ وعزتي وجلالي ما ابتليتك

---

(١) عدة الصابرين ص١٧٥.

(٢) عدة الصابرين ص١١٤.

(٣) عدة الصابرين ص١١٦.

بهذه الأوجاع والأسقام إلا لأغسلك من الذنوب فلا تشتكيني[١].

وحين مرض كعب، عاده رهط من أهل دمشق، فقالوا: كيف تجدك يا أبا اسحاق؟ قال: بخير، جسدٌ أخذ بذنبه وإن شاء ربه عذبه وإن شاء رحمه، وإن بعثه بعثه خلقاً جديداً، لا ذنب له[٢].

وقال **وهب بن منبه**: لا يكون الرجل فقيهاً كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء، وصاحب الرخاء ينتظر البلاء[٣].

وفسر **الفضيل** قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] بقوله: صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نهوا عنه[٤].

أما **بكر بن عبدالله** فقد سأل أخاً له أن يوصيه فقال: ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والإستغفار[٥].

فإن ابن آدم بين نعمة وذنب، ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار وقد يظن القاريء أن المصيبة هي موت قريبٍ أو فقد حبيب، وربما كانت مرضاً عارضاً أو حادثاً مروعاً.. ولكن نعمة الله وسعت كل شيء.. حتى الشوكة يشاكها المؤمن له فيها سهم من الخير.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**ما يصيب المؤمن من وصبٍ ولا**

---

(١) عدة الصابرين ص١٢٢.
(٢) عدة الصابرين ص١١٨.
(٣) عدة الصابرين ص١٢٢.
(٤) عدة الصابرين ص٩٧.
(٥) عدة الصابرين ص١٧٧.

نصب ولا هم ولا حزنٍ ولا غم ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه».

فتلمس أخي موضع قدمك ومكان ألمك ومتى ما أصبت **بأقل شيء** فقل: «إنا لله وإنا إليه راجعون».. واحمد الله الذي رزقنا هذا الفضل وهذا الإحسان.

كان **شميط بن عجلان** يقول: إن العافية سترت البر والفاجر، فإذا جاءت البلايا استبان عندها الرجلان، فجاءت البلايا إلى المؤمن، فاذهبت ماله وخادمه ودابته، حتى جاع بعد الشبع، ومشى بعد الركوب، وخدم نفسه بعد أن كان مخدوماً، فصبر ورضى بقضاء الله ـ عزّ وجل ـ وقال: هذا نظر من الله ـ عزّ وجل ـ هذا أهون لحسابي غداً.

وجاءت البلايا إلى الفاجر فأذهبت ماله وخادمه ودابته، فجزع وهلع وقال: والله مالي بهذا طاقة، والله لقد عودت نفسي عادة، مالي عنها صبر في الحلو والحامض والحار والبارد ولين العيش. فإن هو أصابه من الحلال وإلا طلبه في الحرام والظلم ليعود إلى ذلك العيش[١].

وعاد رجل من المهاجرين مريضاً، فقال: **إن للمريض أربعاً:** يرفع عنه القلم، ويكتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته، وتبع المرض كل خطيئة من مفصل من مفاصله فيستخرجها، فإن عاش عاش مغفوراً له، وإن مات مات.مغفوراً له، فقال المريض: اللهم لا أزال مضطجعاً[٢].

وكانت امرأة من العابدات بالبصرة تصاب بالمصائب فلا تجزع، فذكروا

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٣٤٦.

(٢) عدة الصابرين ص١٢٣.

لها ذلك، فقالت: ما أُصابُ بمصيبة فأذكر معها النار إلا صارت في عيني أصغر من الذباب[١].

وقال أحمد بن حاتم: بلغني أن **عروة بن الزبير** قطعت رجله من الأكلة فقال: إن مما يطيب نفسي عنك، أني لم أنقلك إلى معصية الله قط[٢].

وحينما دخل رجلٌ على **داود الطائي** في فراشه فرآه يرجف فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقال: مه، لا تعلم بهذا أحداً، وقد أُقعد قبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد[٣].

أخي المسلم:

الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه ولو عرف الناس لما شكا إليهم[٤].

قال **بعض السلف**: رأيت جمهور الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجاً يزيد على الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت، وهل ينتظر الصحيح إلا السقم، والكبير إلا الهرم، والموجود سوى العدم.

على ذا مضى الناس اجتماعٌ وفرقةٌ
وميتٌ ومولودٌ وبشرٌ وأحزانُ

ثم قال: ولعمري أن أصل الانزعاج لا ينكر، إذا الطبع مجبول على الأمن من حلول المنايا، وإنما الإفراط فيه والتكليف، كمن يخرق ثيابه

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٤٠.
(٢) الورع لابن أبي الدنيا ص٩٦.
(٣) عدة الصابرين ص٣٢٧.
(٤) الفوائد ص١١٤.

ويلطم وجهه ويعترض على القدر، فإن هذا لا يرد فائتاً ، لكنه يدل على خور الجازع ويوجب العاقبة[١].

وكتب ابن نجيح يعزي بعض الخلفاء: إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له، واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك، واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه[٢].

وقال **حسان بن أبي جبلة** في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] قال: لا شكوى فيه[٣].

والصبر مكانته عظيمة ومنزلته رفيعة كما قال علي بن أبي طالب: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسم، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له[٤].

وقال **عمر بن الخطاب**: وجدنا خير عيشنا بالصبر[٥].

وذكر **سلمان الفارسي** أن رجلاً بسط له من الدنيا، فانتزع مافي يديه فجعل يحمد الله ـ عز وجل ـ ويثني عليه حتى لم يكن له فراش إلا بوري، فجعل يحمل الله ويثني عليه وبسط للآخر في الدنيا فقال لصاحب البوري: أرأيتك أنت على ما تحمد الله ـ عز وجل ـ؟ قال: أحمد الله على ما لو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه، قال: وماذاك؟ قال: أرأيت بصرك؟

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٣.
(٢) الإحياء ٤/ ٧٧.
(٣) عدة الصابرين ص١٢٧.
(٤) عدة الصابرين ص١٢٤.
(٥) عدة الصابرين ص١٢٤.

أرأيت لسانك؟ أرأيت يدك؟ أرأيت رجلك؟[١].

ومر **وهب** بمبتلى أعمى مجزوم، مقعد عريان، به وضح، وهو يقول الحمد لله على نعمه، فقال رجل كان مع وهب: أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليها؟ فقال له المبتلى: ارم ببصرك إلى أهل المدينة، فانظر إلى كثرة أهلها، أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري[٢].

أي أن الله ـ جل وعلا ـ خصه بالبلاء ليمحصه ويطهره.

قال **أبو الدرداء**: «من يتفقد يفقد، ومن لا يعد الصبر لفواجع الأمور يعجز»[٣].

واعلم ـ أخي ـ أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن.

وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنه وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا

---

(١) جامع العلوم والحكم ص٢٩٤.
(٢) عدة الصابرين ص١٨١.
(٣) حلية الأولياء ١/ ١٨١.

وبغوا وعتوا وتجبروا في الأرض، وعاثوا فيها بالفساد، فإن من شيم النفوس إذا حصل لها أمرٌ ونهيٌ، وصحةٌ وفراغٌ، وكلمةٌ نافذةٌ من غير زاجرٍ شرعي يزجرها، تمردت وسعت في الأرض فساداً مع علمهم بما فُعل بمن قبلهم، فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال؟! ولكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بعبده خيراً سقاه دواءً من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ منه الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه، وصفّاه، أهله لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديته، ورقاه أرفع ثواب الآخرة وهي رؤيته[١].

وهذا **أبو الدرداء** يُعلمنا بثلاثة أمور تُضعف الإنسان وتجعله قريباً إلى خالقه فقال: ثلاثة أحبهن ويكرههن الناس: الفقر والمرض والموت، أحب الفقر تواضعاً لربي، والموت اشتياقاً لربي، والمرض تكفيراً لخطيئتي[٢].

وقال **بعض السلف**: ثلاثة يُمتحن بها عقول الرجال: كثرة المال، والمصيبة، والولاية[٣].

وقال **يزيد بن ميسرة**: إن العبد ليمرض المرض، وماله عند الله من عمل خير، فيُذَكِّره الله سبحانه بعض ما سلف من خطاياه، فيخرج من عينه مثل رأس الذباب من الدمع من خشية الله، فيبعثه الله إن بعثه مطهراً، أو يقبضه إن قبضه مطهراً[٤].

ولا يصيب العبد من المصائب إلا بذنوبه قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٤.
(٢) السير ٢٠/١٤٩.
(٣) تسلية أهل المصائب ص١٧.
(٤) عدة الصابرين ص١٥٠.

﴿مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

هذا **محمد بن سيرين** يقول لما ركبه الدين وأغتم لذلك: إني لأعرف هذا الغم بذنبٍ أحدثته منذ أربعين سنة[١].

وهو سبحانه بمنه وكرمه يعفو عن كثير وإلا لو كانت مصائبنا على قدر ذنوبنا لعظمت وكثرت.

أخي المسلم:

ينبغي للعبد أن لا ينكر في هذه الدنيا وقوع هذه المصائب على اختلاف أنواعها، وما استخبر العقل والنقل أخباره بأن الدنيا مارستان المصائب، وليس فيه لذةٌ على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر، فكلُ ما يظن في الدنيا أنه شراب فهو سراب وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب، وجمعها فهو للذهاب، ومن خاض الماء الغمر لم يخل من بلل، ومن دخل بين الصفين لم يخل من وجل، فالعجب كل العجب ممن يده في سِلة الأفاعي كيف ينكر اللسع، وأعجب منه من يطلب من المطبوع على الضرِ النفع.

أخي:

طبعت على كدرٍ وأنت تريدها
صفواً من الأقذاء والأكدار

قال **أبو الفرج ابن الجوزي**: ولولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تعتور فيها الأمراض والأكدار، ولم يضق العيش فيها على الأنبياء والأخيار، فآدم يعاني المحن إلى أن خرج من الدنيا، ونوح بكى ثلثمائة عام، وإبراهيم يكابد النار وذبح الولد، ويعقوب بكى حتى ذهب بصره، وموسى يقاسي

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٧١.

فرعون ويلقى من قومه المحن، وعيسى ابن مريم لا مأوى له إلا البراري في العيش الضنك، ومحمد ـ صلى الله عليه وعليهم أجمعين ـ يصابر الفقر، وقُتل عمه حمزة وهو من أحب أقربائه إليه، ونفور قومه عنه، وغير هؤلاء من الأنبياء والأولياء مما يطول ذكره، ولو خلقت الدنيا للذة لم يكن حظ للمؤمن منها[١].

قال **شفيق البلخي**: ذهب بصر عبد العزيز بن أبي راود عشرين سنة فلم يعلم به أهله ولا ولده فتأمله ابنه ذات يوم فقال له: يا أبت ذهبت عيناك؟ قال: نعم يا بني، الرضا عن الله أذهب عين أبيك منذ عشرين سنة[٢].

وقال **علي بن الحسن**: كان رجل بالمصيصة ذاهبٌ نصفه الأسفل لم يبق منه إلا روحه في بعض جسده، ضريرٌ على سرير مثقوب، فدخل عليه داخل فقال له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: ملك الدنيا منقطع إلى الله ـ عزّ وجل ـ مالي إليه من حاجةٍ إلا أن يتوفاني على الإسلام[٣].

أخي الحبيب: أين نحن من هؤلاء؟!

إن من جواهر البر كتمان المصيبة حتى يُظن أنك لم تصب قط. فالمؤمن الموفق ـ نسأل الله تعالى حسن التوفيق ـ من يتلقى المصيبة بالقبول، ويعلم أنها من عند الله لا من عند أحدٍ من خلقه، ويجتهد في كتمانها ما أمكن[٤].

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣١.
(٢) حلية الأولياء ٨/ ١٩١.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ٢٨٧.
(٤) تسلية أهل المصائب ص٢٤.

فمن كمال الصبر، كتمان المرض وسائر المصائب، **ومن كنوز البر** كتمان المصائب والأوجاع والصدقة[١].

نقل عن **الحسن بن عرفة** قال: دخلت على **أحمد بن حنبل** بعد المحنة، فقلت له: يا أبا عبدالله قمت مقام الأنبياء، فقال لي: اسكت، فإني رأيت الناس يبيعون أديانهم، ورأيت العلماء ممن كان معي يقولون ويميلون فقلت: من أنا وما أنا؟

وما أقول لربي غداً إذا وقفت بين يديه ـ جل جلاله ـ ؟ فقال لي: بعت دينك كما باعه غيرك، ففكرت في أمري ونظرت إلى السيف والسوط فأخترتهما، وقلت: إن أنا مت صرت إلى ربي ـ عزّ وجل ـ فأقول: دعيت إلى أن أقول في صفة من صفاتك مخلوقة، فلم أقل فالأمر إليه، إن شاء عذب وإن شاء رحم فقلت: وهل وجدت لأسواطهم ألماً؟

قال لي: نعم، وتجلدت إلى أن تجاوزت العشرين، ثم لم أدر بعد ذلك، فلما حل العاقبان كأني لم أجد له ألماً، وصليت الظهر قائماً، قال الحسن: فبكيت فقال لي: ما يبكيك؟ قلت: بكيت مما نزل بك، قال: أليس لم أكفر؟ ما أبالي لو تلفت[٢].

وقال عنه ـ رحمه الله ـ شابك التائب: لقد ضُرب أحمد بن حنبل ثمانين سوطاً لو ضُربت على فيلٍ لهدته[٣].

وإمام أهل السنة **أحمد بن حنبل** صبر فظفر وهو في حالٍ كما قال

---

(١) الإحياء ٤/ ٧٨.
(٢) طبقات الحنابلة ١/ ١٤٠.
(٣) السير ١١/ ٢٩٥.

عون بن عبدالله: الخير الذي لا شر معه: الشكر مع العافية والصبر مع المصيبة[١].

ولقد فُقد الأول وضَعُفَ الثاني.. فالكثير الآن ينسى شكر النعم قولاً وفعلاً، والكثير ينزعج لنزول البلاء انزعاج من لا يرى أنها من الله ـ جل وعلا ـ ويجب الرضا عن قضائه وقدره والصبر على ابتلائه وتمحيصه.

هذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت[٢].

وقدم **سعيدالجريري** من الحج فجعل يقول: أنعم الله علينا في سفرنا بكذا وكذا، ثم قال: تعداد النعم من الشكر[٣].

وعن عمارة بن سعيد بن وهب قال: دخلت مع **سلمان** ـ رضي الله عنه ـ على صديق له من كندة يعوده فقال له سلمان: إن الله تعالى يبتلي عبده المؤمن بالبلاء ثم يعاقبه فيكون كفارة لما مضى. فيستعتب فيما بقي، وإن الله عز اسمه يبتلي عبده الفاجر بالبلاء ثم يعاقبه، فيكون كالبعير عقله ثم أطلقوه فلا يدري فيم عقلوه حين عقلوه، ولا فيما أطلقوه حين أطلقوه[٤].

وحين ضربت **أم إبراهيم العابدة** دابة فكسرت رجلها، فأتاها قوم يعزونها فقالت: لولا مصائب الدنيا وردنا مفاليس[٥].

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٤.
(٢) أدب الدنيا والدين ص٢٧٦.
(٣) عدة الصابرين ص١٨١.
(٤) حلية الأولياء ١/ ٢٠٦.
(٥) صفة الصفوة ٤/ ٣٨.

أخي:

لئـــن ســـاءني دهـــر سرني دهـــر
وإن مسنـــي عسر فقـــد مسنـــي يسر
لكـــل مـــن الأيـــام عنـــدي عـــادةٌ
فـــإن ســـاءني صبرٌ وإن سرني شكـــر(١)

قال **ابن المبارك**: من صبر فما أقل ما يصبر، ومن جزع فما زقل ما يتمتع(٢).

وتأمل في قول **أبي سعيد الحزار**: العافية سترت البرّ والفاجر، فإذا جاءت البلوى يتبين عندها الرجال(٣).

وانظر إلى ـ رحمة الله ـ بالعباد وعظيم إحسانه.. قال **عمر بن عبدالعزيز**: ما أنعم الله على عبد نعمة، فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر، إلاَّ كان ما عوضه خيراً مما انتزعه(٤).

ويجب علي المؤمن أن يكون شاكراً في نعمائه صابراً في ضرائه منيباً إلى ربه في جميع أحواله وفي حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

فمن تعرف إلى الله في النعمة والرخاء عرفه الله وحفظه حين الضراء والبأساء ولكن..

---

(١) ديوان الإمام علي ص٨٧.
(٢) جامع العلوم والحكم ص١٩٥.
(٣) صفة الصفوة ٢/ ٤٣٨.
(٤) عدة الصابرين ص٢٤.

نحن ندعو الإله في كل كرب
ثم ننساه عند كشف الكروب[١]

قال **سلمان الفارسي**: إذا كان الرجل دعّاء في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة صوتٌ معروف فشفعوا له، وإذا كان ليس بدعاء في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة: صوتٌ ليس بمعروف، فلا يشفعون له.

وقال رجلٌ لأبي الدرداء أوصني، فقال: أذكر الله في السراء يذكرك الله ـ عز وجل ـ في الضراء[٢].

فمن خاف الله وحفظه في صحته، حفظه في مرضه، ومن راقب الله في خطر حرسه الله في حركاته وسكناته[٣].

وقال **بعض السلف**: يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة، أكثرت فيها قرع باب سيدك[٤].

قال **أبو الدرداء**: ادع الله في يوم سرائك لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك، وأعظم الشدائد التي تنزل بالعبد في الدنيا الموت وما بعده أشدّ منه إن لم يكن مصير الصبر إلى خير[٥].

فالسعادة كلها في طاعة الله، والأرباح كلها في معاملته، والمحن والبلايا كلها في معصيته ومخالفته فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته، إن

---

(١) جامع العلوم والحكم ص١٣٠.
(٢) جامع العلوم والحكم ص١٨٩.
(٣) تسلية أهل المصائب ص٣٨.
(٤) تسلية أهل المصائب ص٢٣٦.
(٥) جامع العلوم والحكم ص٢٣١.

ربنا لغفور شكور، أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة.

يطاع فيشكر، وطاعته من توفيقه وفضله. ويُعصى فيحلم، ومعصية العبد من ظلمه وجهله، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له، الحسنة عنده بعشر أمثالها، أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان، والسيئات عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان، إن ربنا لغفور شكور، بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار، وسماء عطاء لا تقلع عن الغيث، بل هي مدرار، ويمنه ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، لا يلقى وصاياه إلا الصابرون، ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون، ولا يهلك عليه إلا الهالكون، ولا يشقى بعذابه إلا المتمردون.

أهل شكره أهل زيادته، وأهل ذكره أهل مجالسته، وأهل طاعته أهل كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته[1].

أخي الكريم: وطِّن نفسك على الشكر حين الشكر وعلى الصبر حين المصيبة. فإن الدنيا لا تخلو من أمرين حلٌ ومُر وسعادة وشقاء.. وصفاءٌ وكَدَر.

لابد للمرء من ضيق ومن سعة
ومن سرور يوافيه ومن حزن
والله يطلب منه شكر نعمته
مادام فيها ويبغي الصبر في المحن

---

(١) عدة الصابرين باختصار ص٣٣٩.

فمـــا على شـــدة يبقـــي الـــزمـــان يكـــن
ومـــا على نعمـــة تبقـــي على الـــزمـــن[١]

قال **سفيان الثوري**: ما كان الله ليُنعم على عبدٍ في الدنيا فيفضحه في الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه[٢].

وفي الحديث عن أبي يحيى صهيب بن سنان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**» [رواه مسلم].

وما ننعم به من نعم الأمن وسعة العيش وتيسر المواصلات وكثيرٌ لا يحصيه إلا الله إنما هي بلية إذا لم تكن مما يقرب إلى الله وإذا لم تكن وسيلة إلى الطاعة والعبادة.

قال **سلمة بن دينار**: كل نعمة لا تقرب من الله ـ عزّ وجل ـ فهي بلية[٣].

ويجب أن نستفيد من هذه النعم في الدعوة إلى الله وإلى نشر العلم الشرعي بين الناس وإلى كل عمل يحبه الله ويقربنا إليه زلفى.

قال **يونس بن محمد المكي**: زرع رجل من أهل الطائف زرعاً، فلما بلغ أصابته آفة فاحترق فدخلنا عليه لنسليه فيه، فبكى وقال: والله ما عليه أبكي ولكن سمعت الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾[آل عمران: ١١٧].

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٨٣.
(٢) عدة الصابرين ص١٧٥.
(٣) صفة الصفوة ٢/ ١٥٧.

فأخاف أن أكون من أهل هذه الصفة، فذلك الذي أبكاني[١].

أحمـــــدُ الله على كـــــل حـــــال
إنمـــا الـــدنيـــا كفـــيء الظـــلال
إنمـــا الـــدنيـــا منـــاخٌ لـــراكـــب
يسرع الحـــث بشـــد الـــرحـــال
ربَّ مغترٍ بهـــا قـــد رأينـــا
نفســـه فـــوق رقـــاب الـــرجـــال[٢]

قال **ثابت البناني**: انطلقنا مع **الحسن** إلى **صفوان بن محرز** نعوده، فخرج إلينا ابنه، وقال: هو مبطون لا تستطيعون أن تدخلوا عليه، فقال الحسن: إن أباك إن يؤخذ اليوم من لحمه ودمه فيوجد فيه، خير من أن يأكله التراب[٣].

وليعلم المصاب أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يُبنى له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه على مصيبته، فلينظر أي المصيبتين أعظم، مصيبته العاجلة بفوات محبوبه، أو مصيبته بفوات بيت الحمد في جنة الخلد.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**يود ناسٌ لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا لما يرون من ثواب أهل الدنيا**».

وليعلم المصاب الجازع، وإن بلغ به الجزع غايته ونهايته فآخر أمره إلى

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٥٨.
(٢) أبو العتاهية ص٣٦١.
(٣) عدة الصابرين ص١٢٠.

صبر الاضطرار وهو غير محمود ولا مثابٌ عليه. فإنه استسلم للصبر وانقاد إليه على رغم أنفه[١].

وقد نظر **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ إلى عدي بن حاتم كئيباً فقال: يا عدي مالي أراك كئيباً حزيناً؟ قال: وما يمنعني وقد قتل أبنائي وفقئت عيني، فقال: يا عدي، من رضي بقضاء الله كان له أجر ومن لم يرض بقضاء الله حبط عمله[٢].

وقدم **عروة بن الزبير** على الوليد بن عبدالملك ومعه ابنه محمد وكان من أحسن الناس وجهاً، فدخل يوماً على الوليد في ثياب وش، وله غديرتان، وهو يضرب بيديه، فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش، فعانه فخرج من عنده متوسناً. فوقع في إصطبل الدواب، فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات. ثم إن الأكلة وقعت في رجل عروة، فبعث إليه الوليد الأطباء فقالوا: إن لم تقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك، فعزم على قطعها فنشروها بالمنشار فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة، فغشي عليه، ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر، فأخذها وجعل يقلبها في يده، ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام، ولا إلى معصية ولا إلى مالا يرضي الله. ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين، فلما قدم من عند الوليد إلى المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه، فجعل يقول: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولم يزد عليه ثم

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٦.

(٢) تسلية أهل المصائب ص٣٠٥.

قال: لا أدخل المدينة إنما أنا بها بين شامت بنكبة أو حاسد لنعمة، فمضى إلى قصر بالعقيق فأقام هناك. فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة: لا أباً لشانيئك، أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها، فلما كشف عن ركبته فقال له عيسى: أما والله ما كنا نعدك للصراع، قد أبقى الله أكثرك، عقلك ولسانك وبصرك ويداك وإحدى رجليك. فقال له: ياعيسى: ما عزاني أحدٌ بمثل ما عزيتني به.

ولما أرادوا قطع رجله قالوا له: لو سقيناك شيئاً كيلا تشعر بالوجع فقال: إنما إبتلاني ليرى صبري، أفأعارض أمره[١].

وقال مسلمة بن محارب: وقعت في رجل **عروة بن الزبير** الأكلة وقطعت، ولم يدع تلك الليلة وِرده وقطعت ولم يمسكه أحد[٢].

رحمنا الله.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **عبيد الله بن أبي نوح**: قال لي رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب؟ قلت: ما أحصي ذلك كثرة، قال: فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك؟ قلت: لا والله. ولكنه أحسن إليّ وأعانني قال: فهل سألته شيئاً فلم يعطكه؟ قلت: وهل منعني شيئاً سألته؟ ما سألته شيئاً قط إلا أعطاني، ولا استعنت به إلا أعانني، قال: أرأيت لو أن بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء، قال فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره وهو المحسن قديماً وحديثاً إليك والله لشكره أيسر من

---

(١) عدة الصابرين ص١٢٥ وانظر البداية والنهاية ٩/ ١١٤.

(٢) صفة الصفوة ٢/ ٨٦.

مكافأة عباده إنه تبارك وتعالى رضي من العباد بالحمد شكراً[١].

وعندما سئل **سفيان بن عيينة** عن الزهد في الدنيا فقال: إذا أنعم عليه فشكر، وإذا ابتلي ببلية فصبر، فذلك الزهد[٢].

وكان**الفضيل بن عياض** إذا قرأ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١] يبكي ويرددها ويقول: إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا[٣].

فاللهم ارحمنا برحمتك وألطف بنا في قضائك وارحم ضعفنا واجبر كسرنا.

أخي.. عندما نسمع ما حصل بالقوم ورضاهم عن الله ـ جل وعلا ـ وصبرهم على المصائب واحتسابهم الأجر.. نرى البون الشاسع بين حالنا وحالهم.. لنستمع إلى هذه الواقعة.. ونقيسها على ما بنا من مصائب ومحن.. إنها نقطة في بحر.. ورذاذٌ من مطر.

قال **حكيم من الحكماء**: مررت بعريش مصر وأنا أريد الرباط فإذا برجل في مظلة قد ذهبت عيناه ورجلاه، وبه أنواع البلاء وهو يقول: الحمد لله حمداً يوافي محامد خلقك بما أنعمت عليّ وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلاً، فقلت: لأنظرن شيئاً يملكه أم ألهمه الله إلهاماً؟ فقلت: على أي نعمة من نعمه تحمده أم على أي فضيلة تشكره، فوالله ما أرى شيئاً من البلاء إلا هو بك، فقال: ألا ترى ما قد صنع بي؟ فوالله لو أرسل السماء عليَّ ناراً فأحرقتني، وأمر الجبال فدكتني وأمر البحار فغرقتني، ما أزددت

---

(١) عدة الصابرين ص١٧٤.

(٢) السير ٨/ ٤٦٨.

(٣) الإحياء ٤/ ٣٨٤.

له إلا حمداً وشكراً، وإن لي إليك حاجةً: بنيَّة كانت تخدمني وتتعاهدني عند إفطاري انظر هل تحس بها؟ فقلت: والله إني لأرجو أن يكون لي في قضاء حاجة هذا العبد الصالح قربةً إلى الله ـ عز وجل ـ فخرجت أطلبها بين تلك الرمال فإذا السبع قد أكلها فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون من أين آتي هذا العبد الصالح فأخبره بموت ابنته؟ فأتيته فقلت له: أنت أعظم عند الله منزلة أم أيوب ـ عليه السلام ـ ابتلاه الله في ماله وولده وأهله وبدنه حتى صار عرضاً للناس، فقال: لا، بل أيوب، قلت: فإن ابنتك التي أمرتني أن أطلبها أصبتها وإذا السبع قد أكلها. فقال: الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا وفي قلبي منها شيء فشهق شهقة فمات[١].

أعلم ـ أخي ـ أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفو عند النوازل[٢].

تنكـــر لي دهـــري ولم يـــدر أننـــي
أغـــر وأحـــداث الـــزمـــان تهـــون
وظـــل يـــرينـــي الـــدهـــر كيـــف اغتراره
وبـــت أريـــه الصبر كيـــف يكـــون[٣]

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل **بين أمرين:** إما أن يقول أحدهم آمنا وإما أن لا يقول آمنّا، بل يستمر على عمل السيئات، فمن قال آمنا، امتحنه الرب عزّ وجل وابتلاه، وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنا، فلا يحسب أنه يسبق الرب لتجربته، فإن أحداً

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٣٣٤.
(٢) أدب الدنيا والدين ص٢٧٦.
(٣) البداية والنهاية ١١/ ١٩٠.

لن يعجز الله تعالى، هذه سنته تعالى يُرسل الرسل إلى الخلق فيكذبهم الناس ويؤذونهم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقال تـ عالى ـ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

ومن آمن بالرسل وأطاعهم عادوه وآذوه، فابتُلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم عوقب فحصل له ما يؤلمه أعظم لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والكافر تحصل له النعمة ابتداءً ثم يصير في الألم[(١)].

والمصائب لا تكون فقط في موت حبيب أو قريب بل وليست مخصوصة بمرضٍ ونحوه بل كل ما أصابك حتى وإن صغر فهو مصيبة تُحتسب عند الله.

انقطع شسع نعل **عمر بن الخطاب** فاسترجع وقال: كل ما ساءك مصيبة[(٢)].

فليتنا نداوم على الاسترجاع في كل ما أساءنا لعل الله أن يعوضنا خيراً منها.

وليعلم العبد أن ما أصابه هو بسبب ذنوبه ويعفو جل وعلا عن كثير.

قال **عبدالله بن السري**، قال لي **ابن سيرين**: إني لأعرف الذنب الذي

---

(١) الفوائد لابن القيم ص٢٦٩.

(٢) تاريخ عمر ص٢١٢.

حمل علي به الدين، قلت لرجل من أربعين سنة يا مفلس.

قال **أبو سليمان الداراني**: قَلَّت ذنوبهم فعرفوا من أين يؤتون. وكثرت ذنوبنا فليس ندري من أين نؤتى[١].

وشكا ابن أخ **للأحنف بن قيس** وجع ضرسه فقال له الأحنف بن قيس لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما ذكرتها لأحد[٢].

ونستمع إلى التوجيه النبوي الكريم: **«إذا أصاب أحدكم همّ أو لأواء فليقل: الله الله ربي لا أشرك به شيئاً»**.

وقال ﷺ: **«المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء»**.

ومن عرف حقيقة الدنيا وعرف أن الله يختار للعبد ما فيه خيرٌ له رضي بذلك فإن الله أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين.

قال **عمر** ـ رضي الله عنه ـ ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لأني لا أدري أيهما خيرٌ لي[٣].

وفي الأثر: يا ابن آدم: البلاء يجمع بيني وبينك، والعافية تجمع بينك وبين نفسك[٤].

والله ـ تبارك وتعالى: يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه وصبره ورضاه بما قضاه عليه، فهو سبحانه وتعالى يرى عباده إذا نزل بهم ما يختبرهم به من الصائب وغيرها، ويعلم خائنة أعينهم وما تخفي صدورهم، فيثيب كل عبد على قصده ونيته، وقد ذم الله تعالى من لم يتضرع إليه ولم

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٧٢.
(٢) الزهد ص٣٣٧.
(٣) الإحياء ٣/ ٣٣٦.
(٤) تسلية أهل المصائب ص٢٣٧.

يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾[1] [المؤمنون: ٧٦].

أخي الحبيب:

عليك بالصبر إن نابتك نائبة
من الزمان ولا تركن إلى الجزع
وإن تعرضت الدنيا بزينتها
فالصبر عنها دليل الخير والورع[2]

قال **الحسن**: ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر وجرعة غيظ ردها بحلم[3].

قال **بعض السلف** فقد الثواب على المصيبة أعظم من المصيبة[4].

وقد قال **الفضيل بن عياض**: إذا أحب الله عبداً أكثر غمه، وإذا أبغض عبداً وسع عليه دنياه[5].

ومن تسلية أهل المصائب: أن ينظر المصاب ويفرق بين أعظم اللذتين والمتعتين تمتع الحياة الدنيا الفانية، وتمتع الدار الآخرة الباقية، وأدومهما لذة وتمتعاً بما أصيب به، ولذة تمتعه بثواب الله له على قوله وفعله من استرجاع وصبر ونحوه، فإن ظهر له الرجحان فآثر الراجح فليحمد الله على توفيقه له. وإن آثر المرجوح من كل وجه فليعلم أن مصبته في عقله وقلبه

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٢٩.
(٢) مكاشفة القلوب ص١٣٢.
(٣) عدة الصابرين ص١٢٧.
(٤) تسلية أهل المصائب ص١٧٣.
(٥) شذرات الذهب ١/٣١٨.

ودينه، أعظم من مصيبته التي أصيب بها في دنياه[١].

وعن **سفيان** قال: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة[٢].

وهذا عكس فهمنا اليوم فنحن نعد الرخاء نعمة والبلاء مصيبة.. وماذاك إلا من ضعف علمنا وقِصر فهمنا وحبنا للدنيا الفانية ورغبتنا في الراحة والدعة.

قال **سفيان** ـ رحمه الله ـ قد أنعم الله على عبدٍ في حاجة أكثر من تضرعه إليه فيها[٣].

والغالب اليوم ينسى الدعاء حتى تصيبه المصائب، والله ـ جل وعلا ـ يحب عبده الداعي.. فيجب ـ **يا أخي** ـ الإكثار من الدعاء في حال العافية والسلامة ومتى ما أصيب الإنسان كانت الحاجة إلى الدعاء أكبر لتفريج الهم وإزالة البلاء.

مر **الربيع بن أبي شيبة** برجل به «زمانه»(*) فجلس يحمد الله ويبكي، فمر رجل فقال: ما يبكيك رحمك الله؟ فقال: ذكرتُ أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية، وأهل النار بأهل البلاء فذلك الذي أبكاني[٤].

وقال **أبو الدرداء** وكأنه يرى حالنا الآن: تلدون للموت وتعمرون

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٨.
(٢) السير ٧/ ٦٦.
(٣) تسلية أهل المصائب ١٧٢.
(*) الزمانة مرض يدون ولايرجى برؤه.
(٤) الشكر ص٢٩.

للخراب وتحرصون على ما يفنى، وتذرون ما يبقى، ألا حبذا المكروهات الثلاث: الموت والمرض والفقر[١].

والأمر اليوم خلاف ذلك ولكن يا أخي من أحب البقاء فليعد للمصائب قلباً صبوراً ولساناً ذاكراً شكوراً.

جاء أحمد بن صالح يوصي أبا عبدالله «أحمد بن حنبل» يوماً وقد بل أوب عبدالله خرقة فألقاها على رأسه فقال له أحمد بن صالح: يا جدي أنت محموم، قال: أبو عبدالله: وأنى لي بالحمى؟

لم يتجزع ـ رحمه الله ولم يخبر بمرض أو يشتكي.

أين نحن من هؤلاء؟!

كثير الآن قبل أن تسأله يروي لك رحلته مع الأطباء وأنه ما نام البارحة ولا ذاق طعاماً ولا شرب شراباً، حديثٌ طويل.. ثم يُعدد بعد ذلك أنواع الأدوية التي يأخذها.. ويُعرج في حديثه على مستوى الأطباء وخدمات المستشفى.. ولا ينسى أن يلوم فلانٌ وفلان.. لأنهم لم يزوروه.

حديثٌ طويل.. الصبر والرضا.. ليسا فيه.

قال **الفضيل** لرجل يشكو إلى رجل: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟[٢]

تتلذ له الشكوى وإن لم يجد بها
صلاحاً كما يتلذ بالحكِّ أجربُ[٣]

ولكن لنود لمريض من سلفنا كيف كان زيارته وماذا يقول لزائريه.

---

(١) شرح الصدور ص١٥.
(٢) السير ١/ ٤٣٩.
(٣) موارد الظمآن ٢/ ٤٧.

قال عبدالعزيز بن أبي روّاد: رأيت في يدمحمد بن واسع قرحة، فكأنه رأى ماشق عليَّ منها، فقال: تدري مالله علي في هذه القرحة من نعمة؟ قال: فسكت فقال: حيث لم يجعلها على حدقتي ولا طرف لساني ولا على طرف ذكري، قال: فهانت علي قرحته[١].

أخي الحبيب:

ليس المؤمن بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة ويتجنب المحظورات فحسب، إنما المؤمن هو الكامل، لا يختلج في قلبه اعتراض، ولا يساكن نفسه فيما يجري وسوسة، وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه وقوي تسليمه، وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثراً، وسره لا يتغير لأنه يعلم أنه مملوك ولا مالكٌ يتصرف بمقتضى إرادته، فإن اختلج في قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية إلى مقام المناظرة، كما جرى لإبليس والإيمان القوي يبين أثره عند قوة البلاء[٢].

قال الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في شرح مسلم: عند قوله ﷺ: «**ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومُحيت عنه بها خطيئة**» وفي رواية: «إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه خطيئة» قال: وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين فإنه قل أن ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها[٣].

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٦٨.
(٢) صيد الخاطر ص٣٦٠.
(٣) تسلية أهل المصائب ص٢٩٢.

وروي في الخبر أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣] قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «**غفر الله لك يا أبا بكر؟ ألست تمرض؟ أليس يصيبك الأذى أليس تنصب؟ أليس تحزن فهذا مما تجزون به**». يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك.

واعلم أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والأذى وقد أمر الله تعالى نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالصبر فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1] [الأحقاف: ٣٥].

وروى عن مالك بن أنس من حديث عطاء بن يسار أن النبي ﷺ قال: «**إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين فقال: انظرا ماذا يقول لعُواده، فإن هو إذا جاؤوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله ـ وهو أعلم ـ فيقول لعبدي عليَّ إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفر عنه سيئاته**».

وعندما مرض أبو بكر فعادوه، فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟

فقال: قد رآني الطبيب، قالوا: فأي شيء قال لك؟ قال: إني فعَّال لما أريد[2].

وقال أبو هريرة: إذا مرض العبد المسلم، نودي صاحب اليمين: أن أجر على عبدي صالح ما كان يعمل وهو صحيح ويقال لصاحب الشمال:

---

(١) تنبيه الغافلين ص١٣.

(٢) تسلية أهل المصائب ص١٩٣.

أقصر عن عبدي ما دام في وثاقي، فقال رجل عند أبي هريرة: ياليتني لا أزال ضاجعاً، فقال أبو هريرة كره العبد الخطايا[١].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طلقاً..»**.

فالحمد لله الذي أجرى الخير لابن آدم وهو لم يعمل فالحمد لله ربٌ رحيم جوادٌ كريم.

وقد يحصل للعابد الجاهل بمصيبته من الجزع ما يسوء الناظر إليه، والسامع عنه، من الاعتراض على الأقدار وماذاك إلا لإدلاله بعبادته، فإنه قد شوهد أن خلقاً كثيراً من أهل الدين والخير عند موت أحبابهم جرى منهم أمورٌ ينكرها العقال من الناس فمنهم من خرق ثيابه، ومنهم من لطم خده، ومنهم من اعترض على القضاء والقدر[٢].

فلا شيء أنفع من العلم، لأن العالم لو حصل له هلعٌ شديد في مصيبته يعلم أنها زلة منه، فيدري كيف يتنفس، والعابد الجاهل كلما غاص إلى أسفل يظن أنه صاعدٌ إلى فوق فإذا إمتحن الشخص ينبغي له أن يتداوى بالأدوية الشرعية[٣].

أما علمت ـ أخي ـ أنه لابد من الفرقة، ومن المرض بعد الصحة.. ومن البعد بعد القرب.. فهذه حال الدنيا **وأنت يا أخي:**

---

(١) عدة الصابرين ص١١٤.
(٢) تسلية أهل المصائب ص٣٤.
(٣) تسلية أهل المصائب ص٣٤.

لـــن تستطيـــع لأمـــر الله تعقيبـــاً
فـاستنجـد الصبر أو فـاستثمـر الحُـوبـا
وافـــزع إلى كنـــف التسليـــم وارض
بمـا قضـى المهيمـن مكـروهـاً ومحبـوبـاً[١]

وروي عن جابر أنه قال: قال رسول الله ﷺ قال جبريل: «**يا محمد عش ما عشت فإنك ميتٌ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه**».

إن الموت قادم بعد الحياة والمرض بعد العافية.. نفارق من نحب ونودع من نُعز.. هذه الدنيا لا تُبقي على أحد..

ولكن نعوذ بالله من عدم الصبر عند المحنة، ونسأله الثبات في الأمر، فإنه والعياذ بالله يُخاف على الشخص من سوء الخاتمة إذا سخط الأقدار، ونازع القضاء، القدر أهله، فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

كان **عبد الأعلى التيمي** يقول: أكثروا من سؤال الله العافية، فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن من البلاء، وما المبتلون اليوم إلاَّ من أهل العافية بالأمس، وماالمبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم ولو كان البلاء يجر إلى خير ماكنا من رجال البلاء، إنه رب بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة، فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة[٢].

---

(١) السير ١٤/ ٢٨٠.
(٢) عدة الصابرين ص١٧٨.

قال **ميمون بن مهران**: ما نال أحد شيئاً من ختم الخير فما دونه إلاّ بالصبر[١].

وقال بعض السلف: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا صديق[٢].

لا يفتر لسانك من ذكر وشكر المُنعم المتفضل ولا تنس حال المصيبة كلمة الاسترجاع فقد تضمنت كلمة «إنا لله وإنا إليه راجعون» علاجاً من الله ورسوله لأهل المصائب.

فإنها من أبلغ علاج المصائب وأنفعه للعبد في عاجله وآجله، فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته.

أحد الأصلين: أن يتحقق العبد أن نفسه وأهله وماله وولده ملك لله ـ عزّ وجل ـ حقيقة، وقد جعله الله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ عاريته من المستعير، وأيضاً: فإنه محفوف بعدمين، عدمٍ قبله، وعدمٍ بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير.

وأيضاً: فإنه ليس هو الذي أوجده عن عدم، حتى يكون ملكه حقيقةً ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده ولا يبقي على وجوده فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي.

وأيضاً فإنه متصرف فيه بالأمر، تصرف العبد المأمور المنهي، لا تصرف الملاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق مالكه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولابد أن يخلف

---

(١) عدة الصابرين ص١٢٤.

(٢) تسلية أهل المصائب ص١٩٨.

الدنيا وراء ظهره، ويأتي ربه يوم القيامة فرداً، كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن يأتيه بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوله فيه، ونهايته وحاله فيه، فكيف يفرح العبد بولد أو مال أو غير ذلك من متاع الدنيا، أم كيف يأسى على مفقود، ففكرة العبد في بدايته ونهايته من أعظم علاج المصائب.

ومن علاجه: أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[1].

ولا ينبغي للمؤمن أن ينزعج من مرض أو نزول موت، وإن كان الطبع لا يملك إلا أنه ينبغي له التصبر مهما أمكن، إما لطلب الأجر بما يعاني، أو لبيان أثر الرضا بالقضاء، وما هي إلا لحظات ثم تنقضي.

وليتفكر المعافى من المرض في الساعات التي كان يقلق فيها، أين هي في زمن العافية؟ ذهب البلاء، وحصل الثواب، كما تذهب اللذات المحرمة ويبقى الوزر، ويمضي زمان التسخط بالأقدار ويبقى العتاب. وهل الموت إلا آلام تزيد فتعجز النفس عن حملها فتذهب، فليتصور المريض وجود الراحة بعد رحيل النفس، وقد هان ما يلقى كما يتصور العافية بعد شرب الشربة المرة، ولا ينبغي أن يقع جزع بذكر البلى، فإن ذلك شأن المركب، أما الراكب ففي الجنة أو في النار. وإنما ينبغي أن يقع الاهتمام الكلي بما يزيد في درجات الفضائل قبل نزول المعوق عنها. فالسعيد من وفق لاغتنام العافية، ثم يختار تحصيل الأفضل. فالأفضل في زمن الاغتنام. وليعلم أن زيادة المنازل في الجنة على قدر التزيد من الفضائل ههنا، والعمر قصير

---

(١) تسلية أهل المصائب ص١٩.

والفضائل كثيرة فليبالغ في البدار فيا طول راحة التعب، ويا فرحة المغموم، ويا سرور المحزون، ومتى تخايل دوام اللذة في الجنة من غير منغص ولا قاطع، هان عليه كل بلاء وشدة[١].

رضيـــــت بـــــالله في عسري وفي يسري
فلســـت أسلـــك إلا أوضـــح الطـــرق[٢]

قال **كعب**: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وعُمومها[٣].

وقال **عمر بن عبدالعزيز** رحمه الله تعالى: ما قضى الله فيّ بقضاء فسرني أن يكون قضى لي بغيره، ما أصبح لي هوى إلا في مواقع القدر[٤].

وجاء رجل إلى **يونس بن عبيد** فشكا إليه ضيقاً في حاله ومعاشه واغتماماً بذلك فقال: أيسرك ببصرك مئة ألف؟ قال: لا، قال: فبسمعك؟ قال: لا قال: فبلسانك؟ قال: لا، ثم قال يونس: أرى لك مئين ألوفاً وأنت تشكو الحاجة[٥].

ولننظر في حال من سبقنا ماذا يرجون في حال المرض.. قال **الحسن**.. كانوا يرجون في حمى ليلة كفارة لما سلف من الذنوب. وقال **إبراهيم النخعي**: كانوا يستحبون للمريض أن يجتهد عند الموت[٦].

وكانوا يقولون: آخر شدة يلقاها المؤمن عند الموت[٧].

---

(١) صيد الخاطر ص٣٦٨.
(٢) تاريخ بغداد ٧/ ٧٦.
(٣) شرح الصدور ص٢٢٠.
(٤) الإحياء ٣/ ٣٣٦.
(٥) السير ٦/ ٢٩٢.
(٦) تسلية أهل المصائب ص٣٧.
(٧) تسلية أهل المصائب ص٩٧.

ولنرى سعد بن أبي وقاص وهو المعروف بإجابة الدعوة قيل له: لو دعوت الله لبصرك ـ وكان قد أضر ـ فقال الله أحبّ إليّ من بصري[١].

والحمد لله حمداً كثيراً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه فإن الأمر كما قال سليمان التيمي: إن الله أنعم على العباد على قدره، وكلفهم الشكر على قدرهم[٢].

ومن نعم تسلية أهل المصائب: أن ينظر العبد بعين بصيرته، فليعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة في الآخرة، يقبلها الله تعالى، وحلاوة الدنيا هي بعينها مرارة في الآخرة، ولأن ينتقل من مرارة منقطعةٍ إلى حلاوةٍ دائمةٍ خيرٌ من عكس ذلك، فإن خفي عليك ذلك فانظر إلى قول الصادق المصدوق: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**».

ومما يسلي أهل المصائب: أن المصاب إذا صبر واحتسب وركن إلى كريم، رجاء أن يخلف الله تعالى عليه، ويعوضه عن مصابه، فإن الله تعالى لا يخيبه بل يعوضه، فإنه من كل شيء عوض إلا الله تعالى فما منه عوض كما قيل.

مـــن كـــل شيءٍ إذا ضيعتـــه عـــوضٌ
ومـــا مـــن الله إن ضيعتـــه عِـــوضُ

بل يعلم أن حظه من المصيبة ما يحدثه له، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، فاختر لنفسك خير الحظوظ أو شرها، فإن أحدثت لك سخطاً وكفراً كنت في ديوان الهالكين، وإن أحدثت لك جزعاً وتفريطاً في ترك واجب أو فعل محرم كنت في ديوان المفرطين، وإن أحدثت لك شكايةً

---

(١) جامع العلوم والحكم ص٤٤٨.
(٢) كتاب الشكر ص١١.

وعدم صبر ورضا كنت في ديوان المغبونين، وإن أحدثت لك اعتراضاً عليه وقدحاً في حكمته ومجادلة في الأقدار، فقد قرعت باب الزندقة، وفتح لك وولجته، فأحذر عذاب الله يحلّ بك، فإنه لمن خالفه بالمرصاد.

وإن أحدثت لك صبراً وثباتاً لله كنت في ديوان الصابرين، وإن أحدثت لك رضا بالله ورضا عن الله وفرحاً بقضائه كنت في ديوان الراضين، وإن أحدثت لك حمداً وشكراً كنت في ديوان الشاكرين الحامدين، وإن أحدثت لك محبة واشتياقاً إلى لقائه كنت في ديوان المحبين المخلصين[١]

عن النبي ﷺ قال: «**إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط**».

فأنفع الأدوية للمصاب موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وإن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب ثم سخط ما يحبه، وأحب ما يسخطه فقد شهد على نفسه بكذبه، وأسخط عليه محبوبه.

وقال قتادة: قال لقمان وقد سأله رجل: أي شيء خيراً؟ قال: صبرٌ لا يتبعه أذى، قال: فأي الناس خيراً؟ قال: الذي يرضى بما أوتي، قال: فأي الناس أعلم؟ قال: الذي يأخذ من علم الناس إلى علمه، قيل: فما خير الكنز. من المال أو من العلم؟ قال: سبحان الله، بل المؤمن العالم الذي إن ابتغى عنده خيراً وجد، وإن لم يكن عنده كف نفسه، وبحسب المؤمن أن يكف نفسه[٢].

وكان الصالحون يفرحون بالشدة لما يرجون من ثوابها[٣].

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٤١.
(٢) عدة الصابرين ص١٢٦.
(٣) تنبيه الغافلين ص١٢٤.

والشكر لله جل وعلا شكرٌ باللسان وبالعمل وأما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر[١].

أخي الكريم:

يبين إيمان المؤمن عند الابتلاء، فهو يبالغ في الدعاء ولا يرى أثراً للإجابة، ولا يتغير أمله ورجاؤه، ولو قويت أسباب اليأس، لعلمه أن الحق أعلم بالمصالح، أو لأن المراد منه الصبر أو الإيمان، فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صبره، أو يريد كثرة اللجأ والدعاء، فأما من يريد تعجيل الإجابة ويتذمر إن لم تتعجل، فذاك ضعيف الإيمان، يرى أن له حقّاً في الإجابة، وكأنه يتقاضى أجرة عمله.

أما سمعت قصة يعقوب ـ عليه السلام ـ: بقي ثمانين سنة في البلاء ورجاؤه لا يتغير.

فإياك ـ أخي ـ: أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مبتلى بالبلاء متعبد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء[٢].

عزى ابن السماك رجلاً فقال: «عليك بالصبر فإنه يعمل من احتسب وإليه يصير من جزع»[٣].

ومن المصائب استطالة الناس وتعرضهم وكثرة قيلهم وقالهم.. استطال رجل على أبي **معاوية الأسود**: فقال له رجل: مه، فقال أبو

---

(١) عدة الصابرين ص١٧٢.

(٢) صيد الخاطر ص٥٥٢.

(٣) عدة الصابرين ص١٢٩.

معاوية: دعه يتشفى ثم قال: اللهم اغفر الذنب الذي سلطت عليّ به هذا.

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ من زهد في الدنيا هانت عليه المصائب، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات[١].

اشتكى ابن أخي الأحنف بن قيس وجع ضرسه فقال له **الأحنف**: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ماذكرتها لأحد[٢].

قال **الفضيل**: إذا أحب الله عبداً أكثر غمه، وإذا أبغض عبداً وسع عليه دنياه[٣].

واعلم ـ أخي ـ أن الزمان لا يثبت على حال كما قال ـ عزّ وجل ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فتارة فقر، وتارة غنى وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي، فالسعيد من لازم أصلاً واحداً على كل حال وهو تقوى الله[٤].

ذكر أبو الفرج ابن الجوزي في المصائب المختصة بذات الإنسان.. قال: **رأيت جمهور الناس إذا طرقهم المرض** أو غيره من المصائب اشتغلوا تارة بالجزع والشكوى، وتارة بالتداوي إلى أن يشتد عليهم، فيشغلهم اشتداده عن الالتفات إلى الصالح من وصية، أو فعل خير، أو تأهب للموت، فكم ممن له ذنوب لا يتوب منها، أو عنده ودائع لا يردها، أو عليه دين أو زكاة، أو في ذمته ظلامة لا يخطر له تداركها، وإنما حزنه على فراق الدنيا،

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٤٥.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١١٩.
(٣) السير ٨/ ٤٣٢.
(٤) صيد الخاطر ص١٧٠.

إذ لا هم له سواها، وربما أفاق وأوصى بجور[١].

فينبغي للمتيقظ أن لا يتأسف على مافات، وأن يتأهب في حال الصحة قبل هجوم المرض، فربما ضاق الوقت عن عمل، واستدراك فارط، أو وصية، فإن لم تكن له وصية في صحته فليبادر في مرضه، وليحذر الجور في وصيته، فإنه من المحرمات، فإنه يمنع المستحق ويعطي من لايستحق، فيحتاج أن يحارب نفسه وشيطانه، وليعلم أن هذا الواقع من المصائب في نفسه وماله وولده، وقع برضى مالكه وخالقه، فيجب على العبد أن يرضى بما يرضى به السيد، ويعاقب نفسه إذا جزعت، ويقول لها: أما علمت أن هذا لابد منه، فما وجه الجزع، وإنما هي ساعة كأن لم يكن ماكان، ومن تلمح العواقب هان عليه مرارة الدواء.

وعن أبي محمد الحريري قال: حضرتُ عند الجنيد قبل وفاته بساعتين، فلم يزل تالياً وساجداً، فقلت له: يا أبا القاسم قد بلغ ما أرى من الجهد، فقال: يا أبا محمد، أحوج ما كنت إليه هذه الساعة، فلم يزل كذلك حتى فارق الدنيا[٢].

لم يجزع على الدنيا إلا بقدر فوات العمر بدون طاعة. فإن أشدنا حبّاً للدنيا أشدنا جزعاً عند المصيبة.

وقال اسماعيل بن عمرو: دخلنا على ورقاء بن عمر وهو في الموت، فجعل يهلل ويكبر ويذكر الله ـ عزّ وجل ـ وجعل الناس يدخلون عليه ويسلمون عليه، فيرد عليهم السلام، فلما كثروا عليه أقبل على ابنه فقال:

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٥.

(٢) تسلية أهل المصائب ص٣٦.

يا بُني، اكفني رد السلام على هؤلاء لا يشغلوني عن ذكر ربي ـ عزّ وجل ـ[١].

وقال **عمر بن عبدالعزيز** ما أحب أن يُهوَّن علي في سكرات الموت فإنه آخر ما يكفر عن المرء المسلم[٢].

قال **إبراهيم بن داود**: قال بعض الحكماء إن لله عباداً يستقبلون المصائب بالبشر.

قال: أولئك الذين صفت من الدنيا قلوبهم[٣].

ينبغي للمصاب بنفسه، أو بولده أو بغيرهما، أن يجعل في المرض مكان الأنين ذكر الله ـ تعالى ـ والاستغفار والتعبد، فإن السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ كانوا يكرهون الشكوى إلى الخلق، سأل رجل **أبا بكر بن عبدالله** فقال: ما تمام النعمة؟ قال: أن تضع رجلاً على الصراط ورجلاً في الجنة[٤].

قال الحسن وذكر الوجع.. أما والله ما هو بشر أيام المسلم أيام نورت له فيها مراحله، وذكر فيها ما نسي من معاده، وكفر بها عنه خطاياه[٥]

قال **أبو مسعود البلخي**: من أصيب بمصيبة فمزق ثوباً أو ضرب صدراً فكأنما أخذ رمحاً يريد أن يقاتل به ربه ـ عزّ وجل ـ[٦].

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٦.
(٢) تسلية أهل المصائب ص٣٧.
(٣) تسلية أهل المصائب ص٢٣.
(٤) الشكر ص٥٤.
(٥) عدة الصابرين ص١١٩.
(٦) الإحياء ٤/١٣٩.

أخي: إن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب وما ينال كثيراً من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين.. فإذا سمع في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وهي وإن كان فيها راحة إلا إنها تدل على ضعف وخور، والصبر عنها دليل قوة وعز، وهي إشاعة سر الله ـ تعالى ـ عند العبد، وهي تؤثر شماتة الأعداء ورحمة الأصدقاء.

لا تشكـــون إلى صـــديـــق حـــالـــة
تـــــأتيـــــك في السراء والضراء
فلـــرحمـــة المتـــوجعين مـــرارةٌ
في القلـــب مثـــل شمـــاتـــة الأعـــداء[1]

قال عون: الإنسان إن سقم ندم، وإن صح أمن، وإن استغنى فتن، وإن افتقر حزن[2].

وعندما سئل الأحنف بن قيس: ما الحلم؟ قال: أن تصبر على ما تكره قليلاً[3].

وصدق والله فهو وقت قليل ثم يزول.. سحابة صيف وتنقشع ولو تأملت ماجرى لك من المصائب والآفات لرأيت كيف طواها النسيان، فإن

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٦.
(٢) الزهد لأبي عاصم ص٣٧.
(٣) عدة الصابرين ص١٢٥.

احتسبتها فقد بقيت لك حسناتها وأجر صبرها، وإلا فقد سليت كما تسلو البهائم.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣] ونحو هذه الآيات ورأى شواهد النصر والعزة على مراحل العصور للمسلمين اطمأن قلبه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

والكفار يصيبهم من البلاء والمصائب كأي إنسان على وجه الأرض.. والعبرة بالنهايات والنجاة من النار. وقد جمع الله لعباده الصالحين السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة.

قال وهب: عبدالله عابد خمسين عاماً، فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لك، قال: أي رب وما تغفر لي ولم أذنب؟ فأذن الله بعرقٍ في عنقه يضرب عليه، فلم ينم ولم يُصل، ثم سكن فنام ثم أتاه ملك فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق، فقال الملك: إن ربك يقول: إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق[١].

وذكر عن أبي معمر الأزدي قال: كنا إذا سمعنا ابن مسعود شيئاً نكرهه، سكتنا حتى يفسره لنا، فقال لنا ذات يوم: ألا إن السقم لا يكتب له أجر، فساءنا ذلك وكبر علينا، فقال: ولكن يكفر به الخطيئة فسرنا ذلك، وأعجبنا[٢].

هذا من كمال علمه وفقهه ـ رضي الله عنه ـ فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية به ومما تولد منها، فالطاعات ترفع الدرجات،

---

(١) عدة الصابرين ص ١٧٥.

(٢) عدة الصابرين باختصار ص ١١٤.

والمصائب تحط السيئات ولهذا قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه» وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». فهذا يرفعه، وهذا يحط خطاياه[١].

قال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريض أعوده، فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: اذكري المطروحين في الطرق، اذكري من لا مأوى له ولا من يخدمه[٢].

صبراً جميلاً ما أسرع الفرجا
من صدق الله في الأمور نجا
من خشي الله لم ينله أذى
ومن رجا الله كان حيث رجا[٣]

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً[٤].

وقال **سليمان بن القاسم**: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهمر[٥].

لعلك ـ أخي الكريم ـ أدركت منزلة الصبر فهي عدةٌ للنوائب والمصائب

---

(١) عدة الصابرين ص ١١٥.
(٢) عدة الصابرين ص ١٧٤.
(٣) السير ١٢/ ٥٨٩.
(٤) عدة الصابرين ١٢٤.
(٥) عدة الصابرين ١٢٤.

تؤجر على الصبر وترضى عن ربك على قضائه وقدره. . قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

عن مسلم بن يسار. . كان أحدهم إذا برىء قيل: ليهنك الطهر[١](*)

أخي: لعله خطر في بالك هذه المحاورة مع الإمام الغزالي. .

لعلك تقول هذه الأخبار على أن البلاء خيرٌ في الدنيا من النعم، فهل لنا أن نسأل الله البلاء، فأقول: لا وجه لذلك، ولما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**» وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها[٢].

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة، قد رفع لك علم، فشمر إليه فقد أمكن التشمير، واجعل سيرك بين مطالعة منيته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير، فتعلق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح، إنه غفورٌ شكور، واعلم ـ رحمك الله ـ أن الأعمال بخواتيمها، فإنه ربما أضله في اعتقاده، وربما حيل بينه وبين التوبة، فينبغي للمصاب بنفسه أو بغيره أن يعلم أو يعمل لغيره أنها صبر ساعة فيتجلد ويحارب العدو جهد طاقته، فبصدقة تحصل له عليه الإعانة من الله[٣].

أخي الحبيب:

قال شفيق البلخي: من يرى ثواب الشدة، لا يشتهي المخرج منها.

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٩٤.

(*) برىء عوفي من المرض ويعني بالطهر: الخلاص من الذنوب.

(٢) الإحياء ٤/ ١٤٠.

(٣) تسلية أهل المصائب باختصار ٣٧.

فاللهم لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.. أعطيت فأجزلت وقضيت فلطفت.. لانرجو سواك ولا نلجأ إلا إليك.

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة**» [رواه الترمذي].

وعنه ﷺ قال: «**ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك**».

قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] قال: إنهما معونتان على رحمة الله[1].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه نُعي إليه ابن له، فاسترجع وقال: عورة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجر قد ساقه الله تعالى، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله ـ تعالى ـ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

وما دمنا على هذه الأرض نسير فوق ثراها فإننا معرضون للبلاء والمصائب تارةً في النفس وأخرى في المال وثالثة في الأبناء.

هذا نبي الله ابيضت عيناه من الحزن على ابنه يوسف وهو كما قال الله تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: ٨٤] قال

---

(١) تسلية أهل المصائب ١٨٩.

همام بن قتادة: كظيم على حزن فلم يقل إلا خيراً[١].

وقد روي عن شمر أنه كان إذا عزى مصاباً قال: اصبر لما حكم ربك[٢].

وقال سفيان بن عيينه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] قال: لما أخذ برأس الأمر جعلناهم رؤوساً[٣].

وقد جمع الله للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

قال بعض السلف، وقد عُزي على مصيبة نالته: مالي لا أصبر. وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال، كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها[٤].

عن **محمد بن خلف** قال: كان لإبراهيم الحربي ابن، كان له إحدى عشرة سنة، حفظ القرآن ولقنه من الفقه جانباً كبيراً، قال: فمات، فجئت أعزيه فقال: كنت أشتهي موت ابني هذا، قال: فقلت له: يا أبا إسحاق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبي قد أنجب ولقنته الحديث والفقه؟ قال: نعم، رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن صبياناً بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم حاراً شديداً حره، قال:

---

(١) عدة الصابرين ١٢٧.
(٢) عدة الصابرين ١٢٥ تسلية أهل المصائب ١٧٥.
(٣) عدة الصابرين ١٢٥.
(٤) عدة الصابرين ٩٩.

فقلت لأحدهم: أسقني من هذا الماء، قال: فنظر إليّ وقال: ليس أنت أبي، قلت: فأي أنتم؟ قال: فقال لي: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا وخلفنا آباؤنا فنستقبلهم فنسقيهم الماء، قال: فلهذا تمنيت موته[١].

أخي: إنه لابد من الابتلاء بما يؤذي الناس، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه ألبتة، ولهذا ذكر الله ـ تعالى ـ في غير موضع أنه لابد أن يُبتلى الناس، والابتلاء يكون بالسراء والضراء، ولابد أن يبتلى الإنسان بما يسره وما يسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾[٢] [الكهف: ٧].

قال قيس بن الحجاج في قول الله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: ٥] قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو[٣].

وقد مات ابن لبعض قضاة البصرة، فاجتمع إليه العلماء والفقهاء، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع[٤].

عزى رجلٌ رجلاً في ابنه فقال: إنما يستوجب على الله وعده من صبر له بحقه، فلا تجمع إلى ما أصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر، فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى الرزيتين لك والسلام[٥].

---

(١) تسلية أهل المصائب ٤٣.
(٢) الفوائد ٢٧١.
(٣) عدة الصابرين ١٢٨.
(٤) عدة الصابرين ٣٢٦.
(٥) عدة الصابرين ١٢٨.

أمـــا والـــذي لا خُلـــد إلا لـــوجهـــه
ومـــن ليـــس في العـــز المنيـــع لـــه كفـــو
لئـــن كـــان بـــدء الصبر مـــرًّا مـــذاقـــه
لقـــد يُجنـــى مـــن غبتـــه الثمـــر الحلـــو[١]

أخي الحبيب:

من نزلت به بلية فأراد تمحيقها، فليتصورها أكثر مما هي تهُن، وليتخيل ثوابها وليتوهم نزول أعظم منها، يرى الربح في الاقتصار عليها، وليتلمح سرعة زوالها، فإنه لو لا كرب الشدة، مارجيت ساعة الراحة، وليعلم أن مدة مقامها عنده، كمدة مقام الضيف، يتفقد حوائجه في كل لحظة، فيا سرعة انقضاء مقامه، ويا لذة مدائحه وبشره في المحافل ووصف المضيف بالكرم. فكذلك المؤمن في الشدة. ينبغي أن يراعي الساعات، ويتفقد فيها أحوال النفس، ويتلمح الجوارح، مخافة أن يبدو من اللسان كلمة، أو من القلب تسخط، فكأن قد لاح فجر الأجر، فانجاب ليل البلاء، ومدح الساري بقطع الدجى، فما طلعت شمس الجزاء إلا وقد وصل منزل السلامة ومن عرف جريان الأقدار ثبت لها وصبر لها ساعة[٢].

لما مات **عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز** دفنه عمر وسوى عليه، ثم استوى قائماً، فأحاط به الناس فقال: رحمك الله يا بني، قد كنت براً بأبيك، والله مازلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك، ولا والله ماكنت قط

---

(١) عدة الصابرين ١٢٨.
(٢) صيد الخاطر ١٠٤.

أسر بك سروراً ولا أرجى بحظي من الله تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيرك الله إليه[١].

ولما مات أبو بكر الصديق قال علي بن أبي طالب: رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمرنا إنا لله وإنا إليه راجعون[٢].

وعندما أصيب مطرف بن عبدالله في ابن له، فأتاه قوم يعزونه، فخرج إليهم أحسن ما كان بشراً، ثم قال: إني لأستحي من الله أن أتضعضع لمصيبة[٣].

صبرت فكـــــان الصبر خير مغبـــــة
وهـــل جـــزع يجـــدي عليّ فـــأجـــزع
ملكـــت دمـــوع العين حتـــى رددتهـــا
إلى نـــاظـــري فـــالعين في القلـــب تـــدمـــع[٤]

أخي الكريم:

ليحذر العبد كل الحذر أن يتكلم في حال مصيبته وبكائه بشيء يحبط به أجره ويُسخط به ربه، مما يشبه التظلم، فإن الله تعالى عادلٌ لا يجور، وعالم لا يضل ولا يجهل، وحكيمٌ أفعاله كلها حكم ومصالح، ما يفعل شيئاً إلا بحكمه، وهو الفعال لما يريد، القادر على ما يشاء له الخلق والأمر، بل إنما يتكلم بكلام يُرضي به ربه، ويكثر به أجره، ويرفع الله به قدره[٥].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ٢٠١.
(٢) تسلية أهل المصائب ٢١٣.
(٣) عدة الصابرين ١٢٩.
(٤) عدة الصابرين ١٢٨.
(٥) تسلية أهل المصائب ٥٨.

كان صلة بن أشيم في غزاة له ومعه ابن له فقال له: أي بني! تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم فقُتل، فاجتمعت النساء، فقامت امرأته معاذة العذرية فقالت للنساء: مرحباً إن كنتن جئتن لتهنئنني مرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن[١].

حدث يزيد بن أبي حبيب: أن ابناً لعياض بن عقبة حضرته الوفاة، وكان عياض غائباً فقالت أم الغلام: لو كان أبو وهب حاضراً لقرت عينه، فلما حضرت وفاة عياض بن عقبة قال لأخيه أبي عبيد: يهنئك الظفر قد كنت أرجو أن تكون قبلي فأحتسبك[٢].

أي أنك تحتسبني وتصبر على مصيبتي وينالك الأجر بذلك. وحين مات عبدالله بن مطرف، خرج مطرف على قومه في ثياب حسنة وقد أدهن، فغضبوا وقالوا: يموت عبدالله، ثم تخرج في ثياب من هذه مدهناً؟ قال: أفأستكين لها، وقد وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا وما فيها قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[٣] [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧].

ولنتأمل مسابقتهم إلى ذلك الخير ورغبتهم فيما عندالله ورضاهم عن الله ـ جل وعلا ـ قال سهيل بن الحنظلية الأنصاري ـ وكان لا يولد له ـ لأن يولد لي ولد سقط، فأحتسبه أحب إليّ من أن يكون لي الدنيا بأجمعها، وكان

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ٢٩٩.
(٢) تسلية أهل المصائب ٤٤.
(٣) مختصر منهاج القاصدين ٢٩٩.

ابن الحنظلية ممن بايع تحت الشجرة[١].

أخي الحبيب:

الدنيا وضعت لبلاء فينبغي للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر، وأن يعلم أن ماحصل من المراد فلطف، ومالم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا.

وهنا تتبين قوة الإيمان وضعفه، فليستعمل المؤمن من أدوية هذا المرض التسليم للمالك والتحكيم لحكمته[٢].

ستمضي مع الأيام كل مصيبة
وتحدث أحداث تنسي المصائب[٣]

نسير مع هذه الصور الحية الناطقة في حياة من سبقنا ونرى كيف صبرهم ونلمس رضاهم عن الله ـ جل وعلا ـ في كل المصائب.

قال **عمر بن عبدالعزيز** لابنه: كيف تجدك؟ قال: في الموت، قال: لأن تكون في ميزاني أحب إلي أن أكون في ميزانك، فقال: والله يا أبه، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب[٤].

وعندما قيل لبعض الصالحين: قتل ولدك في سبيل الله! فبكى، فقيل له: أتبكي وقد استشهد؟ فقال: إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله ـ عز وجل ـ حين أخذته السيوف[٥].

---

(١) تسلية أهل المصائب ٤٤.
(٢) صيد الخاطر ٥٠٧.
(٣) بغداد ٦/ ٢٥٩.
(٤) تسلية أهل المصائب ٢١٣.
(٥) تسلية أهل المصائب ٢١٠.

أخي أين نحن من هؤلاء؟!

روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن سفيان، قال: سمعت سفيان يقول: مافي الأرض أحد أحب إلي من سعيد، وما في الأرض أحدٌ يموت أحب إلي منه، فمات فرأيته يبكي، قال: قد كنت تمنى موته، قال: أذكر قوله: آه جنبي[١].

ومات ابن **لعبدالرحمن بن مهدي** فجزع عليه جزعاً شديداً. فبعث إليه الشافعي يقول له: يا أخي، عزّ نفسك بما تعزي به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أمضَّ المصائب فقد سرورٍ وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر، فتناول حظَّك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد تنأى عنك، ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأحرز لنا بالصبر أجراً[٢].

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة
إذا اخضر منها جانبٌ جف جانب
وما الدهر والآمال إلا فجائعٌ
عليها وما اللذات إلا مصائب
فلا تكتمل عيناك منها بعبرة
على ذاهب منها فإنك ذاهب[٣]

سبحان المتصرف في خلقه بالاغتراب والإذلال ليبلو صبرهم، ويظهر جواهرهم في الابتلاء.

---

(١) تسلية أهل المصائب ٤٦.
(٢) تسلية أهل المصائب ١٧٥.
(٣) البداية والنهاية ١١/ ٣٢٠.

فمن تلمح بحر الدنيا وعلم كيف تُتلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعه الأيام لم يستهول نزول بلاء ولم يفرح بعاجل رخاء[١].

كان عروة بن الزبير قد صحب معه بعض أولاده وكان من جملتهم ابنه محمد، وكان أحبهم إليه، فدخل دار الدواب فرفسته فرسٌ فمات، فأتوه، فعزوه فيه فقال: الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت، ولئن كنت قد أخذت فطالما أعطيت[٢].

مكانة الصبر عظيمة يقول عمر بن عبدالعزيز: ما أنعم الله على عبده نعمة فانتزعها منه فعاضها مكانها الصبر إلا كان ما عوّضه خيراً مما انتزعه منه.

وعندما سئل الجنيد عن الصبر قال: هو تجرع المرارة من غير تعبس[٣].

والمصائب تنزل حولنا وتحف بنا.. كيف قلوبنا.. عامرةٌ بالصبر، عامرةٌ بالتقوى والرضا.. مستعدة لأشد بلاء يقابل المسلم.. ألا وهو الموت.

عزى صالح المري رجلاً قد مات ولده فقال: إن كانت مصيبتك أحدثت لك عظة في نفسك فنعم مصيبتك، وإن كانت لم تحدث لك عظة في نفسك فمصيبتك بنفسك أعظم من مصيبتك بابنك[٤].

---

(١) صيد الخاطر ٢٣٦.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ١١٥.
(٣) تسلية أهل المصائب ١٩٣.
(٤) تسلية أهل المصائب ١٢٨.

ولنسمع عن فضل الله وإحسانه على عباده:

عن أبي بكر قال: إن المسلم ليؤجر في كل شيء حتى في النكبة وانقطاع شسعه، والبضاعة تكون في كمه فيفقدها، فيفزع لها فيجدها في غبة[١].

وقد مات لعقبة ابن يقال له يحيى فلما نزل في قبره قال له رجل: والله إن كان لسيد الجيش فأحتسبه، فقال والده وما يمنعني أن أحتسبه وكان من زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات[٢].

أخي الكريم لينظر المصاب في كتاب الله وسنة رسول الله فيجد أن الله تعالى أعطى لمن صبر ورضي ماهو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.. ومن أنفع الأمور للمصاب.. أن يطفىء نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل قرية ومدينة بل في كل بيت من أصيب، فمنهم من أصيب مرة، ومنهم من أصيب مراراً، وليس ذلك بمنقطع حتى يأتي على جميع أهل البيت حتى نفس المصاب فيصاب، أسوة بأمثاله ممن تقدمه، فإنه إن نظر يمنة فلا يرى إلا محنة، وإن نظر يسرة فلا يرى إلا حسرة[٣].

فإذا علم المصاب أنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، فسرور الدنيا أحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً وإن سرت يوماً ساءت دهراً، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً، وما ملأت داراً حبرةً إلا ملأتها عبرة، وحصلت للشخص في

---

(١) تاريخ الخلفاء ٩٦.
(٢) تسلية أهل المصائب ٤٢.
(٣) تسلية أهل المصائب ٢٠.

يوم سروراً، إلا خبأت له في يوم شروراً[١].

عن الأحوص قال: دخلنا على ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وعنده بنون له ثلاثة غلمان كأنهم الدنانير فجعلنا نتعجب من حسنهم فقال: كأنهم يغبطونني؟ قلنا أي والله لبمثل هؤلاء يغبط المسلم فرفع رأسه إلى سقف البيت وقد عشعش فيه خطاف وباض فقال: والذي نفسي بيده لأن أكون قد نفضت يدي من تراب قبورهم أحب إلي من أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه، ثم قال: ما أصبحت على حال فتمنيت أني على سواها[٢].

وقال عمر بن ميمون بن مهران: كنت مع أبي ونحن نطوف بالكعبة، فلقي أبي شيخاً فعانقه أبي، مع الشيخ فتى قريباً مني، فقال له أبي: من هذا؟ قال: ابني، فقال: وكيف رضاك عنه؟ قال: ما بقيت خصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيتها فيه إلا واحدة، قال: وماهي؟ قال: كنت أحب أن يموت وأوجر فيه!.

قال: ثم فارقه أبي، قال: فقلت لأبي من هذا الشيخ؟ قال: هذا مكحول[٣].

هذا يحيى بن معاذ يقول في درر من الكلام: ابن آدم.. مالك تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت، ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت[٤]؟

قال بعض السلف وقد سأله رجل فقال: عظني؟! فقال: انظر منك إلى

---

(١) تسلية أهل المصائب ٢١.
(٢) تسلية أهل المصائب ٤٥.
(٣) تسلية أهل المصائب ٤٦.
(٤) تسلية أهل المصائب ٤٠.

آدم هل ترى منهم عينٌ تطرف؟ فقال حسبك[١].

كتب الموت على الخلق فكم
فل من جيش وأفنى من دول

قال **عبدالرحمن بن عوف** ـ رضي الله عنه ـ: أبتلينا بالضراء فصبرنا وأبتلينا بالسراء فلم نصبر، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[٢] [التغابن: ١٤].

وقال **الزجاج**.. أعلمهم الله ـ عز وجل ـ أن الأموال والأولاد مما يفتنون به، وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله ـ تعالى ـ[٣].

عن يعلى بن الوليد قال: لقيت أبا **الدرداء** فقلت: ما تحب لمن تُحب؟ قال: الموت، قلت: فإن لم يمت؟ قال: يقل ماله وولده[٤].

ومما يسلي العبد قول بعض الحكماء.. قد مات كل نبي، ومات كل نبيه ولبيب وفقيه وعالم، فلا تجزع ولا يوحشنك طريق الخلائق فيها[٥].

---

(١) تسلية أهل المصائب ٤٠.
(٢) منهاج القاصدين ٢٩٦.
(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٠.
(٤) السير ٢/ ٣٤٩.
(٥) تسلية أهل المصائب ٤٠.

أخي.. كلنا سائرون في طريق نهايته معروفة.. الموت هادم اللذات. ولكن

اصبر لكل مصيبة وتجلد
واعلم بأن المرء غير مخلد
أو ما ترى أن المصائب جمة
وترى المنية للعباد بمرصد
من لم يصب ممن ترى بمصيبة
هذا سبيل لست عنه بأوحد
وإذا ذكرت مصيبة تسلو بها
فاذكر مصابك بالنبي محمد[1]

فمن أعظم مصائبنا التي نحتسبها عند الله موته ﷺ ومن أعظم البشارات لمن أصيب بمصيبة فذكرها بعد مدة طويلة فجدد لها استرجاعاً وصبراً، ماله عند الله من الأجر كلما ذكرها واسترجع. قال ﷺ: «**مامن مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها**».

مات لرجل من السلف ولدٌ، فعزاه سفيان بن عيينة وآخرون وهو في حزن شديد حتى جاءه **الفضيل بن عياض** فقال: يا هذا أرأيت لو كنت في سجن وابنك، فأُفرج عن ابنك قبلك أما كنت تفرح؟ قال: بلى قال: فإن ابنك خرج من سجن الدنيا قبلك، فسرى عن الرجل وقال: تعزيت[2].

---

(١) تسلية أهل المصائب ٢٥.
(٢) تسلية أهل المصائب ١٢٠.

وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي في «عيون الحكايات» قال الأصمعي: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق، فقصدناها فسلمنا فإذا امرأة ترد علينا السلام، قالت: وما أنتم؟ قلنا: قوم ضالون عن الطريق، أتيناكم فأنسنا بكم فقالت: يا هؤلاء ولو وجوهكم عني حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل، ففعلنا، فألقت لنا مسحاً فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني، ثم جلست ترفع طرف الخيمة وتردها إلى أن رفعتها فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني، فوقف الراكب عليها، فقال: يا أم عقيل، أعظم الله أجرك في عقيل، قالت: ويحك مات ابني؟ قال: نعم قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت الأبل فرمت به في البئر، فقالت: انزل فاقض ذمام القوم، ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه وقرب إلينا الطعام فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا خرجت إلينا وقد تكورت فقالت: يا هؤلاء: هل منكم من أحد يُحسن من كتاب الله شيئاً؟ قلت نعم، قالت: اقرأ علي من كتاب الله آيات أتعزى بها، قلت يقول الله ـ عزّ وجل ـ في كتابه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧] قالت: الله إنها لفي كتاب الله هكذا؟ قلت: الله إنها لفي كتاب الله هكذا، قالت: السلام عليكم، ثم صفت قدميها وصلت ركعات ثم قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون» عندالله أحتسب عقيلاً، تقول ذلك ثلاثاً، اللهم إني فعلت ما أمرتني به فانجز لي ما وعدتني[1].

---

(١) تسلية أهل المصائب ١٩٤.

وعن **مسلم بن يسار** قال: قدمت البحرين، فأضافتني امرأة لها بنون ورقيق ومال ويسار فكنت أراها محزونة، فلما خرجت من عندها قلت لها ألك حاجة؟ قالت: نعم. إن أنت قدمت بلدتنا هذه أن تنزل عليّ، فغبت عنها كذا وكذا سنة، ثم أتيتها فلم أر ببابها أنيساً، فاستأذنت عليها فإذا هي ضاحكة مسرورة، قلت لها ما شأنك؟ قالت: إنك لما غبت عنا لم نرسل في البحر شيئاً إلا غرق، ولا في البر شيئاً إلا عطب، وذهب الرقيق ومات البنون، فقلت لها: يرحمك الله رأيتك محزونة في ذلك اليوم ومسرورة في هذا اليوم؟ فقالت: نعم إني لما كنت فيه من سيئة الدنيا خشيت أن يكون الله قد عجَّل حسناتي في الدنيا، فلما ذهب مالي وولدي ورقيقي رجوت أن يكون الله قد ادخر لي عنده خيراً ففرحت[١].

اعلم ـ أخي الكريم ـ أن الرضا بالمصائب أشق على النفوس من الصبر، وقد تنازع العلماء والمشايخ في الرضا بالقضاء هل هو واجب أو مستحب، على قولين فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، فالعبد قد يصبر على المصيبة ولا يرضى بها، فالرضا أعلى من مقام الصبر، لكن الصبر اتفقوا على وجوبه والرضا اختلفوا في وجوبه، والشكر أعلى من مقام الرضا، فإنه يشهد المصيبة نعمة، فيشكر المبتلى عليها قال عبدالواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا وسراج العابدين[٢].

فعليك ـ أخي ـ بالشكر لما قضى والرضا بما جرى والصبر على ما كان..

---

(١) تنبيه الغافلين ١٣٤.

(٢) تسلية أهل المصائب ٢٠٨.

فإن للبلايا مهما طالت نهايات مقدرة عند الله ـ عزّ وجل ـ.

وتأمل في قول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]. فإن في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن من أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها مالا يعمله العبد، **وأوجب له ذلك أموراً:**

منها: أنه لا أنفع له منهامتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذاتٌ وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خيرٌ لها وأنفع، ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ماليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئاً. بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له، أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أُخرى، ومع

هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله، أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، «وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه، لأنه مع اختياره لنفسه، ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدَّره[1].

أخي الحبيب:

في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أصاب عبداً همٌ ولا حزنٌ فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكانه فرحاً، قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلمهن؟ قال: بلى. ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**».

* **سُئل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: عمن يتسخط إذا نزلت به مصيبة؟**

فأجاب بقوله: الناس حال المصيبة على مراتب أربع:

المرتبة الأولى: التسخط وهو على أنواع:

النوع الأول: أن يكون بالقلب كأن يتسخط على ربه يغتاظ مما قدره الله عليه، فهذا حرام، وقد يؤدي إلى الكفر قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ

---

(١) الفوائد بإختصار ١٧٩.

عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

النوع الثاني: أن يكون التسخط باللسان كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وهو حرام.

النوع الثالث: أن يكون التسخط بالجوارح كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور وما أشبه ذلك وكل هذا حرام مناف للصبر الواجب.

المرتبة الثانية:

الصبر: وهو كما قال الشاعر:

والصبرُ مثـــل اسمـــه مـــر مـــذاقتـــه
لكـــن عـــواقبـــه أحلى مـــن العســـل

فيرى أن هذا الشيء ثقيل عليه لكنه يتحمله، وهو يكره وقوعه ولكن يحميه من السخط، فليس وقوعه وعدمه سواء عنده، وهذاواجب لأن الله تعالى أمر بالصبر فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

المرتبة الثالثة:

الرضا: بأن يرضى الإنسان بالمصيبة بحيث يكون وجودها وعدمها سواء فلا يشق عليه وجودها، ولا يتحمل لها حملاً ثقيلاً، وهذه مستحبة وليست بواجبة على القول الراجح، والفرق بينها وبين المرتبة التي قبلها ظاهر لأن المصيبة وعدمها سواء في الرضا عند هذا، أما التي قبلها فالمصيبة صعبة عليه لكن صبر عليه.

المرتبة الرابعة:

الشكر: وهو أعلى المراتب، وذلك بأن يشكر الله على ما أصابه من

مصيبة حيث عرف أن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته قال ﷺ: «**مامن مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها حتى الشوكة يشاكها**»(١).

أخي الحبيب:

إن كانت الدنيا أطلقت سهامها وسلت سيوفها.. فإنا رضينا بقضاء الله وقدره نشكره على قضائه ونصبر على طاعته، فهو صاحب الإحسان الجزيل والعطاء الكثير.. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

جعلني الله وإياك من الشاكرين الراضين الصابرين المحتسبين.. وجمعني وإياك في جنات عرضها السموات والأرض فيها السعادة بلا شقاء والحياة بلا موت والنعيم بلا زوال.

وجعلني الله وإياكم من الصابرين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَ�ٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧].

* * *

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين ٢/١٠٩.

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامدالغزالي، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

٢ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي، دار الكتب العلمية.

٣ ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ـ ابن قيم الجوزية ـ مكتبة الرياض الحديثة.

٤ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

٥ ـ تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.

٦ ـ تاريخ عمر لابن الجوزي تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

٧ ـ تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق، ١٤١٠هـ.

٨ ـ تسلية أهل المصائب، الإمام أبي عبدالله محمد بن المنبجي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ.

٩ ـ تفسير ابن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١هـ.

١٠ ـ الثبات عند الممات لابن الجوزي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

١١ ـ جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي ـ مكتبة طيبة.

١٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
١٣ ـ ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت ١٤٠٠هـ.
١٤ ـ ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.
١٥ ـ كتاب الزهد لأبي عبدالله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.
١٦ ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وحسين الأسد مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.
١٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث.
١٨ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٤هـ.
١٩ ـ كتاب الشكر لابن أبي الدنيا. ط٣، ١٤٠٥هـ.
٢٠ ـ الصبر وأثره في حياة المسلم، عبدالله بن جار الله آل جار الله، دار الصميعي ط١ ـ ١٤١٣هـ.
٢١ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمد فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.
٢٢ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ.
٢٣ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى مطبعة السنة المحمدية.
٢٤ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية تحقيق محمد عثمان دار الكتاب العربي ط ٢، ١٤٠٦هـ.

٢٥ ـ فتاوى ابن تيمية جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد تصوير ط١ ـ ١٣٩٨هـ دار العربية بيروت.

٢٦ ـ الفوائد لابن القيم، دار النفائس.

٢٧ ـ مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ـ جمع فهد السليمان، دار الوطن ١٤١٣هـ.

٢٨ ـ مختصر منهاج القاصدين تأليف الإمام أحمد عبدالرحمن بن قدامة المقدسي تحقيق زهير الشاويش المكتب الإسلامي ط٧، ١٤٠٦هـ.

٢٩ ـ مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية ـ مكتبة الرياض الحديثة.

٣٠ ـ مكاشفة الصدور المقرب لحضرة علام الغيوب للإمام الغزالي ـ دار إحياء العلوم.

٣١ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ.

٣٢ ـ موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان، ط١٣، ١٤٠٣هـ.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

لحظات ساكنة

مقدمة الطبعة الثانية .....
مقدمة الطبعة الأولى .....
الوقفة الأولى: الموت .....
الوقفة الثانية: الاحتضار .....
الوقفة الثالثة: الجنازة .....
الوقفة الرابعة: القبر .....
الوقفة الخامسة: التعزية .....
المصادر .....

والثمن الجنة

المقدمة .....
الصلاة .....
الحنين إلى الصلاة .....
الصلاة مع الجماعة .....
الوقوف بين يدي الله .....
سنة الضحى .....
خشوع السلف .....
مراتب الناس في الصلاة .....

حكم تارك الصلاة .....
المصادر .....

أولئك الأخيار

المقدمة قيام الليل .....
مكابدة الليل .....
الاستعداد لقيام الليل .....
حال العابدين في الليل .....
الأسباب المانعة من قي امالليل .....
الشباب وقيام الليل .....
ليس ذاك بجذع من علامات الشقاء .....
الأسرة الصالحة .....
الجارية .....
إياك والغفلة .....
لذات الدنيا .....
الأسباب التي تعين على قيام الليل .....
هديه ﷺ في قيام الليل .....
المصادر .....

اصبر واحتسب

المقدمة .....
الصبر .....
حقيقة الصبر .....
أقسام الصبر .....

علاج المصائب . . . . . .
آداب الصبر . . . . . .
الجزع لا يرد مصيبة . . . . . .
مكانة الصبر . . . . . .
من كمال الصبر . . . . . .
السعادة في طاعة الله . . . . . .
حسن التوفيق . . . . . .
التجزع من المصائب . . . . . .
مما يسلي أهل المصائب . . . . . .
العاقبة للمتقين . . . . . .
ثواب الشدة . . . . . .
ثواب الصابرين . . . . . .
نعمة الصبر . . . . . .
مراتب الناس حال المصائب . . . . . .

* * *